



احياء علوم الدين (ربع المهلكات والمنجيات)
للغزالى ، محمد بن محمد ـ ٥٠٥هـ . كتب
فى القرن العاشر الهجرى تقديرا .

ج٣ـ٤فى مجلدين (ق٢١٠،١٣٢) ٢٧،٢١س
٢٥٫٥×١٨٫٥ سم
نسخة جيدة ، خطها نسخ معتاد ، طبع
الاعلام ٧ : ٢٤٧ كشف الظنون ١: ٢٣،٢٤
١ ـ أصول الدين أ ـ المؤلف
ب ـ تاريخ النسخ ج ـ ربع المهلكات
د ـ ربع المنجيات .



من كتاب
التصوف الشكر

هذا كتاب احيا علوم الدين للغزالي رحمه الله

دخل في ملك افقر واحوج العباد محمد ابن محمد ابن محمد الدسوقي ال...
العباد ... سنة ١٠٧١

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين ولمن دعا له بالمغفرة

امين والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله اهل الحمد والثناء المتفرد برداء الكبرياء المتوحد بصفات المجد والعلاء المؤيد صفوة
الاولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء والصلوة على محمد سيد الانبياء وعلى اصحابه
سادة الاصفياء وعلى آله قادة البررة الاتقياء صلوة محروسة بالدوام عن الفناء ومصونة بالتعاقب عن
التصرم والانقضاء اما بعد فان الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر كما وردت به الآثار
وشهدت له الاخبار وهما ايضا وصفان من اوصاف الله تعالى واسمان من اسمائه الحسنى اذ سمى نفسه صبورا
وشكورا فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الايمان ثم هو غفلة عن وصفين من اوصاف
الرحمن ولا سبيل الى الوصول الى القرب من الله تعالى الا بالايمان وكيف يتصور سلوك سبيل الايمان دون معرفة
ما به الايمان ومن به الايمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الايمان وعن
ادراك ما به الايمان فما احوج كلا الشطرين الى الايضاح والبيان ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب
واحد لارتباط احدهما بالآخر الشطر الاول في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر وبيان حده وحقيقته
وبيان كونه نصف الايمان وبيان اختلاف اسمائه باختلاف متعلقاته وبيان اقسامه بحسب اختلاف
القوة والضعف وبيان مظان الحاجة الى الصبر وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه فهي سبعة
فصول تشتمل على جميع مقاصده

بيان فضيلة الصبر

قد وصف الله تعالى الصابرين
باوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا واضاف اكثر الخيرات والدرجات الى
الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل وجعلنا منهم ائمة يهدون بامرنا لما صبروا وقال تعالى
وتمت كلمت ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا وقال تعالى ولنجزين الذين صبروا اجرهم باحسن ما
كانوا يعملون وقال تعالى اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا وقال تعالى انما يوفى الصابرون اجرهم
بغير حساب فما من قربة الا واجرها بتقدير وحساب الا الصبر ولاجل كون الصوم من الصبر وانه نصف
الصبر قال تعالى الصوم لي وانا اجزي به فاضافه الى نفسه من بين سائر العبادات ووعد
الصابرين بانه معهم فقال واصبروا ان الله مع الصابرين وعلق النصرة على الصبر فقال

ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وجمع
الصابرين [illegible] لم يجمعها لغيرهم فقال اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون
فالهدى والصلوات والرحمة مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول واما
الاخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم الصبر نصف الايمان على ما سيأتي وجه كونه نصفا وقال صلى الله عليه وسلم
من اقل ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن اعطي حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار
ولان تصبروا على مثل ما انتم عليه احب الي من ان يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكني اخاف ان يفتح عليكم
الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضا وينكركم اهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه
ثم قرأ قوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا الآية وروى جابر رضي الله عنه
انه سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الايمان فقال الصبر والسماحة وقال ايضا الصبر كنز من كنوز الجنة
وسئل مرة ما الايمان فقال الصبر والسماحة وهذا يشبه قوله الحج عرفة وقال ايضا افضل الاعمال
ما اكرهت عليه النفوس وقيل اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام تخلق باخلاقي وان من اخلاقي
اني انا الصبور وفي حديث عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم
على الانصار فقال امؤمنون انتم فسكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله فقال وما علامة ايمانكم فقالوا
نشكر الله على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال مؤمنون ورب الكعبة وقال صلى الله عليه وسلم
في الصبر على ما تكره خير كثير وقال المسيح عليه السلام انكم لا تدركون ما تحبون الا بصبركم على ما تكرهون
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين والاخبار في هذا
مما لا يحصى واما الآثار فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب الى ابي موسى الاشعري عليك بالصبر
واعلم ان الصبر صبران احدهما افضل من الآخر الصبر في المصيبات حسن وافضل منه الصبر عما حرم الله
واعلم ان الصبر ملاك الايمان وذلك بان التقوى افضل البر والتقوى بالصبر وقال علي رضي الله عنه بني
الايمان على اربع دعائم اليقين والصبر والجهاد والعدل وقال ايضا الصبر من الايمان بمنزلة
الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا ايمان لمن لا صبر له وكان عمر رضي الله عنه يقول نعم العدلان

ونعم العلاوة للصابرين يعني بالعدلين الصلوة والرحمة وبالعلاوة الهدى والعلاوة ما
يحمل فوق العدلين على البعير واشار به الى قوله تعالى اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة لا
وكان حبيب بن ابي حبيب اذا قرا هذه الاية انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب بكى وقال واعجباه
اعطى واثنى اي هو المعطي للصبر وهو المثني عليه وقال ابو الدرداء رضي الله عنه ذروة الايمان الصبر
للحكم والرضاء بالقدر هذا فضيلة الصبر من حيث النقل فاما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا
تفهمه الا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه اذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل
معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه

بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم ان الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين وجميع مقامات الدين انما ينتظم
من ثلثة امور معارف واحوال واعمال فالمعارف هي الاصول وهي تورث الاحوال والاحوال تثمر الاعمال
فالمعارف كالاشجار والاحوال كالاغصان والاعمال كالثمار وهذا مطرد في جميع منازل السالكين
الى الله تعالى واسم الايمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على الكل كما ذكرناه في اختلاف اسم الايمان
والاسلام في كتاب قواعد العقائد وكذلك الصبر لا يتم الا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة
فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ولا يعرف هذا الا بمعرفة
كيفية الترتيب بين الانس والبهائم فان الصبر خاصية الانس ولا يتصور ذلك في البهائم
والملائكة اما في البهائم فلنقصانها واما في الملائكة فلكمالها وبيانه ان البهائم سلطت عليها
الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون الا الشهوة وليس فيها قوة تصادم
الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى تلك الشهوة صبرا واما
الملائكة فانهم جردوا للشوق الى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم يسلط
عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى تحتاج الى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند
اخر يغلب الصوارف واما الانسان فانه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه
الا شهوة الغذاء الذي هو محتاج اليه ثم يظهر فيه شهوة اللعب والزينة ثم شهوة النكاح على الترتيب
وليس له قوة الصبر البتة اذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند اخر قام القتال بينهما
لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما وليس في الصبي الا جند الهوى كما في البهائم ولكن الله بفضله وسعة
جوده اكرم ابن ادم ورفع درجته عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين
احدهما يهديه والاخر يقويه فتميز بمعونة الملكين عن البهائم واختص بصفتين احدهما معرفة
الله تعالى ومعرفة رسوله صلى الله عليه وسلم ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك
حاصل من الملك الذي اليه الهداية والتعريف فالبهيمة لا معرفة لها ولا مصلحة العواقب بل
الى مقتضى شهوتها في الحال فقط فلذلك لا تطلب الا اللذيذ فاما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال
فلا تطلبه ولا تعرفه فصار الانسان بنور الهداية يعرف ان اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة
ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم يكن له قدرة على ترك ما هو مضر فكم من مضر يعرفه الانسان كالمرض
النازل به مثلا ولكن لا قدرة له على دفعه فافتقر الى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها
بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه فوكل الله به ملكا اخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود
لم تروها وامر هذا الجند بقتال جنود الشهوة فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى وذلك بحسب
امداد الله تعالى عبده بالتاييد كما ان نور الهداية يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر فلنسم هذه
الصفة التي بها فارق الانسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا ولنسم
مطالبة الشهوة بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم ان القتال قائم بين باعث الدين
وباعث الهوى والحرب بينهما سجال ومعركة هذا القتال قلب العبد ومدد باعث الدين من
الملائكة الناصرين لحزب الله ومدد باعث الهوى من الشياطين الناصرين لاعداء الله فالصبر
عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة فان ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة
الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين وان تخاذل وضعف حتى غلبت الشهوة
ولم يصبر على دفعها التحق باتباع الشياطين فاذا ترك الافعال المشتهاة عمل يثمره حال
تسمى الصبر وهو ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة وثبات باعث الدين حال يثمرها المعرفة

بعداوة الشهوات ومضادتها لاسباب السعادات في الدنيا والآخرة فاذا قوي يقينه اعني
المعرفة التي تسمى ايمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله عز وجل قوي ثباث باعث
الدين فاذا قوي ثباته عن الافعال على خلاف ما يتقاضاه الشهوة فلا يتم ترك الشهوة الا بقوة باعث
الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة المعرفة والايمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها وهذان
الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين باذن الله تعالى وتسخيرهم اياهما وهما من الكرام الكاتبين
وهما الموكلان بكل شخص من الآدميين واذا عرفت ان رتبة الملك الهادي اعلى من رتبة الملك المقوي
لم يخف عليك ان جانب اليمين الذي هو اشرف الجانبين من جنبتي الدست ينبغي ان يكون مسلما له فهو
اذا صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال وللعبد طوران في الغفلة والفكر وفي الاسترسال والمجاهدة
فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء اليه فيكتب اعراضه سيئة وبالفكر مقبل عليه ليستفيد
منه الهداية فهو به محسن فيكتب له حسنة ولذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد
منه فهو مسيء اليه فيكتب عليه سيئة وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيكتب له به حسنة وانما تثبت
هذه الحسنات والسيئات باثباتهما فلذلك سميا كراما كاتبين اما الكرام فلانتفاع العبد بكرمهما ولان
الملائكة كلهم كرام بررة واما الكاتبين فلاثباتهما الحسنات والسيئات وانما يكتبان في صحايف مطوية
في سر القلب ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليها في هذا العالم فانهما وكتبتهما وخطهما
وصحايفهما وجملة ما يتعلق بهما من عالم الغيب والملكوت لا من عالم الشهادة وشيء من عالم الملكوت
لا تدركه الابصار في هذا العالم ثم تنشر هذه الصحايف المطوية عنه مرتين مرة في القيامة الصغرى
ومرة في القيامة الكبرى واعني بالقيامة الصغرى حالة الموت اذ قال صلى الله عليه وسلم من مات فقد قامت
قيامته وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال له ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم
اول مرة وفيها يقال كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا اما في القيمة الكبرى الجامعة لكافة الخلق
فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق وفيها يساق المتقون الى الجنة والمجرمون الى النار
زمرا لا احادا والهول الاول هو هول القيمة الصغرى وجميع اهوال القيمة الكبرى نظير في القيمة الصغرى

مثل زلزلة الارض مثلا فان ارضك الخاصة بك تزلزل في الموت فانك تعلم ان الزلزلة اذا نزلت
ببلدة صدق ان يقال قد زلزلت ارضهم وان لم تزلزل البلاد المحيطة بها بل لو زلزل مسكن الانسان
وداره فقد حصلت الزلزلة في حقه لانه انما يتضرر عند زلزلة جميع الارض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة
مسكن غيره فحصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان واعلم انك ارضي مخلوق من
التراب وحظك الخاص من التراب بدنك فقط فاما بدن غيرك فليس بحظك والارض التي انت جالس عليها
بالاضافة الى بدنك ظرف ومكان وانما تخاف من تزلزلها ان يتزلزل بذلك بدنك والا فالهواء ابدا متزلزل
وانت لا تخشاه اذ ليس يتزلزل به بدنك فحظك من زلزلة الارض كلها زلزلة بدنك فقط
فهي ارضك وترابك الخاص بك وعظامك جبال ارضك وراسك سماء ارضك وقلبك شمس
ارضك وسمعك وبصرك وساير حواسك نجوم سمائك ومفيض العرق من بدنك بحر ارضك وشعورك
نبات ارضك واطرافك اشجار ارضك وهكذا الى جميع اجزائك فاذا انهدمت بالموت اركان بدنك
فقد زلزلت الارض زلزالها فاذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الارض والجبال
فدكتا دكة واحدة فاذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا فاذا اظلم قلبك عند
الموت فقد كورت الشمس تكويرا فاذا ابطل سمعك وبصرك وساير حواسك فقد انكدرت النجوم
انكدارا فاذا انشق دماغك فقد انشقت السماء انشقاقا فاذا انفجر من هول الموت عرق جبينك
فقد فجرت البحار تفجيرا فاذا التفت احدى ساقيك بالاخرى وهما مطيتك فقد عطلت العشار
تعطيلا فاذا فارق الروح الجسد فقد حملت الارض فمدت حتى القت ما فيها وتخلت
ولست اطول بموازنة جميع الاحوال والاهوال ولكني اقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة
ولا يفوتك من القيمة الكبرى شيء مما يخصك بل ما يخص غيرك فان بقاء الكواكب ماذا ينفعك و
قد انتثرت حواسك التي بها تنتفع بالكواكب والاعمى يستوي عنده الليل والنهار وكسوف
الشمس وانجلاؤها لانه قد كسفت في حقه دفعة واحدة وذلك حظه منها فالانجلاء
بعد ذلك حصة غيره ومن انشق راسه فقد انشقت سماؤه اذ السماء عبارة عما يلي جهة الراس

حظ غيره

حظ غيره

فمن لا راس له لا سماء له فمن اين ينفعه بقاء السماء لغيره فهذه القيمة الصغرى والخوف بعد اسفل و
الهول بعد منتظر وذلك اذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الخصوص وبطلت السموات والارض ونسفت
الجبال وتمت الاهوال واعلم هذه الصغرى وان طولنا في وصفها فانا لم نذكر عشر عشير اوصافها
فهي بالنسبة الى القيمة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة الى الولادة الكبرى فان للانسان ولادتين
احديهما الخروج من بين الصلب والترائب الى مستودع الارحام وهو في الرحم في قرار مكين الى قدر
معلوم وله في سلوكه الى الكمال منازل واطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها الى ان يخرج من
مضيق الى فضاء العالم فنسبة عموم القيمة الكبرى الى خصوص القيمة الصغرى كنسبة سعة
فضاء العالم الى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت الى سعة فضاء الدنيا
كنسبة فضاء الدنيا ايضا الى الرحم بل اوسع واعظم فقس الاخرة بالاولى فما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس
واحدة واما النشاة الثانية الا على قياس النشاة الاولى بل اعداد النشات ليست محصورة
في اثنين واليه الاشارة بقوله تعالى وننشئكم فيما لا تعلمون فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب
والشهادة وموقن بالملك والملكوت والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء
الى احد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالاعور الدجال فما اعظم غفلتك
يا مسكين وكلنا ذلك المسكين وبين يديك هذه الاهوال فان كنت لا تؤمن بالقيمة الكبرى
بالجهل والضلال افلا يكفيك القيمة الصغرى اما سمعت قول سيد المرسلين عليه السلام كفى
بالموت واعظا او ما سمعت بكربه صلى الله عليه وسلم في وقت الموت حتى قال اللهم هون على محمد سكرات
الموت او ما تستحيي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون
الا صيحة واحدة تاخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون فياتيهم
المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون وياتيهم الشيب رسولا منه فلا يعتبرون فيا حسرة
على العباد ما ياتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن افيظنون انهم في الدنيا خالدون او لم
يروا كم اهلكنا قبلهم من القرون انهم اليهم لا يرجعون ام يحسبون ان الموتى سافروا من عندهم

فهم معدومون كلا ان كل لما جميع لدينا محضرون ولكن ما ياتيهم من اية من ايات ربهم
الا وهم عنها معرضون وذلك لانا جعلنا من بين ايديهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء
عليهم ءانذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون فلنرجع الى الغرض فان هذه تلويحات تشير الى امور هي
اعلى من علوم المعاملة فنقول قد ظهر ان الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى
وهذه خاصية الادميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين
اذ ذكرنا ان الحسنة في الاقبال على الاستفادة منهم والسيئة في الاعراض وما للصبيان
والمجانين سبيل الى الاستفادة فلا يتصور منهم اقبال واعراض وهما لا يكتبان الا الاقبال
والاعراض من القادرين على الاقبال والاعراض ولعمري يظهر مبادي اشراق نور الهداية
عند سن التمييز وتنمو على التدريج الى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح الى ان يطلع قرص الشمس
ولكنها هداية قاصرة لا ترشد الى مضار الاخرة بل الى مضار الدنيا فلذلك يضرب على ترك الصلوة
ناجزا ولا يعاقب في الاخرة ولا يكتب عليه من الصحايف ما ينشر في الاخرة بل على القيم العدل
والولي البر الشفيق ان كان من الابرار وكان على سمت الكرام البررة الاخيار ان يكتب على الصبي
سيئته وحسنته على صحيفة قلبه فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشر عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب
فكل ولي هذا سمته في حق الصبي فقد ورث اخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي فينال
بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين من
الصديقين واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم انا وكافل اليتيم كهاتين

بيان كون الصبر نصف الايمان اعلم ان الايمان تارة يختص في اطلاقه بالتصديقات
باصول الدين وتارة يختص بالاعمال الصالحة الصادرة منها وتارة عليهما جميعا
وللمعارف ابواب وللاعمال ابواب ولاشتمال لفظ الايمان على جميعها كان الايمان
نيفا وسبعين بابا واختلاف هذه الاطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقايد
من ربع العبادات ولكن الصبر نصف الايمان باعتبارين وعلى مقتضى اطلاقين

احدهما ان يطلق على التصديقات والاعمال جميعا فيكون للايمان ركنان احدهما اليقين
والاخر الصبر والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله عبده الى اصول الدين
والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين اذ اليقين يعرفه ان المعصية ضارة والطاعة نافعة
ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة الا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث
الهوى والكسل فيكون الصبر نصف الايمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال
من اقل ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث الى اخره الاعتبار الثاني انه يطلق على الاحوال
المثمرة للاعمال لا على المعارف وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقي العبد الى ما ينفعه في الدنيا
والاخرة او يضره فيهما وله بالاضافة الى ما يضره حال الصبر وبالاضافة الى ما ينفعه حال الشكر
فيكون الشكر احد شطري الايمان بهذا الاعتبار كما كان اليقين احد الشطرين بالاعتبار الاول
وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وقد يرفع ايضا
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن بواعث الهوى بثبات باعث الدين
وكان باعث الهوى قسمين باعث من جهة الشهوة وباعث من جهة الغضب فالشهوة لطلب
اللذيذ والغضب للهرب من المولم وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهو شهوة
البطن والفرج دون مقتضى الغضب قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار الصوم نصف الصبر
لان كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع
الايمان فهكذا ينبغي ان تفهم تقديرات الشرع لحدود الاعمال والاحوال ونسبتها الى الايمان
والاصل فيه ان يعرف قد ذكر في ابواب الايمان وان اسم الايمان يطلق على وجوه مختلفة

ان الصبر ضربان ضرب بدني كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليه وهو اما بالفعل
كتعاطي الاعمال الشاقة اما من العبادات او من غيرها واما بالاحتمال كالصبر على الضرب
الشديد والمرض العظيم والجراحات الهايلة وذلك قد يكون محمودا اذا وافق الشرع

وكن

ولكن المحمود التام هو الضرب الاخر وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى
ثم هذا الضرب ان كان صبرا عن شهوة البطن والفرج سمي عفة وان كان على احتمال مكروه اختلفت
اساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي عليه الصبر فان كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر
وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع وهو اطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب
الخدود وشق الجيوب وغيرها وان كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس وتضاده حالة تسمى
البطر وان كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن وان كان في كظم الغيظ والغضب
سمي حلما ويضاده السفه وان كان في نايبة من نوايب الزمان مضجرة سمي سعة
الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر وان كان في اخفاء كلام سمي كتمان السر
وسمي صاحبه كتوما وان كان عن فضول العيش سمي زهدا ويضاده الحرص وان كان صبرا على
قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره فاكثر اخلاق الايمان داخل في الصبر فلذلك
لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عن الايمان فقال هو الصبر لانه اكثر اعماله واعزها كما قال
الحج عرفة وقد جمع الله تعالى اقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال والصابرين في الباساء والضراء
وحين الباس في الباساء اي المصيبة والضراء اي الفقر وحين الباس اي المحاربة اولئك
الذين صدقوا واولئك هم المتقون فاذا هذه اقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن ياخذ
المعاني من الاسامي يظن ان هذه احوال مختلفة في ذواتها وحقايقها من حيث راى الاسامي
مختلفة والذي يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله يلحظ المعاني اولا فيطلع على
حقايقها ثم يلاحظ الاسامي فانها وضعت دلالة على المعنى فالمعاني هي الاصول والالفاظ
هي التوابع ومن يطلب الاصول من التوابع لا بد وان يزل والى الفريقين الاشارة بقوله تعالى
افمن يمشي مكبا على وجهه اهدى امن يمشي سويا على صراط مستقيم فان الكفار لم يغلطوا
فيما غلطوا فيه الا بمثل هذه الانعكاسات

اعلم ان باعث الدين بالاضافة

الى باعث الهوى له ثلثة احوال احدها ان يقهر داعي الهوى فلا يبقى له قوة المنازعة ويتوصل
الى ذلك بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون الى هذه الرتبة هم الاقلون فلا
جرم هم الصديقون المقربون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فهؤلاء لازموا الطريق
المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمانت نفوسهم على مقتضى بواعث الدين واياهم ينادي
المنادي يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية الحالة الثانية
ان تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه الى جند الشيطان
ولا يجاهد ليأسه عن المجاهدة وهؤلاء هم الغافلون وهم الاكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم
وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا اعداء الله في قلوبهم التي هي سر من اسرار الله وامر من امور الله
واليهم الاشارة بقوله تعالى ولو شئنا لاتينا كل نفس هديها ولكن حق القول مني لاملان
جهنم من الجنة والناس اجمعين وهؤلاء هم الذين اشتروا الحيوة الدنيا بالاخرة فخسرت صفقتهم
وقيل لمن قصد ارشادهم فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة الدنيا ذلك مبلغهم من
العلم وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالاماني وذلك غاية الحمق كما
قال صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والاحمق من اتبع نفسه هواها
وتمنى على الله وصاحب هذه الحالة اذا وعظ قال انا مشتاق الى التوبة ولكنها
قد تعذرت علي فلست اطمع فيها او لم يكن مشتاقا الى التوبة ولكن قال ان
الله غفور رحيم فلا حاجة به الى توبتي وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته
فلا يستعمل عقله الا في استنباط دقايق الحيل التي بها يتوصل الى قضاء شهوته فقد
صار عقله في يدي شهوته كمسلم اسير في ايدي الكفار فيستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ
الخمور وحملها ومحله عند الله محل من يقهر مسلما ويسلمه الى الكفار ويجعله اسيرا عندهم
لانه تفاحش جنايته بسببه انه سخر ما كان حقه ان يستسخر وسلط من حقه ان
يتسلط عليه وانما استحق المسلم ان يكون متسلطا لما فيه من معرفة الدين وباعث
الدين

وانما استحق الكافر ان يكون متسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشيطان
وحق المسلم على نفسه اوجب من حق غيره عليه فمهما سخر المعنى الشريف الذي هو من حزب الله
وجند الملائكة للمعنى الخسيس الذي هو من حزب الشيطان المبعدين عن الله كان كمن ارق
مسلما لكافر بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فاخذ اعز اولاده وسلمه الى بعض اعدائه
فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته واستيجابه لنقمته لان الهوى ابغض اله عبد في الارض
عند الله والعقل اعز موجود خلق في الارض الحالة الثالثة ان يكون الحرب سجالا
بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين بعد لا من الظافرين
واهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا واخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم هذا باعتبار
القوة والضعف ويتطرق اليها ايضا ثلثة احوال باعتبار عدد ما يصبر عنه فانه اما
ان يغلب عليه جميع الشهوات او لا يغلب شيئا منها او يغلب بعضها دون بعض وتنزيل قوله
تعالى خلطوا عملا صالحا واخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم على من عجز عن بعض دون
بعض اولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالانعام بل هم اضل
سبيلا اذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات
وهذا قد خلق له وعطله فهو الناقص حقا المدبر يقينا ولذلك قيل
ولم ار في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام ويتقسم الصبر
ايضا باعتبار اليسر والعسر الى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه الا بجهد
جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبرا والى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بادنى
محاملة على النفس ويخص ذلك باسم الصبر واذا دام التقوى وقوي التصديق بما في
العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى
فسنيسره لليسرى ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره فان الرجل القوي يقدر
على ان يصرع الرجل الضعيف بادنى حملة وايسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعته
الاعياء

واللغوب ولا يضطرب في نفسه ولا ينبهر ولا يقوى على ان يصرع الشديد الا بتعب ومزيد جهد وعرق
جبين فهكذى تكون المصادعة بين باعث الدين وباعث الهوى فانه على التحقيق صراع بين
جنود الملائكة وجنود الشياطين ومهما اذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى
وتيسر الصبر بطول المواظبة اورث ذلك مقام الرضا كما سياتى فى كتاب الرضا والرضا اعلى من الصبر و
لذلك قال صلى الله عليه وسلم اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير وقال بعض
العارفين اهل الصبر على ثلث مقامات اولها ترك الشكوى وهذه درجة التائبين
والثانية الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين والثالثة المحبة لما يصنع به
مولاه وهذه درجة الصديقين وسنبين فى كتاب المحبة ان مقام المحبة اعلى من مقام الرضا
كما ان مقام الرضا اعلى من مقام الصبر وكان هذا الانقسام يجرى فى صبر خاص وهو الصبر على المصايب
والبلايا واعلم ان الصبر ينقسم ايضا باعتبار حكمه الى فرض ونفل ومكروه ومحرم فالصبر عن المحظورات
فرض وعن المكاره نفل والصبر على الاذى المحظور محظور لمن تقطع يده او يد ولده وهو يصبر عليه
ذلك ساكتا استحيا؛ وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فيهيج غيرته فيصبر عن اظهار
الغيرة ويسكت على ما يجرى على اهله والصبر المكروه هو الصبر على اذى ينال لم بجهة مكروهة
فى الشرع فليكن الشرع محك الصبر فكون الصبر نصف الايمان لا ينبغى ان يخيل اليك ان
جميعه محمود بل المراد به انواع من الصبر مخصوصة

اعلم ان جميع ما يلقى العبد فى هذه الحيوة
لا يخلوا من نوعين احدهما هو الذى يوافق هواه والآخر هو الذى لا يوافقه بل يكرهه
وهو محتاج الى الصبر فى كل واحد منهما وهو فى جميع الاحوال لا يخلوا عن احد هذين النوعين
او كلاهما فهو اذا لا يستغنى قط عن الصبر النوع الاول ما يوافق الهوى وهو الصحة
والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الاسباب وكثرة الاتباع والانصار وجميع ملاذ
الدنيا وما احوج العبد الى الصبر على هذه الامور فانه ان لم يضبط نفسه عن الاسترسال

والركون

والركون اليها والانهماك فى ملاذها المباحة منها اخرجه ذلك الى البطر والطغيان
فان الانسان ليطغى ان رآه استغنى حتى قال بعض العارفين البلاء يصبر عليه المؤمن والعافية
لا يصبر عليها الا صديق وقال سهل الصبر على العافية اشد من الصبر على البلاء ولما فتحت اموال
الدنيا على الصحابة قالوا ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ولذلك
حذر الله تعالى عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال يا ايها الذين امنوا لا تلهكم اموالكم
ولا اولادكم عن ذكر الله وقال تعالى ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال صلى الله عليه
الولد مبخلة مجبنة محزنة ولما نظر صلى الله عليه وسلم الى ابنه الحسن رضى الله عنه يتعثر فى قميصه
نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله انما اموالكم واولادكم فتنة انى لما رايت ابنى يتعثر
لم املك نفسى ان اخذته ففى ذلك عبرة لاولى الابصار فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية
ومعنى الصبر على العافية ان لا يركن اليها ويعلم ان ذلك مستودع عنده وعسى يرجع على
القرب وان لا يرسل نفسه فى الفرح بها ولا ينهمك فى التنعم واللذة واللهو واللعب وان يرعى
حقوق الله فى ماله بالانفاق وفى بدنه ببذل المعونة للخلق وفى لسانه ببذل الصدق
وكذلك فى ساير ما انعم الله عليه به وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم الا بالقيام بحق الشكر
كما سياتى وانما كان الصبر على السراء اشد لانه مقرون بالقدرة ومن العصمة ان لا تقدر و
الصبر على الحجامة والفصد اذا تولاه غيرك ايسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك
والجايع عند غيبة الطعام اقدر منه اذا حضرته الاطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها
فلهذا عظم فتنة السراء النوع الثانى ما لا يوافق الهوى والطبع وذلك لا
يخلوا اما ان يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى او لا يرتبط باختياره كا
لمصايب والنوايب او لا يرتبط اوله باختياره ولكن له اختيار فى ازالته كالتشفى
من المؤذى بالانتقام منه فهى ثلثة اقسام القسم الاول ما يرتبط باختياره
وهو ساير افعاله التى توصف بكونها طاعة او معصية وهما ضربان الضرب الاول

مباشرة

الطاعة والعبد يحتاج الى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لان النفس بطبعها
تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية ولذلك قال بعض العارفين ما من نفس الا وهي مضمرة
ما اظهر فرعون من قوله انا ربكم الاعلى ولكن فرعون وجد لذلك مجالا وقبولا فاظهر اذ
استخف قومه فاطاعوه وما من احد الا وهو يدعي ذلك مع عبده وخادمه واتباعه وكل من
هو تحت قهره وطاعته وان كان ممتنعا من اظهاره فان امتعاضه وغيظه عند تقصيرهم
في خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر الا عن اضمار الكبر ومنازعة الربوبية في رداء
الكبرياء فاذا العبودية شاقة على النفس مطلقا ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل
كالصلوة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكوة ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد
فالصبر على الطاعة صبر على الشدايد ويحتاج المطيع الى الصبر على طاعته في ثلثة احوال
الحالة الاولى قبل الطاعة وذلك في تصحيح النية والاخلاص والصبر عن شوايب الريا
ودواعي الافات وعقد العزم على الاخلاص والوفا وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف
حقيقة النية والاخلاص وافات الريا ومكايد النفس وقد نبه صلى الله عليه وسلم اذ قال
انما الاعمال بالنيات ولكل امرى ما نوى وقال الله تعالى وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين
له الدين ولهذا المعنى قدم الله الصبر على العمل فقال تعالى الا الذين صبروا وعملوا الصالحات
الحالة الثانية حالة العمل كيلا يغفل عن الله في اثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق ادابه
وسننه ويدوم على شرط الادب الى اخر العمل فيلازم الصبر عن دواعي الفتور الى الفراغ وهذا
ايضا من شدايد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى نعم اجر العاملين الذين صبروا اي صبروا
الى تمام العمل الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل اذ يحتاج الى الصبر عن افشائه و
التظاهر به للسمعة والريا والصبر عن النظر اليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط
اثره كما قال تعالى ولا تبطلوا اعمالكم وكما قال لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى فمن لم يصبر
بعد الصدقة عن المن والاذى فقد ابطل عمله والطاعات تنقسم الى فرض ونفل وهو محتاج

الى الصبر عليهما جميعا وقد جمع الله تعالى في قوله ان الله يامر بالعدل والاحسان
وايتائ ذي القربى فالعدل هو الفرض والاحسان هو النفل وايتاء ذي القربى هي المروة
وصلة الرحم وكل ذلك يحتاج الى الصبر الضرب الثاني المعاصي فما احوج العبد
الى الصبر عنها وقد جمع الله تعالى انواع المعاصي في قوله وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي
وقال صلى الله عليه وسلم المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه والمعاصي مقتضى باعث
الهوى واشد انواع الصبر على المعاصي الصبر عن المعاصي التي صارت مالوفة بالعادة فان
العادة طبيعة خامسة فاذا انضافت الى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان
على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها ثم ان كان ذلك الفعل مما تيسر فعله
كان الصبر عنه اثقل على النفس كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء
على النفس تعريضا وتصريحا وانواع المزح المؤذي للقلوب وضروب الكلمات التي
يقصد بها الازراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم
فان ظاهر ذلك غيبة وفي باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان احديهما نفي الغير
والاخرى اثبات نفسه وبها يتم الربوبية التي في طبعه وهو ضد ما امر به من العبودية
ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتادا في المحاورات يعسر
الصبر عنها حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكررها وعموم
الانس بها فترى الانسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق
لسانه طول النهار في اعراض الناس فلا يستنكر ذلك مع ما ورد في الخبر ان الغيبة اشد
من الزنا ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة
والانفراد فلا ينجيه غيره فالصبر على الانفراد اهون من الصبر على السكوت مع
المخالطة ويختلف شدة الصبر في احاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في
قوتها وضعفها وايسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوساوس فلا جرم

باختلاف في

يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه اصلا الا بان يغلب على القلب هم اخر في الدين
يستغرقه لمن اصبح وهمومه هم واحد والا فان لم يستعمل الفكر في شي معين لم يتصور فتور
القسم الثاني ما لا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه كما لو اوذي بفعل
او قول او جني عليه في نفسه او ماله فالصبر على ذلك بترك المكافاة تارة يكون واجبا وتارة
يكون فضيلة قال بعض الصحابة ما كنا نعد ايمان الرجل ايمانا اذا لم يصبر على الاذى وقال
تعالى ولنصبرن على ما اذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون وقسم صلى الله عليه وسلم مرة مالا
فقال بعض الاعراب من المسلمين هذه قسمة ما اريد بها وجه الله فاخبر به رسول الله صلى الله عليه
وسلم فاحمرت وجنتاه ثم قال رحم الله اخي موسى قد اوذي باكثر من هذا فصبر وقال تعالى
ودع اذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا وقال تعالى واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا
جميلا وقال تعالى ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وقال تعالى
ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيرا وان تصبروا و
تتقوا فان ذلك من عزم الامور اي تصبروا عن المكافاة ولذلك مدح الله العافين عن الناس
عن حقوقهم في القصاص وغيره وقال تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم
به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صل من قطعك واعط
من حرمك واعف عمن ظلمك ورايت في الانجيل قال عيسى عليه السلام لقد قيل لكم من قبل
ان السن بالسن والانف بالانف وانا اقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب
خدك الايمن فحول اليه الخد الايسر ومن اخذ رداك فاعطه ازارك ومن سخرك ليسير
معه ميلا فسر معه ميلين وكل ذلك امر بالصبر على الاذى فالصبر على اذى الناس
من اعلى مراتب الصبر لانه يتعاون فيه باعث الدين باعث الشهوة والغضب جميعا
القسم الثالث ما لا يدخل تحت الاختيار اوله واخره كالمصايب مثل موت الاعزة
وهلاك الاموال وزوال الصحة بالمرض وعمى العينين وفساد الاعضاء وبالجملة فسائر انواع

البلاء

فالصبر على ذلك من اعلى مقامات الصبر قال ابن عباس رضي الله عنه الصبر في القران على
ثلثة اوجه صبر على اداء فرايض الله فله ثلثمائة درجة وصبر عن محارم الله فله ستمائة
درجة وصبر في المصيبة عند الصدمة الاولى فله تسعمائة درجة وانما فضلت هذه الرتبة
مع انها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرايض لان كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم
فاما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه الا ببضاعة الصديقين فان ذلك شديد على النفس
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اسئلك من اليقين ما تهون به علي مصايب الدنيا فهذا صبر
مستنده حسن اليقين قال ابو سليمان والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره
وقال صلى الله عليه وسلم قال الله عز وجل اذا وجهت الى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه او ماله
او ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة ان انصب له ميزانا او
انشر له ديوانا وقال صلى الله عليه وسلم انتظار الفرج بالصبر عبادة وقال صلى الله عليه وسلم
من اصيب بمصيبة فقال كما امره الله تعالى انا لله وانا اليه راجعون اللهم اجرني في مصيبتي
واعقبني خيرا منها الا فعل الله ذلك به وقال انس حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله
عز وجل قال يا جبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه قال سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا قال جزاؤه
الخلود في داري والنظر الى وجهي وقال صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى اذا ابتليت عبدي
ببلاء فصبر ولم يشكني الى عواده ابدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فان ابراته
ابراته ولا ذنب له وان توفيته فالى رحمتي وقال داود عليه السلام ما جزاء الحزين يصبر
على المصايب ابتغاء مرضاتك قال جزاؤه ان البسه لباس الايمان فلا انزعه عنه ابدا وقال
عمر بن عبد العزيز في خطبته ما انعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر
الا كان ما عوضه منها افضل مما انتزع منه وقرا انما يوفى الصابرون اجرهم بغير
حساب وسئل فضيل عن الصبر فقال هو الرضا بقضاء الله قيل وكيف ذلك قال الراضي لا
يتمنى فوق منزلته وقيل حبس الشبلي في المارستان فدخل عليه جماعة فقال من انتم

يا ربي

قالوا اصابوك جاؤك زايرين فاخذ يرميهم بالحجارة فاخذوا يهربون فقال لو كنتم احبائه لصبرتم على بلائي وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها واصبر لحكم ربك فانك باعيننا ويقال ان امراة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها اما تجدين الوجع فقالت ان لذة ثوابها ازالت عن قلبي مرارة وجعه وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى الانسان بثلث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات وقال نبينا صلى الله عليه وسلم من اجلال الله ومعرفة حقه ان لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك ويروى عن بعض الصالحين انه خرج يوما وفي كمه صرة فافتقدها فاذا هي قد اخذت من كمه فقال بارك الله له فيها لعله احوج اليها مني وروي عن بعضهم انه قال مررت على سالم مولى ابي حذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له اسقيك ماء فقال جرني قليلا الى العدو واجعل الماء في الترس فاني صايم فان عشت الى الليل شربته فهكذا كان صبر سالكي طريق الاخرة على بلاء الله تعالى **فان قلت** فبماذا ينال درجة الصبر في المصايب وليس الامر الى اختياره وهو مكره شاء ام ابى فان كان المراد به ان لا يكون في نفسه كراهية للمصيبة فذلك غير داخل في الاختيار **فاعلم** انه انما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى واظهار الكابة وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم وهذه الامور داخلة تحت اختياره فينبغي ان يجتنب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله ويبقى مستمرا على عادته ويعتقد ان ذلك كان وديعة فاسترجعت وقد قيل الصبر الجميل هو ان لا يعرف صاحب المصيبة من غيره ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدموع على الميت فان ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الانسان الى الموت ولذلك لما مات ابرهيم ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقيل

وقيل له اما نهيتنا عن هذا فقال ان هذه رحمة وانما يرحم الله من عباده الرحماء بل ذلك ايضا لا يخرج عن مقام الرضا فالمقدم على الفصد والحجامة راض بذلك وهو متالم بسببه لا محالة وقد تفيض عينه اذا عظم المه وسياتي ذلك في كتاب الرضا وكتب ابن ابي نجيح يعزي بعض الخلفاء ان احق من عرف حق الله تعالى فيما اخذ منه من عظم حق الله عنده فيما ابقاه واعلم ان الماضي قبلك هو الباقي لك والباقي بعدك هو الماجور فيك واعلم ان اجر الصابرين فيما يصابون به اعظم من النعمة عليهم فيما يعافون فيه فاذا امهما دفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله عليه بالثواب نال درجة الصابرين نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر وساير المصايب وقد قيل من كنوز البر كتمان المصايب والاوجاع والصدقة فقد ظهر لك بهذه التقسيمات ان وجوب الصبر عام في جميع الاحوال والافعال فان الذي كفي الشهوات كلها واعتزل وحده فلا يستغني عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا فان اختلاج الخواطر لا يسكن واكثر جولان الخواطر انما يكون في فايت لا تدارك له او في مستقبل لا بد ان يحصل منه ما هو مقدر فهو كيف ما كان تضييع زمان واله العبد قلبه وبضاعته عمره فاذا اغفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به انسا بالله او عن فكر يستفيد به معرفة بالله ليستفيد بالمعرفة محبة الله فهو مغبون هذا ان كان فكره ووسواسه في المباحات مقصورا عليه ولا يكون كذلك غالبا بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات اذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره او من يتوهم به انه ينازعه ويخالف غرضه بظهور امارة له منه بل يقدر المخالفة من اخلص الناس في حبه حتى في اهله وولده ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عما يتعللون به في مخالفته ولا يزال في شغل دايم فللشيطان جندان جند يطير وجند يسير والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار

وهذا لان الشيطان خلق من النار وخلق الانسان من صلصال كالفخار
والفخار قد اجتمع فيه النار والطين والطين طبعه السكون والنار طبعها
الحركة فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبعها وقد كلف الملعون
المخلوق من النار ان يطمئن عن حركته ساجدا لمن خلق من الطين فابى واستكبر
واستعصى وعبر عن سبب استعصائه بان قال خلقتني من نار وخلقته من
طين فاذا حيث لم يسجد الملعون لابينا ادم عليه السلام فلا ينبغي ان يطمع في سجوده
لاولاده ومهما كف عن القلب وسواسه وعداوته وطيرانه وجولانه فقد اظهر
انقياده واذعانه وانقياده بلا اذعان سجود منه فهو روح السجود وانما وضع الجبهة
على الارض قالبه وعلامته الدالة بالاصطلاح عليه ولو جعل وضع الجبهة على
الارض علامة الاستخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك كما ان الانبطاح بين يدي المعظم
المحترم يرى استخفافا بالعادة فلا ينبغي ان يذهب عنك هدف الجوهر عن الجوهر وقالب
الروح عن الروح وقشر اللب عن اللب فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم
الغيب وتحقق ان الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك عن الوسواس الى يوم الدين
الا ان تصبح وهموم كلها هم واحد فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالا فيك
فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين الداخلين في الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين
ولا تظنن انه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سيال يجري من ابن ادم مجرى الدم وسيلانه
مثل الهواء لا محالة فالقدح ان اردت ان تخلو عن الهواء من غير ان تشغله بالماء
او بغيره فقد طمعت في غير مطمع بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل الهواء لا محالة فكذلك
القلب المشغول بفكر مهم في الدين يخلو عن جولان الشيطان والا فمن غفل عن الله ولو
في لحظة فليس له في تلك اللحظة قرين الا الشيطان ولذلك قال الله تعالى ومن يعش
عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يبغض

الشاب الفارغ وهذا لان الشاب اذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين
به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا بل يعشش فيه الشيطان ويبيض و
يفرخ ثم يزوج افراخه ايضا ويبيض مرة اخرى ويفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا
اسرع من توالد ساير الحيوانات لان طبعه من النار واذا وجدت النار الحلفاء اليابسة
كثر توالدها فلا يزال يتوالد النار من النار ولا ينقطع البتة بل يسري شيئا شيئا على
الاتصال فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار كما لا يبقى النار اذا
لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال اذا لم يكن شهوة فاذا اذا تاملت
علمت ان اعدى عدوك شهوتك وهي صفة نفسك ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج
حين يصلب وقد سئل عن التصوف فقيل ما هو فقال هي نفسك اذ لم تشغلها شغلتك
فاذا حقيقة الصبر وكماله الصبر عن كل حركة مذمومة وحركة الباطن اولى بالصبر
عن ذلك وهذا صبر دايم لا يقطعه الا الموت **بيان دواء الصبر وما
يستعان به عليه اعلم** ان الذي انزل الداء انزل الدواء ووعد الشفاء فالصبر
وان كان شاقا او ممتنعا فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل فالعلم والعمل هما الاخلاط
التي منها تركب الادوية لامراض القلوب كلها ولكن يحتاج كل مرض الى علم
اخر وعمل اخر وكما ان اقسام الصبر مختلفة فاقسام العلل المانعة مختلفة واذا
اختلفت العلل اختلف العلاج اذ معنى العلاج مضادة العلل منها وقمعها
واستيفاء ذلك مما يطول ولكنا نعرف الطريق في بعض الامثلة فنقول اذا افتقر
الى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا وقد غلبت عليه بحيث ليس يملك معها فرجه او يملك
فرجه ولكن يملك عينه او يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه اذ لا تزال
يحدثه بمقتضيات الشهوة ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والاعمال الصالحة
فنقول قد قدمنا ان الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى وكل

متصارعين اردنا ان يغلب احدهما الاخر فلا طريق لنا فيه الا تقوية من اردنا
ان يكون له العليا وتضعيف الاخر فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين
وتضعيف باعث الشهوة فاما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلثة امور احدها
ان ينظر الى مادة قوتها فى الاغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها
ومن حيث كثرتها فلا بد من قطعها بالصوم الدايم مع الاقتصار على طعام قليل
فى نفسه ضعيف فى جنسه فيحترز عن اللحم والاطعمة المهيجة للشهوة والثانى
قطع اسبابه المهيجة لها فى الحال فانها انما يهيج بالنظر الى مظان الشهوة
اذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن
مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم النظر سهم مسموم من سهام ابليس وهذا سهم يسدده الملعون ولا ترس
يمنع منه الا تغميض الاجفان او الهرب من صوب رميه فانه انما يرمى هذا السهم
عن قوس الصور فاذا انفتلت عن صوب الصور لم يصبك سهمه الثالث تسلية
النفس بالمباح من الجنس الذى يشتهيه وذلك بالنكاح فان كل ما يشتهيه الطبع
ففى المباحات ما يغنى فيها عن المحظورات وهذا هو العلاج الانفع فى حق الاكثرين
فان قطع الغذاء يضعف عن ساير الاعمال ثم قد لا يقمع الشهوة فى حق اكثر الرجال
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم
له وجاء فهذه ثلثة اسباب فالعلاج الاول وهو قطع الطعام يضاهى قطع العلف
عن البهيمة الجموح واللحم عن الكلب الضارى ليضعف فيسقط قوته والثانى
يضاهى تغييب اللحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتى لا يتحرك بواطنها
بسبب مشاهدتهما والثالث يضاهى تسليتها بشىء قليل مما يميل اليه طبعها
حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التاديب واما تقوية باعث الدين

فانما يكون بطريقين احدهما اطماعه فى فوايد المجاهدة وثمراتها فى الدين والدنيا
وذلك بان يكثر فكره فى الاخبار التى اوردناها فى فضل الصبر وفى حسن عواقبه فى الدنيا
والاخرة وفى الاثر ان ثواب الصبر على المصيبة اكثر مما فات وانه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة
اذ فاته ما لا يبقى معه الا مدة الحيوة وحصل له ما يبقى له بعد موته ابدا ومن اسلم
خسيسا فى نفيس فلا ينبغى ان يحزن لفوات الخسيس فى الحال وهذا من باب المعارف
وهو من الايمان فتارة يضعف وتارة يقوى وان قوى قوى باعث الدين و
هيجه تهييجا شديدا وان ضعف ضعفه وانما قوة الايمان يعبر عنها باليقين
وهو المحرك لعزيمة الصبر واقل ما اوتى الناس اليقين وعزيمة الصبر والثانى
ان يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك
لذة الظفر فيستجرى عليها ويقوى منته فى مصارعته فان الاعتياد والممارسة
للاعمال الشاقة تؤكد القوى التى يصدر منها تلك الاعمال ولذلك تزيد قوة
الحمالين والفلاحين والمقاتلين وجملة الممارسين للاعمال الشاقة على قوة الخياطين
والعطارين والفقهاء والصالحين وذلك لان قواهم لم تتاكد بالممارسة فالعلاج
الاول يضاهى اطماع المصارع فى الخلعة عند الغلبة ووعده بانواع الكرامة كما وعد
فرعون سحرته عند اغرائه اياهم بموسى حيث قال وانكم لمن المقربين والثانى يضاهى
تعويد الصبى الذى يراد منه المصارعة والمقاتلة مباشرة اسباب ذلك الصبى
حتى يانس به ويستجرى عليه ويقوى فيه منته فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر
ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وان ضعفت ومن عود نفسه مخالفة
الهوى غلبها مهما اراد فهذا منهاج العلاج فى جميع انواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه
وانما اشدها كف الباطن عن حديث النفس وانما يشتد ذلك على من تفرغ له بان
قمع الشهوات الظاهرة واثر العزلة وجلس للمراقبة وللذكر والفكر

فان الوساوس لا تزال تجاذبه من جانب الى جانب وهذا لا علاج له البتة الا
قطع العلايق كلها ظاهرا و باطنا بالفرار عن الاهل والولد و المال
والجاه والرفقاء والاصدقاء والاعتزال الى زاوية بعد احراز قدر يسير من
القوت وبعد القناعة ثم كل ذلك لا يكفي ما لم يصر الهموم هما واحدا وهو
الله تعالى ثم اذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر
والسير في الباطن في ملكوت السموات والارض وعجايب صنع الله تعالى وساير
ابواب معرفة الله تعالى اذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة
الشيطان ووسواسه وان لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه الا الاوراد المتواصلة
المترتبة في كل لحظة من القراءة والاذكار والصلوات ويحتاج مع ذلك الى تكليف
القلب الحضور فان الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الاوراد الظا
هرة ثم اذا فعل ذلك لم يسلم له من الاوقات الا بعضها اذ لا يخلو في جميع
اوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وايذاء من
انسان وطغيان من مخالط اذ لا يستغني عن مخالطة من يعينه في بعض اسباب
المعيشة فهذا احد الانواع الشاغلة واما النوع الثاني وهو ضروري اشد
ضرورة من الاول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس واسباب المعايش فان تهيئة
ذلك ايضا يحوج الى شغل ان تولاه بنفسه وان تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب
ممن يتولاه ولكن بعد قطع العلايق كلها يسلم له اكثر الاوقات ان لم يهجم به ملمة
وواقعة وفي تلك الاوقات يصفو خاطره ويتيسر الفكر وينكشف فيه من اسرار الله
في ملكوت السموات والارض ما لا يقدر على عشر عشيره في زمان طويل لو كان
مشغول القلب بالعلايق والانتهاء الى هذا هو اقصى المقامات التي يمكن
ان تنال بالاكتساب والجهد فاما مقادير ما ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله
في الاحوال والاعمال

١٣

فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق فقد يقل الجهد ويجل الصيد وقد يطول
الجهد ويقل الحظ والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمان فانها
توازي اعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد نعم اختيار العبد في ان يتعرض
لتلك النفحات بان يقطع عن قلبه حوادث الدنيا فان المجذوب الى اسفل السافلين
لا يجذب الى اعلى عليين وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب اليها فقطع العلايق
الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم ان لله تعالى في ايام دهركم نفحات
الا فتعرضوا لها وذلك لان تلك النفحات والجذبات لها اسباب سماوية اذ
قال تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون وهذا من اعلى انواع الرزق
والامور السماوية غايبة عنا فلا ندري متى ييسر الله اسباب الرزق
فما علينا الا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب اجله كالذي
يصلح الارض وينقيها من الحشيش ويبث البذر فيها وكل ذلك لا ينفعه الا بمطر
ولا يدري متى يقدر الله اسباب المطر الا انه يثق بفضل الله تعالى انه لا يخلي
سنة عن مطر فكذلك قلما يخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات
ونفحة من النفحات فينبغي ان يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات
وبذر فيه بذر الارادة والاخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة وكما يقوى انتظار
الامطار في اوقات الربيع وعند ظهور الغيث فيقوى انتظار تلك النفحات في الاوقات
الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة
وايام رمضان فان الهمم والانفاس بحكم تقدير الله لاستدرار رحمته تستدر بها
الامطار في اوقات الاستسقاء وهي لاستدرار امطار المكاشفات ولطايف
المعارف من خزاين الملكوت اشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء
واستجرار الغيوم من اقطار الجبال والبحار بل الاحوال والمكاشفات حاضرة

معك في قلبك وانما انت مشغول عنها بعلايقك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك
وبينها فلا يحتاج الا الى ان تكسر البثوق وترفع الحجاب فتشرق انوار المعارف
من باطن القلب واظهار ماء الارض بحفر القني اسهل واقرب من استنزال
الماء اليها من مكان بعيد منخفض عنها ولكونه حاضرا في القلب ومنسيا بالشغل
عنه سمى الله جميع معارف الايمان تذكرا فقال وليتذكر اولوا الالباب وقال
ولقد يسرنا القران للذكر فهل من مدكر فهذا هو علاج الصبر عن الوسواس والشواغل
وهو اخر درجات الصبر وانما الصبر عن العلايق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر
قال الجنيد المسير من الدنيا الى الاخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق شديد
والمسير من النفس الى الله صعب شديد والصبر مع الله اشد فذكر شدة الصبر
عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق واشد العلايق على النفس علقة الخلق
وحب الجاه فان لذة الرياسة والغلبة والاستعلاء والاستتباع اغلب اللذات
في الدنيا على نفوس العقلاء وكيف لا تكون اعلى اللذات ومطلوبها صفة من صفات
الله تعالى والربوبية مطلوبة ومحبوبة بالطبع للقلب لما فيه من المناسبة
للامور الربوبية وعنه العبارة بقوله تعالى يسئلونك عن الروح قل الروح من امر
ربى وليس القلب مذموما على حبه ذلك وانما هو مذموم على غلطة وقعت بسبب
تغرير الشيطان اللعين المبعد عن عالم الامر اذ حسده على كونه من عالم الامر
فاضله واغواه وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب سعادة الاخرة فليس
يطلب الا بقاء لا فناء فيه وعزا لا ذل فيه وامنا لا خوف فيه وغنى لا فقر
فيه وكمالا لا نقصان فيه وهذه كلها من اوصاف الربوبية وليس مذموما على
طلب ذلك بل حق كل عبد ان يطلب ملكا عظيما لا اخر له وطالب الملك طالب
للعلو والعز والكمال لا محالة ولكن الملك ملكان ملك مشوب بانواع الالام

وملحق بسرعة الانصرام لكنه عاجل وهو في الدنيا وملك مخلد دايم لا يشوبه
كدر ولا الم ولا يقطعه قاطع ولكنه اجل وقد خلق الانسان عجولا راغبا
في العاجلة فجاء الشيطان وتوسل اليه بواسطة العجلة التي في طبعه فاستغواه
بالعاجلة وزين له الحاضرة وتوسل اليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور
في الاخرة ومناه مع ملك الدنيا ملك الاخرة كما قال صلى الله عليه وسلم والاحمق من
اتبع نفسه هواها وتمنى على الله فانخدع المخذول بغروره واشتغل بطلب عز
الدنيا وملكها كل على قدر امكانه ولم يتدلل الموفق بحبل غروره اذ علم مداخل
غروره فاعرض عن العاجلة فعبر عن المخذولين وقيل كلا بل تحبون العاجلة وتذرون
الاخرة وقال تعالى يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا وقال تعالى فاعرض
عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحيوة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ولما استطار مكر
الشيطان في كافة الخلق ارسل الله الملائكة الى الرسل فاوحوا اليهم ما تم على الخلق من
اهلاك العدو واغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق الى الملك الحقيقي عن الملك المجازي
الذي لا اصل له ان سلم ولا دوام له اصلا فنادوا فيهم يا ايها الذين امنوا ما لكم اذا
قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض ارضيتم بالحيوة الدنيا من الاخرة فما
متاع الحيوة الدنيا في الاخرة الا قليل فالتورية والانجيل والزبور والفرقان وصحف موسى
وكل كتاب منزل ما انزل الا لدعوة الخلق الى الملك الدايم المخلد والمراد منهم
ان يكونوا ملوكا في الدنيا ملوكا في الاخرة اما ملك الدنيا فبالزهد فيها والقناعة
باليسير منها واما ملك الاخرة فبالقرب من الله تعالى بدرك بقاء لا فناء فيه وعز
لا ذل فيه وقرة عين اخفيت في هذا العالم لا يعلمها نفس من النفوس والشيطان
يدعوهم الى ملك الدنيا لعلمه بان ملك الاخرة يفوت به اذ الدنيا والاخرة ضرتان
ولعلمه بان الدنيا لا تسلم له ايضا ولو كانت تسلم لكان يحسده ايضا ولكن ملك الدنيا

لا يخلو عن المنازعات والمكدرات وطول الهموم بالتدبيرات وكذلك ساير
اسباب الجاه ثم كما يسلم ويتم الاسباب ينقضي العمر حتى اذا اخذت الارض زخرفها
وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتيها امرنا ليلا او نهارا فجعلناها
حصيدا كان لم تغن بالامس فضرب الله لها مثلا فقال واضرب لهم مثل الحيوة الدنيا
كما انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح و
الزهد في الدنيا لما ان كان ملكا حاضرا حسده الشيطان عليه فصرفه عنه ومعنى
الزهد ان يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين واشارة
الايمان وهذا ملك بالاستحقاق اذ به يصير صاحبه حرا وباستيلاء الشهوة
عليه يصير عبدا لبطنه وفرجه وساير اغراضه فيكون مسخرا مثل البهيمة مملوكا
يستجره زمام الشهوة آخذا بمخنقه الى حيث يريد ويهوى فما اعظم اغترار الانسان
اذ ظن انه ينال الملك بان يصير مملوكا وينال الربوبية بان يصير عبدا ومثل هذا
هل يكون الا معكوسا في الدنيا منكوسا في الاخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض
الزهاد هل لك من حاجة قال كيف اطلب منك حاجة وملكي اعظم من ملكك قال
كيف قال من انت عبده فهو عبد لي فقال كيف ذاك قال انت عبد شهوتك وغضبك
وفرجك وبطنك وقد ملكت انا هولاء كلهم فهولاء عبيد لي فهذا اذا هو الملك
في الدنيا وهو الذي يسوق الى الملك في الاخرة فالمنخدعون بغرور الشيطان خسروا
الدنيا والاخرة جميعا والذين وفقوا للاستداد على الصراط المستقيم فازوا
بالدنيا والاخرة جميعا فاذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير و
العبودية ومدخل الغلط فيه وكيف تعمية الشيطان وتلبيسه فيسهل
عليك النزوع عن الملك والجاه والاعراض عنه والصبر عند فواته اذ تصير بتركه
ملكا في الحال وترجو به ملكا في الاخرة ومن كوشف بهذه الامور بعد ان الف
الجاه

وانس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة اسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم
والكشف بل لا بد وان يضيف اليه العمل وعمله في ثلثة امور احدها ان يهرب عن موضع
الجاه كيلا يشاهد اسبابه فيعسر عليه الصبر مع الاسباب كما يهرب من غلبة
الشهوة عن مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل ذلك فقد كفر نعمة الله في سعة
الارض اذ قال تعالى الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها الثاني ان يكلف
نفسه في اعماله افعالا تخالف ما اعتاده فيبدل التكلف بالتبذل وزي الحشمة
بزي التواضع وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن وملبس ومطعم وقيام وقعود
كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه فينبغي ان يبدلها بنقايضها حتى يرسخ باعتياد
ذلك ضد ما ترسخ فيه من قبل باعتياد ضده فلا معنى للمعالجة الا المضادة الثالث
ان يرعى في ذلك التلطف والتدريج فلا ينتقل دفعة واحدة الى الطرف الاقصى
من التبذل فان الطبع نفور ولا يمكن نقله عن اخلاقه الا بالتدريج فيترك البعض
ويسلي نفسه بالبعض ثم اذا اقنعت نفسه بذلك البعض ابتدا بترك البعض من ذلك
البعض الى ان يقنع بالبقية وكذلك يفعل شيئا شيئا الى ان يقمع تلك الصفات التي
رسخت فيه والى هذا التدريج الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ان هذا الدين متين فاوغل
فيه برفق ولا تبغض الى نفسك عبادة الله فان المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى
واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم لا تشادوا هذا الدين فان من يشاده يغلبه
فاذا ما ذكرناه في علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه اضفه الى ما
ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات واتخذه
دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الاقسام التي فصلناه من قبل فان
تفصيل الاحاد يطول ومن راعى التدريج يرقى به الصبر الى حالة يشق عليه الصبر
عما كان يشق عليه الصبر معه فينعكس اموره فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا

وما كان عنده مشربا هنيئا لا يصبر عنه وهذا لا يعرف الا بالتجربة والذوق
وله نظير في العادات فان الصبي يحمل على التعلم في الابتداء قهرا ويشق عليه
الصبر عن اللعب والصبر مع العلم حتى اذا انفتحت بصيرته وانس بالعلم انقلب
الامر فصار يشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب والى هذا يشير ما
حكي عن بعض العارفين انه سال الشبلي عن الصبر ايهما اشد فقال الصبر
في الله فقال السايل لا فقال الصبر لله فقال لا فقال الصبر مع الله فقال لا قال
فايش قال الصبر عن الله فصرخ الشبلي صرخة كادت نفسه تتلف منها وقد
قيل في معنى قوله تعالى اصبروا وصابروا ورابطوا اصبروا في الله وصابروا
بالله ورابطوا مع الله وقيل الصبر لله عناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء
والصبر عن الله جفاء وقيل والصبر عنك فمذموم عواقبه والصبر في ساير الاشيا محمود
وقيل ايضا الصبر يحمل في المواطن كلها الا عليك فانه لا يحمل هذا اخر ما
اردنا شرحه من علوم الصبر واسراره

الشطر الثاني من الكتاب في الشكر

وله ثلثة اركان الركن الاول في فضيلة الشكر
وحقيقته واقسامه واحكامه الركن الثاني في حقيقة النعمة واقسامها
الخاصة والعامة الركن الثالث في بيان الافضل من الصبر والشكر الركن
الاول في نفس الشكر

بيان فضيلة الشكر

اعلم ان الله تعالى قرن الشكر بالذكر مع انه قال ولذكر الله اكبر فقال تعالى فاذكروني
اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون وقال تعالى ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم
وامنتم وقال تعالى وسنجزي الشاكرين وقال تعالى حكاية عن ابليس لاقعدن
لهم صراطك المستقيم قيل هو طريق الشكر ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين
في الخلق فقال ولا تجد اكثرهم شاكرين وقال تعالى وقليل من عبادي الشكور

وقد قطع الله بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال لئن شكرتم لازيدنكم
واستثنى في الاغناء والاجابة والرزق والمغفرة والتوبة وقال تعالى فيكشف ما تدعون اليه
ان شاء وقال ويرزق من يشاء وقال ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقال
ويتوب الله على من يشاء وهو خلق من اخلاق الربوبية اذ قال تعالى
والله شكور حليم وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام اهل الجنة فقال الحمد لله
الذي صدقنا وعده وقال تعالى واخر دعويهم ان الحمد لله رب العالمين **واما**
الاخبار فقد قال عليه السلام الطاعم الشاكر بمنزلة الصايم الصابر وروي عن عطا انه
قال دخلت على عايشة فقلت اخبرينا باعجب ما رايت من رسول الله فبكت وقالت واي شانه
لم يكن عجبا انه اتاني في ليلة فدخل معي في فراشي او لحافي حتى مس جلدي جلده ثم قال يا ابنة ابي
بكر ذريني اتعبد لربي قالت قلت اني احب قربك فاذنت له فقام الى قربة ماء فتوضا فلم يكثر
صب الماء ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع راسه
فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فاذنه بالصلوة فقلت ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم
من ذنبك وما تاخر قال افلا اكون عبدا شكورا ولم لا افعل وقد انزل الله علي
ان في خلق السموات والارض الاية وهذا يدل على ان البكاء ينبغي ان لا ينقطع ابدا والى هذا
السر يشير ما روي انه مر بعض الانبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب فانطقه الله
فقال منذ سمعت قوله تعالى وقودها الناس والحجارة فانا ابكي من خوفه فساله
ان يجيره من النار فاجاره ثم راه بعد مدة على مثل ذلك فقال لم تبكي الان فقال ذاك
بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة او اشد قسوة ولا تزول
قسوته الا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعا وروي انه عليه السلام قال ينادي
يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن الحامدون
فقال الذين يشكرون الله على كل حال وفي لفظ اخر الذين يشكرون الله على السراء والضراء

وقال صلى الله عليه وسلم الحمد رداء الرحمن واوحى الله الى ايوب اني رضيت بالشكر مكافاة من
اوليائي في كلام طويل واوحى الله ايضا في صفة الصابرين دارهم دار السلام اذا دخلوها
الهمتهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر استزيدهم وبالنظر الى ازيدهم وقال
في الكنوز ما نزل فقال عليه السلام ليتخذ احدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا فامر باقتناء
القلب الشاكر بدلا عن المال وقال ابن مسعود ان الشكر نصف الايمان والله اعلم

بيان حد الشكر وحقيقته

اعلم ان الشكر من جملة مقامات السالكين وهو ايضا ينتظم من علم وحال وعمل
فالعلم هو الاصل فهو يورث الحال والحال يورث العمل اما العلم فهو معرفة
النعمة من المنعم والحال هو الفرح الحاصل بانعامه والعمل هو القيام بما هو مقصود
المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولابد من بيان
جميع ذلك ليحصل بمجموعه الاحاطة بحقيقة الشكر فان كل ما قيل في حد الشكر
قاصر عن الاحاطة بكمال جانبه

فالاصل الاول

العلم وهو علم بثلثة
امور بعين النعمة وكونها نعمة في حقه وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم
الانعام ويصدر الانعام منه عليه فانه لابد من نعمة ومنعم ومنعم عليه تصل اليه النعمة
من المنعم بقصد وارادة فهذه الامور لابد من معرفتها هذا في حق غير الله تعالى فاما
في حق الله فلا يتم الا بان تعرف ان النعم كلها من الله وهو المنعم والوسائط مسخرون من جهته وهذه
المعرفة وراء التقديس والتوحيد اذ دخل التقديس والتوحيد فيها بل الرتبة الاولى في
معارف الايمان التقديس ثم اذا عرف ذاتا مقدسة فيعرف انه لا مقدس الا واحد وما عداه غير مقدس وهو
التوحيد ثم يعلم ان كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط فالكل نعمة منه
فيقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة اذ ينطوي فيه مع التقديس والتوحيد كمال
القدرة والانفراد بالفعل وعن هذا عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال من قال سبحان الله فله عشر

حسنات

حسنات ومن قال لا اله الا الله فله عشرون ومن قال الحمد لله فله ثلثون وقال افضل الذكر
لا اله الا الله وافضل الدعاء الحمد لله وقال ليس شيء من الاذكار يضاعف كما يضاعف الحمد لله
ولا تظنن ان هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب
فسبحان الله كلمة تدل على التقديس ولا اله الا الله تدل على التوحيد والحمد لله تدل على معرفة
النعمة من الواحد الحق فالحسنات بازاء هذه المعرفة ينفي الشرك في الافعال فمن انعم عليه
ملك من الملوك بشيء فان راى لوزيره او لوكيله دخلا في تيسير ذلك وايصاله اليه
فهو اشركه به في النعمة فلا يرى النعمة من الملك في كل وجه بل منه من وجه
ومن غيره من وجه فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا في حق الملك نعم لا ينقص من توحيده
في حق الملك وكمال شكره اذ يرى النعمة الواصلة اليه بتوقيعه الذي كتبه بقلمه وبالكاغد
الذي كتب عليه فانه لا يفرح بالكاغد والقلم ولا يشكرهما لانه لا يثبت لهما دخلا من
حيث هما موجودان بانفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك وقد يعلم ان الوكيل
الموصل والخازن ايضا مضطران من جهة الملك في الايصال وانه لو رد الامر اليه ولم
يكن من جهة الملك ارهاق وامر جزم يخاف عاقبته لما سلم فاذا عرف ذلك
كان نظره الى الخازن الموصل كنظره الى القلم والكاغد فلا يورث ذلك شركا
في توحيده من اضافة النعمة الى الملك فكذلك من عرف الله وعرف افعاله علم ان
الشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره كالقلم مثلا في يد الكاتب وان الحيوانات التي
لها اختيارات مسخرات في نفس اختياراتها فان الله هو المسلط للدواعي عليها لتفعل شاءت
او ابت كالخازن المضطر الذي لا يجد سبيلا الى مخالفة الملك ولو خلي ونفسه
لما اعطاك ذرة مما في يده فكل من اوصل اليك نعمة الله على يده فهو مضطر اذ سلط عليه الارادة
وهيج عليه الدواعي والقي في قلبه ان خيره في الدنيا والآخرة في ان يعطيك ما اعطاك وان غرضه
المقصود عنده في الحال والمآل لا يحصل الا به وبعد خلق الله له هذا الاعتقاد فلا يجد

سبيلا الى تركه فهو اذا انما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه في العطاء
لما اعطاك ولو لم يعلم ان منفعته في منفعتك لما نفعك فهو اذا انما يطلب نفع نفسه بنفعك
فليس هو منعما عليك بل اتخذك وسيلة الى نعمة اخرى هو يرجوها وانما الذي
انعم عليك هو الذي سخره لك والقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطرا
الى الايصال اليك فان عرفت الامور كذلك فقد عرفت الله وعرفت فعله وكنت موحدا
وقدرت على شكره بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرا ولذلك قال موسى عليه
السلام في مناجاته الهي خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك فقال علم ان ذلك
مني فكانت معرفته شكرا فاذا لا تشكر الا بان تعرف ان الكل منه فان خالجك ريب
في هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم وحده بل بغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك
في الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك فهذا بيان هذا الاصل

الاصل الثاني

الحال المستمدة من اصل المعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع وهو ايضا
في نفسه شكر على تجرده كما ان المعرفة شكر ولكن انما يكون شكرا اذا كان جامعا
شروطه وشرطه ان يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالانعام ولعل هذا مما يتعذر عليك
فهمه فنضرب لك مثلا فنقول الملك الذي يريد الخروج الى سفر فانعم بفرس
على انسان يتصور ان يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة اوجه احدها ان يفرح بالفرس من حيث
انه فرس وانه مال ينتفع به ومركوب يوافق غرضه وانه جواد نفيس وهذا فرح من لا حظ له في
الملك بل غرضه الفرس ولو وجده في صحراء فاخذه لكان فرحه مثل هذا الفرح

الوجه الثاني

ان يفرح به لا من حيث انه فرس بل من حيث انه يستدل به على عناية الملك به وشفقته عليه
واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس في صحراء او اعطاه غير الملك لكان لا يفرح به اصلا
لاستغنائه عن الفرس اصلا او لاستحقاره له بالاضافة الى مطلوبه من نيل المحل في قلب الملك

الوجه الثالث

ان يفرح به ليركبه فيخرج في خدمة الملك ويتحمل

شقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه ويرتقي الى درجة الوزارة من حيث انه ليس يقنع بان يكون في قلب الملك
ان يعطيه فرسا ويعتني به هذا القدر بل هو طالب لان لا ينعم الملك بشيء من ماله على احد الا بواسطته ثم انه ليس يريد من الوزارة
الوزارة ايضا بل مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه
ثلث درجات فالاولى لا يدخل فيه معنى الشكر اصلا لان نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطي وهذا حال من فرح
بنعمة من حيث انها لذيذة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر والثانية داخل في معنى الشكر من حيث انه فرح بالمنعم ولكن لا من حيث
ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثه على الانعام في المستقبل وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا
من عقابه ورجاء لثوابه وانما الشكر التام في الفرح الثالث وهو ان يكون فرح العبد بنعم الله من حيث انه يقدر بها على التوصل الى القرب
منه والنزول في جواره والنظر الى وجهه على الدوام فهذا هو الرتبة العليا وامارته ان لا يفرح من الدنيا الا بما هو مزرعة الآخرة ويعينه
عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله وتصده عن سبيله لانه ليس يريد النعمة لانها لذيذة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لانه جواد وصالح بل من حيث انه يحمله في صحبة
الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ولذلك قال الشبلي الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة وقال الخواص شكر العامة
على المطعم والملبس وشكر الخاصة على واردات القلوب وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من
الالوان والاصوات وخلى عن لذة القلب فان القلب لا يلتذ في حالة الصحة الا بذكر الله ومعرفته ولقائه وانما يلتذ بغيره اذا مرض بسوء العادات
كما يلتذ بعض الناس باكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى الاشياء الحلوة ويستحلي الاشياء المرة كما قيل ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مرا به الماء الزلالا فاذن هذا شرط الفرح بنعمة الله فان لم يكن ابل فمزي وان لم يكن هذا فالدرجة الثانية اما الاولى
فخارجة عن كل حساب فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس وبين من يريد الفرس للملك وكم من فرق بين من يريد الله لنعمة وبين من يريد نعم الله
ليصل بها اليه

الاصل الثالث

العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم وهذا العمل يتعلق بالقلب
وباللسان وبالجوارح اما بالقلب فقصد الخير واضماره لكافة الخلق واما باللسان فاظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه واما
بالجوارح فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته حتى ان شكر العينين ان يستر كل عيب يراه لمسلم وشكر
الاذنين ان يستر كل عيب يسمعه فيدخل هذا في جملة شكر نعمة هذه الاعضاء والشكر باللسان باظهار الرضى عن الله وهو مأمور به
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل كيف اصبحت قال بخير فاعاد السؤال فاعاد حتى قال في الثالثة بخير احمد الله واشكره فقال هذا الذي
اردت منك وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا وما كان قصدهم

وما كان نقصهم الرياء باظهار الشوق وكل عبد سئل عن حاله فهو بين ان يشكر او يشكو او يسكت

فالشكر طاعة والشكوى معصية من اهل الدين وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل

شي الى عبد مملوك لا يقدر على شي فالاحرى بالعبد ان لم يحسن الصبر على البلاء وافضى به الضعف الى الشكوى

ان يكون شكواه الى الله تعالى فهو المبلي وهو القادر على ازالة البلاء وذل العبد لا يملكون لكم رزقا فابتغوا

عند الله الرزق وقال ان الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم فالشكر باللسان من جملة

الشكر وقد روي ان وفدا قدم على عمر بن عبد العزيز فقام شاب ليتكلم فقال عمر الكبر الكبر

فقال يا امير المومنين لو كان الامر بالسن لكان في المسلمين من هو اسن منك فقال تكلم فقال لسنا وفد

الرغبة ولا وفد الرهبة اما الرغبة فقد اوصلها الينا فضلك واما الرهبة فقد امننا منها عدلك

وانما نحن وفد الشكر جيناك نشكرك باللسان وننصرف فهذه هي الاصول لمعاني الشكر المحيطة بمجموع

حقيقته فاما قول من قال الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر الى فعل اللسان مع بعض احوال القلب

وقول من قال ان الشكر هو الثناء على المحسن بذكر احسانه نظر الى مجرد عمل اللسان وقول القايل ان الشكر

هو اعتكاف على بساط الشهود بادامة حفظ الحرمة جامع لاكثر معاني الشكر لا يشذ منه الا عمل اللسان وقول حمدون

القصار شكر الله لنعمة ان ترى نفسك فيها طفيليا اشارة الى معنى المعرفة من معاني الشكر فقط وقول الجنيد الشكر

ان لا ترى نفسك اهلا للنعمة اشارة الى حالة من احوال القلب على الخصوص وهولا اقوالهم تعرب عن احوالهم

ولذلك يختلف اجوبتهم ولا تتفق ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لانهم لا يتكلمون الا عن حالتهم الراهنة

الغالبة عليهم اشتغالا بما يهمهم عن حالاتهم ويتكلمون بما يرونه لايقا بحال السايل عليهم وان لو عرض عليهم اقتصارا

على ذكر القدر الذي يحتاج اليه واعراضا عما لا يحتاج اليه فلا ينبغي ان يظن ان ما ذكرناه طعن عليهم

وانه لو عرض عليهم مجامع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها بل لا يظن ذلك بعاقل اصلا الآن

نعرض منازعة من حيث اللفظ في ان اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني ام يتناول

بعضها مقصودا وبقية المعاني تكون من توابعها ولوازمها ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات

اللغات فليس في ذلك من سلم طريق الاخرة في شي

بيان طريق كشف

الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى

لعلك خطر ببالك ان الشكر انما يعقل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر فانا نشكر الملوك اما بالثناء

ليزيد محلهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به جاههم او بالخدمة التي هي اعانة لهم على بعض اغراضهم

او بالمثول بين ايديهم في صورة الخدم وذلك تكثير لسوادهم وسبب لزيادة جاههم فلا نكون شاكرا لهم الا بشي

من ذلك وهذا محال في حق الله من وجهين احدهما ان الله منزه عن الحظوظ والاغراض

مقدس عن الحاجة الى الخدمة والاعانة وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والاطراء وعن تكثير سواد الخدم

بالمثول بين يديه راكعا وساجدا فشكرنا اياه ولا حظ له فيه كافعالنا كلها

والوجه الثاني ان جميع ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة اخرى من نعم الله تعالى اذ جوارحنا وقدرتنا

وارادتنا وداعيتنا وساير الامور التي هي اسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله

ونعمته وكيف نشكر نعمته بنعمته ولو اعطانا الملك مركوبا فاخذنا مركوبا اخر له وركبناه او اعطانا الا نعمة

اخرى فيودي الى ان يكون الشكر محالا في حق الله تعالى من هذين الوجهين ولسنا نشك في الامرين

جميعا والشرع قد ورد به فكيف السبيل الى الجمع **فاعلم** ان هذا الخاطر قد خطر لداود عليه

السلام وكذلك لموسى فقال يا رب كيف اشكرك وانا لا استطيع ان اشكرك الا بنعمة ثانية من نعمك وفي لفظ

اخر وشكري لك نعمة اخرى منك يوجب علي الشكر لك فاوحى الله تعالى اليه اذا عرفت هذا فقد شكرتني وفي خبر

اخر اذا عرفت ان النعم مني رضيت منك بذلك شكرا **فان قلت** فقد فهمت السوال وفهمي قاصر

قاعن ادراك معنى الجواب فاني اعلم استحالة الشكر لله تعالى فاما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا افهمه

فان هذا العلم ايضا نعمة منه فكيف صار شكرا وكان الحاصل يرجع الى ان من لم يشكر فقد شكر

وان قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الاولى والفهم قاصر عن درك السر فيه فان امكن تعريف

ذلك بمثال فهو مهم في نفسه **فاعلم** ان هذا قرع باب من المعارف وهي اعلى من علوم المعاملة

ولكنا نشير فيها الى ملامح ونقول ههنا نظران نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يعرفك قطعا انه الشاكر وانه

المشكور وانه المحب وانه المحبوب وهذا نظر من عرف انه ليس في الوجود غيره وان كل شي هالك الا وجهه

وان ذلك صدق في كل حال اذلا وابدا لان الغير هو الذي يتصور ان يكون له بنفسه قوام

ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال ان يوجد اذ الموجود بغيره فان اعتبر ذاته ولم يلتفت الي غيره

لم يكن له وجود البتة وانما الموجود هو القايم بنفسه والقايم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقي موجودا

فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم الا الواحد ولا يتصور ان يكون غير ذلك

فاذن ليس في الوجود غير الحي القيوم وهو الواحد الصمد فان نظرت من هذا المقام علمت ان الكل منه

مصدره واليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب ومن هاهنا نظر حبيب بن ابي حبيب

حيث قرا قوله تعالى انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب فقال واعجباه اعطى واثنى اشار الي انه

اذا اثنى على عطايه فعلى نفسه اثني فهو المثني والمثنى عليه ومن هاهنا نظر الشيخ ابو سعيد

الميهني حيث قرا يحبهم ويحبونه فقال لعمري يحبهم فبحق يحبهم لانه انما يحب نفسه اشار به

الي انه المحب وانه المحبوب وهذه رتبة عالية لا تفهمها الامثال على حد عقلك ولا يخفى عليك ان المصنف

اذا احب تصنيفه فقد احب نفسه والصانع اذا احب صنعته فقد احب نفسه والوالد اذا احب ولده

من حيث انه ولده فقد احب نفسه وكل ما في الوجود فهو تصنيف الله وصنعته فان احبه فما احب

الا نفسه واذا لم يحب الا نفسه فبحق احب ما احب وهذا كله نظر بعين التوحيد ويعبر الصوفية

عن هذه الحالة بفناء النفس اي فني عن نفسه وعن غير الله فلم ير الا الله فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم

ويقول كيف فني وطول ظله اربعة اذرع ولعله ياكل في كل يوم ارطالا من الخبز فيضحك عليهم

الجهال لجهلهم بمعاني كلامهم وضروة العارفين ان يكونوا ضحكة للجاهلين واليه الاشارة بقوله تعالى ان الذين

اجرموا كانوا من الذين امنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الي اهلهم انقلبوا فكهين

واذا راوهم قالوا ان هولاء لضالون وما ارسلوا عليهم حافظين ثم بين ان ضحك العارفين عليهم اعظم اذ قال

فاليوم الذين امنوا من الكفار يضحكون على الارائك ينظرون وكذلك امة نوح كانوا يضحكون

عليه عند اشتغاله بعمل السفينة فقال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فهذا احد النظرين

النظر الثاني نظر من لم يبلغ الي مقام الفناء عن نفسه وهولاء قسمان قسم لم يثبتوا الا وجود انفسهم

وانكروا ان يكون لهم رب يعبد وهولاء هم العميان المنكوسون وعماهم في كلتي العينين لانهم نفوا ما هو

الثابت تحقيقا وهو القيوم الذي هو قايم بنفسه وقايم على كل نفس بما كسبت وكل قايم فقايم به

ولم يقتصروا على هذا حتى اثبتوا انفسهم ولو عرفوا لعلموا انهم بما هم لا ثبات لهم ولا وجود

لهم وانما وجودهم من حيث اوجدوا لا من حيث وجدوا وفرق بين الموجود وبين

الموجد وليس في الوجود الا موجود واحد وموجد فالموجود حق والموجد باطل من حيث

هو هو والموجود قايم وقيوم والموجد هالك وفان واذا كان كل من عليها فان فلا يبقى

الا وجه ربك **الفريق الثاني** ليس بهم عمى ولكن بهم عور يبصرون باحدى

العينين وجود الموجود الحق فلا ينكرونه والعين الاخرى ان تم عماها لم يبصر بها فناء غير

الموجود الحق فاثبت موجودا اخر مع الله وهذا مشرك تحقيقا كما كان الذي قبله جاحدا تحقيقا

فان جاوز حد العمى الي العمش ادرك تفاوتا بين الموجودين فاثبت عبدا وربا فبهذا القدر

من اثبات التفاوت والنقص في الموجود الاخر دخل في حد التوحيد ثم ان كحل بصره بما يزيد

في انواره فيقل عمشه وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له من نقصان ما اثبته سوى الله فان بقي

في سلوكه كذلك فلا يزال يفضي به النقصان الي المحو فيمحى عن رويته ما سوى الله فلا يرى الا الله

فيكون قد بلغ كمال التوحيد وحيث ادرك نقصانا الموحدين وكتب الله المنزلة على السنة رسله

هي الكحل الذي يحصل به انوار الابصار والانبياء هم الكحالون وقد جاوا داعين الي التوحيد المحض

وترجمته قول لا اله الا الله ومعناه ان لا يرى الا الواحد الحق والواصلون الي كمال التوحيد

هم الاقلون والجاحدون والمشركون ايضا قليلون وهم على الطرف الاقصى المقابل لطرف التوحيد

اذ عبدة الاوثان قالوا انما نعبدهم ليقربونا الي الله زلفى وكانوا داخلين في اوايل ابواب التوحيد دخولا

ضعيفا والمتوسطون هم الاكثرون ومنهم من تنفتح بصيرته في بعض الاحوال فيلوح له حقايق التوحيد

ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت ومنهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لا يدوم والدوام

فيه عزيز كما قيل لكل الي شاو العلى حركات ولكن عزيز في الرجال ثبات ولما امر رسول الله

صلى الله عليه وسلم بطلب القرب بقوله واسجد واقترب قال في سجوده اعوذ بعفوك من عقابك واعوذ برضاك من
سخطك واعوذ بك منك لا احصي ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك فقوله اعوذ بعفوك من عقابك
كلام عن مشاهدة فعل الله فقط فكانه لم ير الا الله وافعاله فاستعاذ بفعله من فعله ثم اقترب ففني
عن مشاهدة الافعال وترقى الى مصادر الافعال وهي الصفات فقال اعوذ برضاك من سخطك وهما
صفتان ثم راى ذلك نقصانا في التوحيد فاقترب ورقي من مقام مشاهدة الصفات الى مشاهدة الذات
فقال اعوذ بك منك وهذا فرار منه اليه من غير رؤية فعل وصفة ولكن راى نفسه فارا منه اليه ومستعيذا
ومثنيا ففنى عن مشاهدة نفسه اذ راى ذلك نقصانا واقترب فقال انت كما اثنيت على نفسك لا احصي ثناء
عليك فقوله لا احصي خبر عن فناء نفسه وخروجه عن مشاهدتها وقوله انت كما اثنيت على نفسك بيان
انه المثني وهو المثنى عليه وان الكل منه بدا واليه يعود وان كل شيء هالك الا وجهه فكان اول مقامه
نهاية مقام الموحدين وهو ان لا يرى شيئا الا الله وافعاله فيستعيذ بفعل من فعل فانظر الى ماذا انتهت نهاية
اذ انتهى الى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى ذات الحق ولقد كان صلى الله عليه وسلم
لا يرقى من رتبة الى اخرى الا ويرى الاولى بعدا بالاضافة الى الثانية فكان يستغفر الله من الاولى ويرى ذلك نقصانا
في سلوكه وتقصيرا في مقامه واليه الاشارة بقوله عليه السلام انه ليغان على قلبي في اليوم والليلة حتى استغفر الله
سبعين مرة فكان ذلك لترقيه الى سبعين مقاما بعضها بعد البعض واولها وان كان مجاوزا لاقصى غايات
الخلق ولكن كان نقصانا بالاضافة الى اواخرها فكان استغفاره لذلك ولما قالت عايشة رضي الله
عنها قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تاخر فما هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد
فقال افلا اكون عبدا شكورا معناه افلا اكون طالبا للمزيد في المقامات فان الشكر سبب الزيادة حيث قال
لئن شكرتم لازيدنكم واذا تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان ولنرجع الى ما يليق بعلوم المعاملة فنقول
الانبياء بعثوا لدعوة الى كمال التوحيد الذي وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول اليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة
وانما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون
النظر عن مشاهدة اخرى ومقام اخر فيظهر في ذلك المقام بالاضافة الى تلك المشاهدة الشكر والشاكر

والمشكور ولا يعرف ذلك الا بمثال فاقول يمكنك ان تفهم ان ملكا من الملوك ارسل الى عبد قد بعد منه
مركوبا وملبوسا ونقدا لاجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له
حالتان احديهما ان يكون قصده من وصول العبد الى حضرته ان يقوم ببعض مهماته ويكون له اعتناء في
والثانية لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به اليه بل حضوره لا يزيد في ملكه لانه لا يقوى على القيام
بخدمة تغني عنه غناء وغيبته لا تنقص من ملكه فيكون قصده من الانعام عليه بالمركوب والزاد ان يحظى
العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به وبانتفاعه فنزل
العباد من الله في المنزلة الثانية لا في المنزلة الاولى فانها محال على الله تعالى والثانية غير محال ثم اعلم ان العبد
لا يكون شاكرا في الحالة الاولى بمجرد الركوب والوصول الى حضرته ما لم يقم بخدمته التي ارادها الملك منه
واما في الحالة الثانية فلا يحتاج الى الخدمة اصلا ومع ذلك يتصور ان يكون شاكرا وكافرا ويكون
ويكون شكره بان يستعمل ما انفذه اليه مولاه فيما احبه لاجله لا لاجل نفسه وكفره ان لا يستعمل ذلك
فيه بان يعطله او يستعمله فيما يزيد في بعده منه فمهما لبس العبد الثوب وركب المركوب ولم ينفق الزاد
الا في الطريق فقد شكر مولاه اذا استعمل النعمة في محبته اي فيما احبه لعبده لا لنفسه وان ركبه واستدبر
حضرته واخذ يبعد منه فقد كفر نعمته اي استعمله فيما كرهه ولا لعبد لا لنفسه وان جلس ولم يركب الا في طلب
القرب ولا في طلب البعد فقد كفر ايضا نعمته اذ اهملها وعطلها وان كان هذا دون ما لو بعد منه فكذلك
خلق الله تعالى الخلق فهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون الى استعمال الشهوات لتكمل بها ابدانهم فيبعدون بها عن حضرته
وانما سعادتهم في القرب منها فاعد لهم من النعم الجمة ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب وعن بعدهم وقربهم
عبر تعالى اذ قال لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين امنوا وعملوا الصالحات
فاذن نعم الله الات يترقى العبد بها عن اسفل السافلين خلقها الله تعالى لاجل العبد حتى ينال بها سعادة
القرب والله غني عنه قرب او بعد والعبد فيه بين ان يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقته محبة
مولاه وبين ان يستعملها في معصيته فقد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له فان الله تعالى لا يرضى لعباده
الكفر والمعصية وان عطلها فلم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو ايضا كفران للنعمة بالتضييع فكل ما خلق الله في الدنيا
يستعملها

انما خلق آلة للعبد ليتوصل به الى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله فكان مطيع فهو بقدر طاعته شاكر

نعمة الله في الاسباب التي استعملها في الطاعة وكل كان ترك الاستعمال او عاص استعمل فكذلك ترك العبد

فهو كافر في غير محبة الله فالمعصية والطاعة يشملها المشية ولكن لا يشملها الكراهة بل رب مراد

محبوب ورب مراد مكروه وورا بيان هذه الدقيقة سر القدر الذي منع من افشائه وقد انحل بهذا

الاشكال الاول وهو انه اذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر وبهذا ايضا ينحل الثاني فانا لم

نعن بالشكر الا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله فاذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد

حصل المراد وفعلك عطاء من الله ومن حيث انت محله فقد اثني عليك وثناؤه نعمة اخرى منه اليك

فهو الذي اعطى وهو الذي اثنى وصار احد فعليه سببا لانصراف فعله الثاني الى جهة محبته اليك

فله الشكر على الحال وانت موصوف بانك شاكر بمعنى انك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى انك موجد له

كما انك موصوف بانك عارف وعالم لا بمعنى انك خالق العلم وموجده ولكن بمعنى انك محل له وقد وجد

بالقدرة الازلية فيك فوصفك بانك شاكر اثبات شيئية فانت شيء اذ جعلك خالق الاشياء شيئا وانما

انت لا شيء اذا كنت انت ظانا لنفسك شيئية من ذاتك فاما باعتبار النظر الى الذي جعل الاشياء اشياء

فانت شيء اذ جعلك شيئا فان قطع النظر عن جعله شيئا كنت لا شيء تحقيقا والى هذا اشار عليه السلام

حيث قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له لما قيل له ففيم العمل اذ كانت الاشياء قد فرغ منها من قبل

فبين ان الخلق مجاري قدرة الله ومحل افعاله وان كانوا هم ايضا من افعاله ولكن بعض افعاله محل للبعض

محل للبعض وقوله اعملوا وان كان جاريا على لسان الرسول فهو فعل من افعاله وهو سبب لعلم الخلق بان

العمل نافع وعلمهم فعل من افعال الله والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة الى الحركة والطاعة وانبعاث

الداعية ايضا من جملة افعال الله وهو سبب لحركة الاعضاء وهي ايضا من افعال الله ولكن بعض افعاله

سبب للبعض اي الاول شرط للثاني كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض اذ لا يخلق العرض قبله وخلق

الحيوة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الارادة والكل من افعال الله وبعضها سبب للبعض اي هي

شرط ومعنى كونه شرطا انه لا يستعد بقبول فعل الحيوة الا جوهر ولا يستعد لقبول العلم الا ذو حيوة ولا لقبول

الارادة الا ذو علم فيكون بعض افعاله سببا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى ان بعض افعاله وجد لغيره بل

ممهد شرط للحصول لغيره وهذا اذا حقق ارتقى الى درجة التوحيد الذي ذكرناه **فان قلت**

فلم قال الله تعالى اعملوا والا فانتم معاقبون ومذمومون على العصيان وما الينا شيء فكيف نذم وانما الكل

الى الله **فاعلم** ان هذا القول من الله سبب لحصول اعتقاد فينا والاعتقاد سبب

لهيجان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الغرور وذلك سبب للوصول

الى جوار الله والله تعالى مسبب الاسباب وهو مرتبها فمن سبق له في الازل السعادة يسر له هذه الاسباب

حتى تقوده بسلسلتها الى الجنة ويعبر عن مثله بان كلا ميسر لما خلق له ومن لم يسبق له من الله الحسنى

بعد عن سماع كلام الله وكلام رسوله وكلام العلماء فاذا لم يسمع لم يعلم واذا لم يعلم لم يخف واذا لم يخف لم يترك

الركون الى الدنيا واذا لم يترك الركون الى الدنيا بقي في حزب الشيطان وان جهنم لموعدهم اجمعين فاذا عرفت

هذا تعجبت من قوم يقادون الى الجنة بالسلاسل فما من احد الا وهو مقود الى الجنة بسلاسل الاسباب وهو

تسليط العلم والخوف عليه وما من مخذول الا وهو مقود الى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والامن

والغرور عليه فالمتقون يساقون الى الجنة قهرا والمجرمون يقادون الى النار قهرا ولا قاهر الا الواحد القهار

ولا قادر الا الملك الجبار فاذا انكشف الغطاء عن اعين الغافلين فشاهدوا الامر كذلك سمعوا عند ذلك

نداء المنادي لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم لا ذلك اليوم

على الخصوص ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء الا ذلك اليوم فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف

الاحوال بحيث لا ينفعهم الكشف فنعوذ بالله من الجهل والعمى فانه اصل اسباب الهلاك

بيان تمييز ما يحبه الله عما يكرهه

اعلم ان فعل الشكر وترك الكفران

لا يتم الا بمعرفة ما يحبه الله اذ معنى الشكر استعمال نعمه في محابه ومعنى الكفر نقيض ذلك اما

بترك الاستعمال او باستعماله في مكارهه ولتمييز ما يحبه الله عما يكرهه مدركان احدهما السمع

الآيات والاخبار والثاني بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار وهذا الاخير عسير وهو لاجل

ذلك عزيز فلذلك ارسل الله الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ومعرفة ذلك تنبني على معرفة جميع

احكام الشرع في افعال العباد فمن لم يطلع على حكم الشرع في جميع افعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر
اصلا واما الثاني وهو النظر بعين الاعتبار فهو ادراك حكمة الله في كل موجود خلقه اذ ما خلق شيئا
في العالم الا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة الى جلية
فكالعلم بان من الحكم في خلق الشمس ان يحصل بها الليل والنهار فيكون النهار معاشا والليل
لباسا فتتيسر الحركة عند الابصار والسكون عند الاستتار فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها
بل فيها حكم اخرى كثيرة دقيقة وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الامطار وذلك لانشقاق الارض
بانواع النبات مطعما للخلق ومرعى للانعام وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجلية التي تحتملها افهام الخلق
دون الدقيق الذي يقصرون عن دركها اذ قال تعالى انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا
فيها حبا وعنبا واما الحكمة في ساير الكواكب السيارة منها والثوابت فخفية لا يطلع عليها كافة الخلق
والقدر الذي يحتمله فهم الخلق انها زينة السماء لتستلذ العين بالنظر اليها واشار اليه قوله تعالى انا زينا
السماء الدنيا بزينة الكواكب فجميع اجزاء العالم اسماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته
واعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة الى عشرة الى الف وكذلك اعضاء الحيوان
تنقسم الى ما يعرف حكمتها كالعلم بان العين للابصار لا للبطش لا للمشي والرجل للمشي لا للشم فاما الاعضاء
الباطنة من الامعاء والمرارة والكلية وآحاد العروق والاعصاب والعضلات وما فيها من التجاويف والالتفاف
والاشتباك والانحراف والدقة والغلظ وساير الصفات فلا يعرف الحكمة فيها كافة الناس والذين يعرفونها
لا يعرفون منها الا قدرا يسيرا بالاضافة الى علم الله وما اوتيتم من العلم الا قليلا فاذن كل من استعمل شيئا في جهة
غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي اريد به فقد كفر فيه نعمة الله فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة اليد
اذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره ومن نظر الى وجه غير محرم
فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس اذ الابصار يتم بهما وانما خلقا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقي
بهما ما يضره فيهما فقد استعملهما في غير ما اريد به وهذا لان المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا واسبابها
ان يستعين الخلق بها على الوصول الى الله ولا وصول اليه الا بمحبته والانس به في الدنيا والتجافي عن غرور

اى وبالتباعد

الدنيا

وخفية اما الجلية

واليد للبطش صح

والكبد صح

الدنيا ولا انس الا بدوام الذكر ولا محبة الا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر
الا بدوام البدن ولا يبقى البدن الا بالارض والماء والهواء والغذاء ولا يتم ذلك الا بخلق السماء والارض
وخلق ساير الاعضاء ظاهرا وباطنا وكل ذلك لاجل البدن والبدن مطية النفس والراجع الى الله هي النفس
المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ولذلك قال الله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون
فكل من استعمل شيئا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الاسباب التي لا بد منها لاقدامه على تلك المعصية
ولنذكر مثالا واحدا للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريق الشكر والكفران على النعم
فنقول من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لا منفعة في اعيانهما ولكن
يضطر الخلق اليهما من حيث ان كل انسان محتاج الى اعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وساير حاجاته
وقد يعجز عما يحتاج اليه ويملك ما يستغني عنه كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج الى جمل
يركبه ومن يملك الجمل ربما يستغني عنه ويحتاج الى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد في
مقدار العوض من تقدير اذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران ولا مناسبة
بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطي منه مثله في الوزن والصورة وكذا من يشتري
دارا بثياب او عبدا بخف او دقيقا بحمار فهذه الاشياء لا تناسب فيها فلا يدري ان الجمل كم يسوى
بزعفران فتتعذر المعاملات جدا فافتقرت هذه الاعيان المتنافرة المتباعدة الى
الى متوسط بينها يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى اذا تقررت المنازل
وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي فخلق الدراهم والدنانير حاكمين ومتوسطين
بين ساير الاموال حتى تقدر الاموال بهما فيقال هذا الجمل يسوى مائة وهذا القدر من الزعفران
يسوى مائة فهما من حيث انهما مساويان لشيء واحد اذن متساويان وانما امكن التعديل
بالنقدين اذ لا غرض في اعيانهما ولو كان في اعيانهما غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق
صاحب الغرض ترجيحا ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الامر فاذا خلقهما الله لتتداولهما
الايدي ويكونا حاكمين بين الاموال بالعدل ولحكمة اخرى وهي التوسل بهما الى ساير الاشياء

التوسل صح

معاوضة

تتدرت صح

الله صح

لانهما حجران لا غرض في اعيانهما ونسبتهما الي ساير الاموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكانه ملك كل
شي لا كمن ملك ثوبا فانه لم يملك الا الثوب فلو احتاج الي طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لان غرضه
في دابة مثلا فاحتيج الي شي هو في صورته كانه ليس بشي وهو في معناه كانه كل الاشيا والشي انما تستوي
نسبته الي المختلفات اذا لم يكن له صورة خاصة تفيدها بخصوصها كالمراة لا لون لها وتحكي كل لون
فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة الي كل غرض وكالحرف لا معني له في نفسه وتظهر به المعاني
في غيره فهذه هي الحكمة الثانية وفيهما ايضا حكم يطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكم
بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله فيهما فاذا من كنزهما فقد ظلمهما وابطل الحكمة فيهما
وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكم بسببه لانه اذا كنز فقد ضيع ولا يحصل الغرض المقصود
به وما خلقت الدراهم لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة اذ لا غرض للاحاد في اعيانهما فانهما حجران وانما خلقتا لتتداولهما
الايدي فيكونا حاكمين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب فاخبر الله الذين يعجزون عن
قراءة الاسطر الالهية المكتوبة علي صفحات الموجودات بخط الهي لا حرف فيه ولا صوت الذي لا يدرك
بعين البصر بل بعين البصيرة اخبر هولاء العاجزين بكلام سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتي وصل
اليهم بواسطة الحرف والصوت المعني الذي عجزوا عن ادراكه فقال والذين يكنزون الذهب والفضة
ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير انية من ذهب
او فضة فقد كفر النعمة وكان اسوا حالا ممن كنز لان مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة
والكنس والاعمال التي يقوم بها اخساء الناس والحبس اهون منه وذلك ان الخزف والحديد والرصاص
والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المايعات عن ان تتبدد وانما الاواني لحفظ المايعات
ولا يكفي الخزف والحديد في المقصود الذي اريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الالهية
وقيل له من شرب في انية من ذهب وفضة فكانما يجرجر في بطنه نار جهنم وكل من عامل معاملة الربا علي
الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لانهما خلقا لغيرهما لا لانفسهما اذ لا غرض في عينهما فاذا اتجر في عينهما
فقد اتخذهما مقصودا علي خلاف وضع الحكمة اذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه

فقد

نقد لا يقدر علي ان يشتري به طعاما ودابة اذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب فهو معذور في بيعه بنقد ليحصل
النقد فيتوصل به الي مقصوده فانهما وسيلتان الي الغير لا غرض في اعيانهما وموقعهما من الاموال
كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويون ان الحرف هو الذي جاء لمعني في غيره وكموقع المراة من الالوان فاما
من معه نقد فلو جاز له ان يبيعه فيتخذ التعامل علي النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيدا فلا معنى لبيع النقد بالنقد الا
باتخاذ النقد مقصودا للادخار وهو ظلم **فان قلت** فلم جاز بيع احد النقدين بالاخر فاعلم ان احد النقدين قد يتيسر التوصل باحدهما
من حيث كثرته كالدراهم فتتفرق في الحاجات قليلا قليلا ففي المنع منه ما يشوش المقصود الخاص به وهو تيسر التوصل به
الي غيره واما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجايز من حيث ان ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به
تاجر فانه عبث يجري مجري وضع الدرهم علي الارض واخذه ونحن لا نخاف علي العقلاء ان يصرفوا اوقاتهم الي وضع
الدرهم علي الارض واخذها بعينها فلا يمنع مما لا تتشوف النفوس اليه الا ان يكون احدهما اجود وذلك
ايضا لا يتصور جريانه اذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الردي فلا ينتظم العقد وان طلب زيادة في الردي
فذلك مما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ونحكم بان جيدها ورديها سواء لان الجودة والرداءة ينبغي
ان ينظر اليهما فيما يقصد في عينه وما لا غرض في عينه فلا ينبغي ان ينظر الي مصارفات دقيقة في صفاته وانما
الذي ظلم هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداءة حتي صارت مقصودة في اعيانها وحقها ان
لا تقصد واما اذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فانما لم يجز لانه لا يقدم علي هذا الا قاصد للاحسان في
القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد واجر والمعاوضة لا حمد فيها
ولا اجر فهو ايضا ظلم لانه اضاع خصوص المسامحة واخرجها في معرض المعاوضة وكذلك الاطعمة
خلقت ليتغذى بها او يتداوى فلا ينبغي ان تصرف عن جهتها فان فتح المعاملة فيها يوجب تقييدها
في الايدي ويوخر عنها الاكل الذي اريدت له فما خلق الطعام الا ليوكل والحاجة الي الاطعمة شديدة
فينبغي ان يخرج عن يد المستغني عنها الي المحتاج ولا يتعامل علي الاطعمة الا مستغن عنها اذ من معه
الطعام فلم لا ياكله ان كان محتاجا ولم يجعله بضاعة تجارة وان جعله بضاعة تجارة فليبعه من يطلبه
بعوض غير الطعام ليكون محتاجا اليه فاما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو ايضا مستغن عنه

ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر وورد فيه من التشديد ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب ثم بايع
البر بالبر متعذر اذ احدهما لا يسد مسد الآخر في الغرض وباع صاعا من البر بصاع منه غير متعذر ولكنه
عابث فلا يحتاج الى منع لان النفوس لا تسمح به الا عند التفاوت في الجودة ومقابلة الجيد بمثله من الردي
لا يرضى به صاحب الجيد واما جيد برديين فقد يقصد ولكن لما كانت الاطعمة من الضروريات
والجيد يساوي الردي في اصل الفائدة ويخالفه في وجوه التنعم اسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام
فهذه حكمة الشرع في تحريم الربوا وقد انكشف لنا هذا بعد الاعراض عن فن الفقه فلنلحق هذا بفن
الفقهيات فانه اقوى من جميع ما اوردناه في الخلافيات وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي في التخصيص
بالاطعمة دون المكيلات اذ لو دخل الجص فيه لكان الثياب والدواب اولى بالدخول ولولا الملح لكان
مذهب مالك اقوم المذاهب فيه اذ خصصه بالاقوات ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد ان يضبط بحد
وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعوم فرأى الشرع التحديد بجنس المطعوم احوط
لكل ما هو ضرورة البقاء وتحديدات الشرع قد تحيط باطراف لا يقوى فيها اصل المعنى الباعث على الحكم ولكن
التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتحير الخلق في تتبع جوهر المعنى مع اختلافه بالاحوال والاشخاص
فتعين المعنى بكمال قوته يختلف بالاحوال والاشخاص فيكون للحد ضرورة ولذلك قال تعالى ومن
يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ولان اصول هذه المعاني لا يختلف المعنى فيها الشرائع وانما تختلف في وجوه
التحديد كما يحد شرع عيسى تحريم الخمر بالسكر وقد حرم شرعنا بكونه من جنس المسكرات فقليله يدعو الى كثيره
والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل اصل المعنى بالحكمة الاصلية فهذا مثال واحد
لحكمة خفية من حكم النقدين فينبغي ان يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق الله لحكمة فلا ينبغي
ان يصرف عنها ولا يعرف هذا الا من عرف الحكمة ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا ولكن لا يصادف
جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملاعب الشياطين بل لا يذكر الا اولو الالباب ولذلك قال
عليه السلام لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السماء واذا عرفت هذا المثال
فقس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك وكل فعل صادر منك فانه اما شكر واما كفران لا يتصور

ان

ان ينفك عنهما وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي يتناطق به عوام الخلق بالكراهة وبعضه بالحظر
وكل ذلك عند ارباب القلوب موصوف بالحظر فاقول مثلا لو استنجيت باليمين فقد كفرت نعمة اليدين
اذ خلق الله لك اليدين وجعل احديهما اقوى من الاخرى فاستحق الاقوى بمزيد رجحانه في الغالب
التشريف والتفضيل اذ تفضيل الناقص عدول عن العدل والله لا يأمر الا بالعدل ثم احوجك
من اعطاك اليدين الى اعمال بعضها شريفة كاخذ المصحف وبعضها خسيسة كازالة النجاسة
فاذا اخذت المصحف باليسار وازالة النجاسة باليمين فقد خصصت الشريف بما هو الخسيس
فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل وكذلك اذا بزقت مثلا في جهة القبلة او استقبلتها
في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله في خلق الجهات وسعة العالم لانه خلق الجهات لتكون متسعك في حركتك
وقسم الجهات الى ما لم يشرفها والى ما شرفها بان وضع فيها بيتا اضافه الى نفسه استمالة لقلبك
ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار اذا عبدت
ربك وكذلك انقسمت افعالك الى ما هي شريفة كالطاعات والى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة
ورمي البزاق فاذا رميت بزاقك الى جهة القبلة فقد ظلمتها وكفرت نعمة الله عليك بوضع القبلة التي
بوضعها كمال عبادتك وكذلك اذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت لان الخف وقاية للرجل
فللرجل فيه حظ والبداية في الحظوظ ينبغي ان تكون بالاشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة ونقيضه
ظلم وكفران لنعمة الرجل والخف وهذا عند العارفين كبيرة وان سماه الفقيه مكروها حتى ان بعضهم كان
قد جمع اكرارا من الحنطة وكان يتصدق بها فسئل عن سببه فقال لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل
اليسرى سهوا فاريد ان اكفره بالصدقة نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الامر في هذه الامور لانه مسكين بلي باصلاح
العوام الذين يقرب درجتهم من درجة الانعام وهم منغمسون في ظلمات اطم واعظم من ان يظهر امثال
هذه الظلمات بالاضافة اليها فقبيح ان يقال للذي شرب الخمر واخذ القدح بيساره قد تعدى
من وجهين احدهما الشرب والآخر الاخذ باليسار ومن باع خمرا في وقت النداء يوم الجمعة فقبيح
ان يقال خان من وجهين احدهما بيع الخمر والآخر البيع في وقت النداء ومن قضى حاجته في محراب المسجد

مستدبرا للقبلة فقبيح ان يذكر ترك الادب في قضاء الحاجة في محراب المسجد من حيث
لم يجعل القبلة على يمينه فالمعاصي كلها ظلمات وبعضها فوق بعض فيمحق بعضها في جنب البعض
فالسيد قد يعاقب عبده اذا استعمل سكينه بغير اذنه ولكن لو قتل بتلك السكين عز اولاده لم يبق
لاستعمال السكين بغير اذنه حكم ونكاية هذه الفروق ولا فكل ما رعاه الانبياء والاولياء من الادب
وتساهلنا به في الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة والا فكل هذه المكاره عدول عن العدل وكفران
للنعمة ونقصان عن الدرجة البالغة للعبد الى درجات القرب نعم بعضها يوثر في البعد بنقصان
القرب وانحطاط المنزلة وبعضها يخرج بالكلية عن حد القرب الى عالم البعد الذي هو مستقر
الشياطين وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ومن غير غرض صحيح فقد كفر
نعمة الله سبحانه في خلق الاشجار وخلق اليد اما اليد فانها لم تخلق للعبث بل للطاعة والاعمال المعينة
على الطاعة واما الشجر فانما خلقه الله تعالى وخلق له العروق وساق اليه الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء
والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده مخالفة
لمقصود الحكمة وعدول عن العدل وان كان له غرض صحيح فله ذلك اذ الشجر والحيوان جعلا فداء
لاغراض الانسان فانهما جميعا فانيان هالكان فافناء الاخس في بقاء الاشرف مدة ما اقرب الى العدل
من تضييعهما جميعا واليه الاشارة بقوله تعالى وسخر لكم ما في الارض جميعا منه نعم ان كسر ذلك من ملك غيره
فهو ظالم ايضا وان كان محتاجا لان كل شجرة بعينها فلا تفي بحاجات عباد الله سبحانه كلهم بل تفي بحاجة
واحد ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما وصاحب الاختصاص هو الذي
حصل البذر ووضعه في الارض وساق اليه الماء وقام بالتعهد فهو اولى به من غيره فترجح جانبه بذلك
فان نبت ذلك في موات لا بسعي آدمي اختص بغرسه فلا بد من طلب اختصاص آخر وهو السبق
الى اخذه فللسابق خاصية السبق فالعدل ان يكون هو اولى به وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك
وهو مجاز محض اذ لا ملك الا لملك الملوك الذي له ما في السموات والارض وكيف يكون
العبد مالكا وهو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره نعم الخلق عباد الله والارض مائدة

وقد اذن لهم في الاكل من مائدته بقدر حاجتهم كالملك ينصب مائدة لعبيده فمن اخذ
لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه فجاء عبد آخر واراد انتزاعها من يده لم يمكن منه
لا لان اللقمة صارت ملكا له بالاخذ باليد فان اليد وصاحب اليد ايضا مملوك
ولكن اذا كانت كل لقمة بعينها لا تفي بحاجة كل العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من
الترجيح والاختصاص والاخذ اختصاص ينفرد به العبد فمنع من لا يدلي بذلك الاختصاص
عن مزاحمته فهكذا ينبغي ان يفهم امر الله سبحانه في عباده ولذلك نقول من اخذ من اموال
الدنيا اكثر من حاجته وكنزه وامسكه وفي عباد الله من يحتاج اليه فهو ظالم وهو من الذين
يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله وانما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته
اموال الدنيا اذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم نعم لا يدخل هذا في حد فتاوى الفقه
لان مقادير الحاجات خفية والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة واواخر
الاعمار غير معلومة فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت
عن كل كلام غير مهم وهم بحكم نقصانهم لا يطيقونه فتركنا الاعتراض عليهم في اللعب واللهو واباحتنا
اياهم ذلك لا يدل على ان اللهو واللعب حق فكذلك اباحتنا للعوام حفظ الاموال
والاقتصار في الانفاق على قدر الزكوات لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لا يدل على انه
غاية الحق وقد اشار القرآن اليه اذ قال ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا بل الحق الذي لا
كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه ان لا ياخذ احد من عباد الله من مال الله الا بقدر
زاد الراكب وكل عباد الله ركاب لمطايا الابدان الى حضرة الملك الديان فمن اخذ
زيادة عليه ومنعه عن راكب آخر يحتاج اليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود
الحكمة وكافر نعمة الله عليه بالقرآن والرسول وسائر الاسباب التي بها عرف ان ما سوى زاد
الراكب وبال عليه في الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله في جميع انواع الموجودات قدر على القيام
بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك يحتاج الى مجلدات ثم لا يفي الا بالقليل وانما اوردنا

بعينها

ادل بحجته اي احتج بها ... برجمه اي ... وادلى بماله الى الحاكم اذا دفعه اليه

هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى وقليل من عبادي الشكور وفرح ابليس لعنه الله
بقوله ولا تجد اكثرهم شاكرين فلا يعرف معنى هذه الآية من لا يعرف هذا كله وامورا
آخر وراء هذا تنقضي الاعمار دون استقصاء مبادیها فاما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفها
كل من يعرف اللغة وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير فان **قلت** فقد رجع
حاصل الكلام الى ان لله تعالى حكمة في كل شيء والله جعل بعض افعال العباد سببا لتمام تلك الحكمة
وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض افعالهم مانعا من تمام الحكمة وكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساقت
الحكمة الى غايتها فهو شكر وكلما خالف ومنعت الاسباب من ان تنساق الى الغاية المراد
بها فهو كفران وهذا كله مفهوم ولكن الاشكال باق وهو ان فعل العبد المنقسم الى ما يتم الحكمة والى
ما يدفعها هو ايضا من فعل الله سبحانه فاين العبد في البين حتى يكون شاكرا مرة وكافرا اخرى فاعلم
ان تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيما سبق الى
تلويحات بمباديها ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها يفهمها من عرف منطق الطير
ويجحدها من عجز عن الايضاع في السير فضلا عن ان يجول في جو الملكوت جولان الطير فنقول ان لله
في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة اعلى واجل من ان تلمحها عين
واضع اللغة حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن في العالم لها عبارة
لعلو شانها وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن ان يمتد طرفهم الى مبادي اشراقها فانخفضت عن
ذروتها ابصارهم كما ينخفض ابصار الخفافيش عن نور الشمس لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف في
ابصارها فاضطر الذين فتحت ابصارهم لملاحظة جلالها الى ان يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين
باللغات عبارة توهم من مبادي حقايقها شيئا ضعيفا جدا فاستعاروا لها اسم القدرة
فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا لله صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع
ثم الخلق ينقسم في الوجود الى اقسام وخصوص صفات ومصدر انقسامها واختصاصها بخصوص
صفاتها صفة اخرى استعيرت لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشية فهي توهم منها امرا

مجملا عند المتناطقين باللغات التي هي حروف واصوات المتفاهمين بها وقصور لفظ المشية
عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ثم انقسمت الافعال الصادرة
من القدرة الى ما ينساق الى المنتهى الذي هو غاية حكمتها والى ما يقف دون الغاية وكان لكل واحد نسبة
الى صفة المشية لرجوعها الى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلاف فاستعير لنسبة البالغ
غايته عبارة المحبوب واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة وقيل انهما جميعا داخلان
في وصف المشية ولكن لكل واحد خاصية اخرى في النسبة يوهم لفظ المحبة والكراهة منهما
امرا مجملا عند طالبي الفهم من الالفاظ واللغات ثم انقسم عباده الذين هم ايضا من خلقه واختراعه
الى من سبقت لهم في المشية الازلية ان يستعملهم لاستيقاف حكمته دون غايتها ويكون ذلك قهرا
في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم والى من سبقت لهم في المشية الازلية ان يستعملهم لسياقة
حكمته الى غايتها في بعض الامور فكان لكل واحد من الفريقين نسبة الى المشية خاصة فاستعير لنسبة
المستعملين في تمام الحكمة بهم عبارة الرضاء واستعير للذين استوقفتهم اسباب الحكمة دون غايتها
عبارة الغضب وظهر على من غضب عليه في الازل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران
واردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال وظهر على من ارتضاه في الازل فعل انساقت
بسببه الحكمة الى غايتها فاستعير له عبارة الشكر واردف بخلعة الثناء والاطراء زيادة في
الرضاء والقبول والاقبال فكان الحاصل انه اعطى الجمال ثم اثنى واعطى النكال ثم قبح واردى
وكان مثاله ان ينظف الملك عبده الوسخ عن اوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه فاذا تم زينته
قال يا جميل ما اجملك واجمل ثيابك وانظف وجهك فيكون بالحقيقة هو المجمل وهو المثني على الجمال
فهو المثني عليه بكل حال وكانه لم يثن من حيث المعنى الا على نفسه فانما العبد هدف الثناء من حيث
الظاهر والصورة فهكذا كانت الامور في ازل الازال وهكذا تسلسلت الاسباب والمسببات
بتقدير رب الارباب ومسبب الاسباب ولم يكن ذلك عن اتفاق وبخت بل عن ارادة وحكمة وحكم حق

وامر جزم واستعير له لفظ القضاء وقيل انه كلمح البصر ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء
الجزم بما سبق به التقدير فاستعير لترتيب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ
القضاء بازاء الامر الواحد الكلي ولفظ القدر بازاء التفصيل المتمادي الى غير نهاية وقيل ان شيئا
من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر فخطر لبعض العباد ان القسمة لماذا اقتضت هذا
التفصيل وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل وكان بعضهم لقصوره لا يطيق
ملاحظة كنه هذا الامر والاحتواء على مجامعه فالجموا لجاما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل
لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وامتلأ مشكوة بعضهم نورا مقتبسا من نور
الله في السموات والارض فكان زيتهم اولا صافيا يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار فمسته نار فاشتعل
نورا على نور فاشرق الملكوت بين ايديهم بنور ربها فادركوا الامور كما هي عليه فقيل لهم تادبوا
باداب الله واسكتوا واذا ذكر القدر فامسكوا فان للجدران اذانا وحواليكم ضعفاء الابصار فسيروا
بسير اضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لابصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاككم فتخلقوا باخلاق الله
وانزلوا الى السماء الدنيا من منتهى علوكم ليانس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا انواركم المشرقة
من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل فيحيى به حيوة يحتملها
شخصه وحاله وان كان لا يحيى به حيوة المترددين في كمال نور الشمس وكونوا كمن قيل فيهم
شربنا شرابا طيبا عند طيب كذاك شراب الطيبين يطيب شربنا واهرقنا على الارض فضله
وللارض من كاس الكرام نصيب فهكذا كان اول الامر وآخره ولا تفهمه الا اذا كنت اهلا له
واذا كنت اهلا له فتحت العين وابصرت فلا تحتاج الى قائد يقودك والاعمى يمكن ان يقاد
ولكن الى حد ما فاذا ضاق الطريق وصار احد من السيف وادق من الشعر قدر الطائر على ان
يطير عليه ولم يقدر على ان يستجر وراءه اعمى واذا دق المجال ولطف لطف الماء مثلا ولم يمكن العبور
الا بالسباحة ان يعبر بنفسه وربما لم يقدر على ان يستجر وراءه اعمى فهذه امور نسبة السير عليها
الى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشي على الماء الى المشي على الارض والسباحة يمكن
ان يتعلم

ان يتعلم فاما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعلم بل ينال بقوة اليقين ولذلك قيل للنبي صلى الله عليه وسلم
ان عيسى عليه السلام يقال انه مشى على الماء فقال لو ازداد يقينا لمشى على الهواء فهذه رموز واشارات
الى معنى الكراهة والمحبة والرضى والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة اكثر منه وقد
ضرب الله مثلا لذلك تقريبا الى افهام الخلق اذ عرف انه ما خلق الجن والانس الا ليعبدوه وكانت
عبادتهم غاية الحكمة في حقهم ثم اخبر ان له عبدين يحب احدهما واسمه جبرئيل والروح القدس والامين وهو عنده
محبوب مطاع مكين ويبغض الآخر واسمه ابليس واللعين المنظر الى يوم الدين ثم احال الارشاد الى جبرئيل
فقال قل نزله روح القدس من ربك بالحق وقال يلقي الروح من امره على من يشاء من عباده واحال
الاغواء على ابليس فقال ليضلهم عن سبيله والاغواء هو استيفاق للعباد دون بلوغ غاية الحكمة فانظر
كيف نسبه الى العبد الذي غضب عليه والارشاد سياقة لهم الى الغاية فانظر كيف نسبه الى العبد
الذي احبه وعندك في العادة لهذا مثال فالملك اذا كان يحتاج الى من يسقيه الشراب والى من يحجمه
فناء داره عن القاذورات وكان له عبدان ولا يعين للحجامة الا اقبحهما واخسهما ولا يفوض حمل الشراب
الطيب الا الى احسنهما واكملهما واحبهما اليه ولا ينبغي ان يقول هذا فعلي فلم يكن فعله على ذوق فعلي فانك
اخطات اذا اضفت ذلك الى نفسك بل هو الذي صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه
والفعل المحبوب اتماما للعدل فان عدله تارة يتم بفعل فانك ايضا من افعاله فداعيتك وقدرتك وعلمك وسائر
بالشخص المحبوب صح
اسباب حركتك في التعيين هو فعله الذي رتبه بالفعل ترتيبا يصدر منه الافعال المعتدلة الا انك لا ترى
الا نفسك فتظن ان ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه الى نفسك
وانما انت مثل الصبي الذي ينظر ليلا الى لعب المشعبذ الذي يخرج صورا من وراء حجاب ترقص وتزعق وتقوم
وتقعد وهي مؤلفة من خرق ولا تتحرك بانفسها انما يحركها خيوط شعرية دقيقة لا يظهر في ظلام الليل ورؤسها
في يد المشعبذ وهو محتجب من ابصار الصبيان فيفرحون ويتعجبون لظنهم ان تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعد
واما العقلاء فانهم يعلمون ان ذلك تحريك وليس بتحرك ولكنهم ربما لا يعلمون تفصيله والذي يعلم بعض تفصيله
لا يعلمه كما يعلمه المشعبذ الذي الامر اليه والجاذبة بيده فكذلك صبيان اهل الدنيا والخلق كلهم صبيان الا العلماء

ينظرون الى هذه الاشخاص فيظنون انها المتحركة فيحيلون عليها والعلماء يعلمون انهم محركة الا انهم لا يعرفون
كيفية التحريك هم الاكثرون الا العارفون والعلماء الراسخون فانهم ادركوا بحدة ابصارهم خيوطا
دقيقة عنكبوتية بل ادق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الاطراف باشخاص اهل الارض لا يدرك
تلك الخيوط لدقتها بهذه الابصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤس تلك الخيوط في مناطات لها هي معلقة منها
وشاهدوا لتلك المناطات مقابض في ايدي الملائكة المحركين للسموات وشاهدوا ابصار ملائكة السموات
مصروفة الى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الامر من حضرة الربوبية كيلا يعصون الله ما امرهم
ويفعلون ما يؤمرون وعبر عن هذه المشاهدة في القرآن فقيل وفي السماء رزقكم وما توعدون
وعبر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل اليهم من الامر والقدر فقيل خلق سبع سموات ومن الارض
مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قد احاط بكل شيء
علما فهذه امور لا يعلم تاويلها الا الله والراسخون في العلم وعن ابن عباس عن اختصاص
الراسخين في العلم بعلم لا يحتمله افهام الخلق حيث قرا قوله يتنزل الامر بينهن فقال
لو ذكرت ما اعرفه من معنى هذه الآية لرجمتموني وفي لفظ آخر لقلتم انه كافر ولنقتصر
على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم المعاملة ما ليس منها
فلنرجع الى مقاصد الشكر فنقول اذا رجع حقيقة الشكر الى كون العبد مستعملا في اتمام حكمة الله
فاشكر العباد احبهم الى الله واقربهم اليه فاقربهم الى الله الملائكة ولهم ايضا ترتيب وما منهم الا
له مقام معلوم واعلاهم في رتبة القرب اسمه اسرافيل وانما علو درجتهم لانهم في انفسهم كرام بررة
وقد اصلح الله بهم الانبياء وهم اشرف مخلوق على وجه الارض ويلي درجتهم درجة
الانبياء فانهم في انفسهم اخيار وقد هدى الله بهم ساير الخلق وتم بهم حكمته واعلاهم
رتبة نبينا صلى الله عليه وسلم اذ اكمل الله به الدين وختم به النبيين ويليهم العلماء
الذين هم ورثة الانبياء فانهم في انفسهم صالحون وقد اصلح الله بهم ساير الخلق ودرجة
كل واحد بقدر ما اصلح من نفسه ومن غيره ثم يليهم السلاطين بالعدل لانهم اصلحوا دنيا

الخلق كما اصلح العلماء دينهم ولاجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا كان افضل
من ساير الانبياء فانه اكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره
من الانبياء ثم يلي العلماء الصالحون الذين اصلحوا انفسهم فقط فلم يتم حكمة الله بهم
الا فيهم وما عدا هؤلاء فهمج رعاع واعلم ان السلطان به قوام الدين فلا ينبغي ان يستحقر
وان كان ظالما فاسقا قال عمرو بن العاص امام غشوم خير من فتنة تدوم وقال
النبي صلى الله عليه وسلم سيكون عليكم امراء يفسدون وما يصلح الله بهم اكثر فان احسنوا
فلهم الاجر وعليكم الشكر وان اساؤا فعليهم الوزر وعليكم الصبر وقال سهل من انكر
امامة السلطان فهو زنديق ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع ومن اتاه بغير
دعوة سلطان فهو جاهل وسئل اي الناس خير فقال السلطان فقيل كنا نرى ان
شر الناس السلطان فقال مهلا ان لله تعالى كل يوم نظرتين نظرة الى سلامة
اموال المسلمين ونظرة الى سلامة ابكارهم فيطلع في صحيفته فيغفر له جميع ذنوبه
وكان يقول الخشبات السود المعلقة على ابوابهم خير من سبعين قاضيا يقصون

الركن الثاني من اركان الشكر

ما عليه الشكر وهو النعمة ولنذكر
فيه حقيقة النعمة واقسامها ودرجاتها واصنافها ومجامعها فيما يخص وما يعم فان
احصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله
لا تحصوها فنقدم امورا كلية تجري مجرى القوانين في معرفة النعم ثم نشتغل بذكر
الآحاد

بيان حقيقة النعمة واقسامها

اعلم ان كل خير ولذة وسعادة بل كل
مطلوب ومؤثر فانه يسمى نعمة ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الاخروية
وتسمية ما عداها نعمة وسعادة اما غلط واما مجاز كتسمية سعادة الدنيوية
التي لا تعين على الآخرة نعمة فان ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشيء
صدقا ولكن يكون اطلاقه على السعادة الاخروية اصدق فكل سبب يوصل

الى سعادة الآخرة ويعين عليها اما بواسطة واحدة او بوسايط فان تسميته
نعمة صحيح وصدق لاجل انه يفضي الى النعمة الحقيقية والاسباب المعينة
واللذات المسماة نعمة شرحها تقسيمات **القسمة الاولى** ان الامور كلها بالاضافة
الينا تنقسم الى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق والى ما هو ضار فيهما
جميعا كالجهل وسوء الخلق والى ما ينفع في الحال ويضر في المآل كالتلذذ باتباع
الشهوات والى ما يضر في الحال ويولم ولكن ينفع في المآل كقمع الشهوات ومخالفة
النفس فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقا كالعلم وحسن الخلق والضار
فيهما هو البلاء تحقيقا وهو ضدهما والنافع في الحال والمضر في المآل بلاء
محض عند ذوي الابصار ويظنه الجهال نعمة ومثاله الجايع اذا وجد
عسلا فيه سم فانه يعده نعمة ان كان جاهلا واذا علمه علم ان ذلك
بلاء سيق اليه والضار في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوي
الالباب بلاء عند الجهال ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقة الا انه
شاف من الامراض والاسقام وجالب للصحة والسلامة فالصبي الجاهل
اذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعده نعمة ويتقلد المنة ممن
يهديه اليه ويهيئ له اسبابه فلذلك تمنع الام ولدها من الحجامة والاب
يدعوه اليها فان الاب بكمال عقله يلحظ العاقبة والام لقصورها وفرط حبها
تلحظ الحال والصبي بجهله يتقلد المنة من امه دون ابيه ويانس اليها والى
شفقتها ويقدر الاب عدوا له ولو عقل لعلم ان الام عدو باطن في صورة
صديق لان منعها اياه من الحجامة يسوقه الى امراض وآلام اشد من الحجامة
ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل وكل انسان فانه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل
ولذلك يعمل به ما لا يعمل به العدو **وقسمة ثانية** اعلم ان الاسباب الدنياوية مختلطة قد امتزج

خيرها بشرها فقلما يصفو خيرها كالمال والاهل والولد والاقارب والجاه وساير
الاسباب ولكن تنقسم الى ما نفعه اكثر من ضره كقدر الكفاية من المال والجاه وساير الاسباب
والى ما ضره في حق اكثر الاشخاص اكثر من نفعه كالمال الكثير والجاه الواسع والى ما يكافي ضرره
نفعه وهذه امور تختلف بالاشخاص فرب انسان صالح ينتفع بالمال الصالح وان كثر فينفقه
في سبيل الله ويصرفه الى الخيرات وهو مع هذا التوفيق نعمة في حقه ورب انسان يستضر
بالقليل ايضا اذ لا يزال مستصغرا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة على ما عنده فيكون ذلك مع هذا
الخذلان بلاء في حقه **قسمة ثالثة** اعلم ان الخيرات باعتبار آخر تنقسم الى ما هي مؤثرة
لذاتها والى مؤثرة لغيرها والى مؤثرة لذاتها ولغيرها فالاول ما يؤثر لذاته لا لغيره كلذة النظر
الى وجه الله تعالى وسعادة لقائه وبالجملة سعادة الآخرة التي لا انقضاء لها فانها لا يتوصل
بها الى غاية اخرى ورآءها بل تطلب لذاتها **الثاني** ما يقصد لغيره ولا غرض اصلا في ذاته
كالدراهم والدنانير فان الحاجات لو كانت لا تنقضي بها لكانت هي والحصباء بمثابة واحدة
ولكن لما كانت وسيلة الى اللذات سريعة الايصال اليها صارت عند الجهال محبوبة في نفسها
حتى يجمعونها ويكنزونها ويتصارفون عليها بالربوا ويظنون انها مقصودة ومثال هولاء مثال
من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ثم ينسى في محبة الرسول محبة
الاصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده وهو غاية
الجهل والضلال **الثالث** ما يقصد لذاته ولغيره كالصحة والسلامة فانها تقصد ليقدر بسببها
على الفكر والذكر الموصلين الى لقاء الله تعالى او ليتوصل بهما الى استيفاء لذات الدنيا وتقصد
ايضا لذاتها فان الانسان وان استغنى عن الشيء الذي تراد سلامة الرجل لاجله فيريد ايضا سلامة
الرجل من حيث انها سلامة فاذا المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا وما يؤثر لذاته
ولغيره ايضا فهو نعمة ولكن دون الاول فاما ما لا يؤثر الا لغيره كالنقدين فلا يوصفان في انفسهما
من حيث هما جوهران بانهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان فيكونان في حق من يقصد امرا ليس يمكنه

ان يتوصل اليه الا بهما فلولا مقصد العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حيوته استوى عنده
الذهب والمدر فكان وجودها وعدمها بمثابة واحدة بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان
بلاء في حقه ولم يكن نعمة قسمة رابعة اعلم ان الخيرات باعتبار اخر تنقسم الى نافع وجميل
ولذيذ فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال والنافع هو الذي يفيد في المآل والجميل هو الذي
يستحسن في سائر الاحوال والشرور ايضا تنقسم الى ضار وقبيح ومولم وكل واحد من القسمين ضربان
مطلق ومقيد فالمطلق هو الذي اجتمعت فيه الاوصاف الثلثة اما في الخير فكالعلم والحكمة فانها
نافعة وجميلة ولذيذة عند اهل العلم والحكمة واما في الشر فكالجهل فانه ضار وقبيح ومولم وانما
يحس الجاهل بالم جهله اذا عرف انه جاهل بان يرى غيره عالما ويرى نفسه جاهلا فيدرك الم
النقص فينبعث منه شهوة العلم اللذيذ ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات البدنية
عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم المه فانه ان ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان
وان اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات او بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب
دائم لا محالة والضرب الثاني مقيد وهو الذي جمع بعض هذه الاوصاف دون بعض فرب نافع
مولم كقطع الاصبع المتآكلة والسلعة الخارجة من البدن ورب نافع قبيح كالحمق فانه بالاضافة
الى بعض الاحوال نافع وقد قيل استراح من لا عقل له فانه لا يهتم بالعاقبة فيستريح في الحال الى ان يجيء
وقت هلاكه ورب نافع من وجه ضار من وجه كالقاء المال في البحر عند خوف الغرق فانه ضار للمال
ونافع للنفس في نجاتها والنافع قسمان ضروري كالايمان وحسن الخلق في الايصال الى سعادة الآخرة
واعني بهما العلم والعمل اذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما والى ما لا يكون ضروريا ~~والى ما لا يكون ضروريا~~
كالسكنجبين مثلا في تسكين الصفراء فانه قد يمكن تسكينه بما يقوم مقامه قسمة خامسة
اعلم ان النعمة يعبر بها عن كل لذيذ واللذات الى الانسان من حيث اختصاصه به او مشاركته
لغيره ثلثة انواع عقلية وبدنية مشتركة مع الحيوانات اما العقلية فكلذة العلم والحكمة
اذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم ولا البطن ولا الفرج وانما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة

يعبر

يعبر عنها بالعقل وهذه اقل اللذات وجودا وهي اشرفها اما قلتها فلان العلم لا يستلذه الا العالم
والحكمة لا يستلذها الا الحكيم وما اقل اهل العلم والحكمة وما اكثر المتشبهين باسمهم والمترسمين برسمهم
واما شرفها فلانها لازمة لا تزول ابدا لا في الدنيا ولا في الآخرة ودائمة لا تمل فالطعام يشبع منه
فيمل وشهوة الوقاع يفرغ منها فيستثقل والعلم والحكمة قط لا يتصور ان يمل ويستثقل ومن قدر
على الشريف الباقي ابد الاباد اذا رضي بالخسيس الفاني في اقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم
بشقاوته وادباره واقل امر فيه ان العلم والعقل لا يحتاجان الى اعوان وحفظة بخلاف المال اذ العلم
يحرسك وانت تحرس المال والعلم يزيد بالانفاق والمال ينقص بالانفاق والمال يسرق والولاية يعزل
عنها والعلم لا تمتد اليه ايدي السراق بالاخذ ولا ايدي السلاطين بالعزل فيكون صاحبه في
روح الامن ابدا وصاحب المال والجاه في كرب الخوف ابدا ثم العلم نافع لذيذ وجميل في كل حال ابدا
والمال تارة يجذب الى الهلاك وتارة الى النجاة ولذلك ذم الله تعالى في القرآن في مواضع وان سماه خيرا واما
قصور اكثر الخلق عن ادراك لذة العلم فاما لعدم الذوق فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق اذ الشوق
تبع الذوق واما لفساد امزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمريض الذي لا يدرك حلاوة
العسل ويراه مرا واما لقصور فطرتهم اذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم كالصبي لا يدرك
لذة العلم العسل والطيور السمان ولا يستلذ الا اللبن وذلك لا يدل على انها ليست لذيذة ولا استطابته
اللبن يدل على انه الذ الاشياء فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة اما من لم يحيى بعد باطنه كالصبي
واما من مات بعد الحيوة باتباع الشهوات واما من مرض بسبب اتباع الشهوات وقوله تعالى في قلوبهم
مرض اشارة الى مرض العقول وقوله تعالى لينذر من كان حيا اشارة الى من لم تحى حيوته الباطنة وكل
حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وان كان عند الجهال من الاحياء ولذلك كان الشهداء
احياء عند ربهم يرزقون فرحين وان كانوا موتى بالابدان الثانية لذة يشارك الانسان فيها
بعض الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود في الاسد والنمر وبعض
الحيوانات والثالثة ما يشارك بها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج وهذه اكثرها وجودا

وهي اخسّها ولذلك اشترك فيها كل ما دبّ ودرج حتى الديدان والحشرات ومن جاوز هذه الرتبة
يستشري به لذة الغلبة وهي اشدها التصاقا بالمتغافلين فان جاوز ذلك ارتقي الي الثالثة فصار اغلب
اللذات عليه لذة العلم والحكمة لاسيما لذة معرفة الله تعالي ومعرفة صفاته وافعاله وهذه رتبة
الصديقين ولا ينال تمامها الا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب واخر ما يخرج من رؤوس
الصديقين حب الرياسة واما شره البطن والفرج فكسره مما يقوي عليه الصالحون وشهوة
الرياسة لا يقوي علي قهرها الا الصديقون فاما قمعها بالكلية حتى لا يقع بها الاحساس
علي الدوام وفي اختلاف الاحوال فيشبه ان يكون خارجا عن مقدور البشر نعم تغلب لذة
معرفة الله تعالي في احوال لا يقع معها الاحساس بلذة الرياسة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم
طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود اليه الصفات البشرية فتكون موجودة لكن تكون مقهورة
لا تقوي علي حمل النفس علي العدول عن العدل وعند هذا تنقسم القلوب الي اربعة اقسام قلب لا يحب الا
الله ولا يستريح الا بزيادة المعرفة به والفكر فيه وقلب لا يدري ما لذة المعرفة وما معني الانس
بالله وانما لذته بالجاه والرياسة والمال وساير الشهوات البدنية وقلب اغلب احواله الانس بالله
والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه في بعض الاحوال الرجوع الي اوصاف البشرية وقلب
اغلب احواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه في بعض الاحوال تلذذ بالعلم والمعرفة اما الاول
فان كان ممكنا في الوجود فهو في غاية البعد واما الثاني فالدنيا طافحة به واما الثالث والرابع
فموجود ولكن علي الندور لا ان يكون نادرا شاذا وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة
وانما يكون كثرته في الاعصار القريبة من اعصار الانبياء فلا يزال العهد طولا ويزداد المثل
هذه القلوب قلة الي ان تقرب الساعة ويقضي الله امرا كان مفعولا وانما وجب ان يكون هذا نادرا
لانه مبادي ملك الاخرة والملك عزيز والملوك لا يكثرون فكما لا يكون الفائق في الملك والجمال الا نادرا
واكثر الناس من دونهم فكذا في ملك الاخرة فان الدنيا مرآة الاخرة فانها عالم الشهادة والاخرة
عبارة عن عالم الغيب وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما ان الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر

في المرآة

في المرآة والصورة في المرآة وان كانت هي الثانية في رتبة الوجود فانها اول في حق رؤيتك
فانك لا تري نفسك وتري صورتك في المرآة اولا تعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانيا علي
سبيل المحاكاة فانقلب التابع في الوجود متبوعا في حق المعرفة وانقلب المتاخر متقدما وهذا نوع
من الانعكاس ولكن الامر انعكاس والانعكاس ضرورة هذا العالم فكذلك عالم الملك والشهادة محاكي
لعالم الغيب والملكوت فمن الناس من تيسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك الا ويعبر
به الي عالم الملكوت فيسمي عبوره عبرة وقد امر الخلق بذلك فقيل فاعتبروا يا اولي الابصار ومنهم من
عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة وستفتح الي حبسه ابواب جهنم وهذا الحبس
مملو نارا من شانها ان تطلع علي الافئدة الا ان بينه وبين ادراكه ذلك المها حجابا فاذا رفع الحجاب
بالموت ادركه وعن هذا اظهر الله الحق علي لسان قوم استنطقهم بالحق فقالوا الجنة والنار مخلوقتان
ولكن الجحيم تدرك مرة بادراك يسمي علم اليقين ومرة بادراك آخر يسمي عين اليقين وعين اليقين
لا يكون الا في الاخرة وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن في الذين قد ترحظهم من نور اليقين ولذلك
قال الله تعالي كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم اي في الدنيا ثم لترونها عين اليقين اي في الاخرة
فاذا قد ظهر ان القلب الصالح لملك الاخرة عزيز كالشخص الصالح لملك الدنيا قسمة سادسة
حاوية لمجامع النعم اعلم ان النعم تنقسم الي ما هي غاية مطلوبة لذاتها والي ما هي مطلوبة لاجل
الغاية اما الغاية فانها سعادة الاخرة ويرجع حاصلها الي اربعة امور بقاء لا فناء له
وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغني لا فقر معه وهي النعمة الحقيقية ولذلك قال الله
صلي الله عليه وسلم لا عيش الا عيش الاخرة وقال ذلك مرة في الشدة تسلية للنفس وذلك وقت
حفر الخندق في شدة الضرورة ومرة في السرور منعا للنفس من الركون الي سرور الدنيا وذلك عند احداق
الناس به في حجة الوداع وقال اللهم اني اسئلك تمام النعمة وقال صلي الله عليه وسلم وهل تعلم ما تمام النعمة
قال لا قال تمام النعمة دخول الجنة واما الوسايل فتنقسم الي الاقرب والاخص كفضايل النفس
والي ما يليه في القرب كفضايل البدن وهو الثاني والي ما يليه في القرب الي غير البدن كالاسباب

المطيفة بالبدن من المال والاهل والعشيرة والى ما يجمع بين هذه الاسباب الخارجة عن النفس
وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية فهي اذا اربعة انواع النوع الاول وهو اخص
الفضايل النفسية فيرجع حاصلها مع انشعاب اطرافها الى الايمان وحسن الخلق وينقسم الايمان الى
علم المكاشفة وهو العلم بالله وصفاته وملايكته ورسله والى علوم المعاملة وحسن الخلق
ينقسم الى قسمين ترك مقتضي الشهوة والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل في الكف عن
مقتضي الشهوات والاقدام حتى لا يمتنع اصلا ولا يقدم كيف شاء بل يكون اقدامه واحجامه بالميزان
العدل الذي انزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم اذ قال الا تطغوا في الميزان واقيموا
الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان فمن خصى نفسه لترك شهوة النكاح او ترك النكاح مع القدرة
والامن من الافات وترك الاكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر فقد اخسر الميزان ومن
انهمك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في الميزان وانما العدل ان يخلو وزنه وتقديره عن
الطغيان والخسران فيعتدل بذلك كفتا الميزان فاذا الفضايل الخاصية بالنفس المقربة الى الله
تعالى اربعة علم مكاشفة وعلم معاملة وعفة وعدالة ولا يتم هذا في غالب الامر الا بالنوع الثاني
وهي الفضايل البدنية وهي اربعة الصحة والقوة والجمال وطول العمر ولا تتهيا هذه الامور الاربعة
الا بالنوع الثالث وهي النعم الخارجة المطيفة بالبدن وهي اربعة المال والاهل والجاه وكرم العشيرة
ولا ينتفع بشي من هذه الاسباب الخارجة والبدنية الا بالنوع الرابع وهي الاسباب التي تجمع بينها وبين
ما يناسب الفضايل النفسية الداخلة وهي اربعة هداية الله ورشده وتسديده وتاييده فمجموع هذه
النعم ستة عشر اذ قسمناها الى اربعة وقسمنا كل واحدة من الاربعة الى اربعة ويحتاج وهذه الجملة
يحتاج البعض منها الى البعض اما حاجة ضرورية واما نافعة اما الحاجة الضرورية فكحاجة
سعادة الاخرة الى الايمان وحسن الخلق اذ لا سبيل للوصول الى سعادة الاخرة البتة الا بهما فليس
للانسان الا ما سعى وليس لاحد في الاخرة الا ما تزوده من الدنيا وكذلك حاجة الفضايل النفسية
بكسب العلوم وتهذيب الاخلاق الى صحة البدن ضرورية واما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة

هذه النفسية والبدنية الى النعم الخارجة مثل المال والعز والاهل فان ذلك لو عدم ربما تطرق
الخلل الى بعض النعم الداخلة فان قلت فما وجه الحاجة لطريق الحاجة الاخرة الى النعم الخا
من المال والاهل والجاه والعشيرة فاعلم ان هذه الاسباب جارية مجرى الجناح المبلغ
والالة المسهلة للمقصود اما المال فالفقير في طلب العلم اذا لم يكن معه كفايته كساع الى الهيجا بغير
سلاح وكبازي يروم الصيد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم نعم المال الصالح للرجل الصالح وقال نعم
العون على تقوى الله المال وكيف ومن عدم المال صار مستغرق الاوقات في طلب القوت وفي تهيئة اللباس
والمسكن وضرورات المعيشة ثم يتعرض لانواع من الاذى تشغله عن الذكر والفكر والذكر لا تندفع
الا بسلاح المال ثم مع ذلك يحرم فضيلة الحج والزكوة والصدقات وافاضة الخيرات قال بعض الحكماء
وقد قيل له ما النعيم فقال الغنى فاني رايت الفقير لا عيش له قيل له زدنا قال العافية فاني رايت المريض
لا عيش له قيل زدنا قال الامن فاني رايت الخايف لا عيش له قيل زدنا قال الشباب فاني رايت الهرم لا عيش له
وكانه ذكر اشارة الى نعيم الدنيا ولكنه من حيث انه معين على الاخرة فهو نعمة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
من اصبح معافا في بدنه امنا في سربه وعنده قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها واما
الاهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة اليهما اذ قال صلى الله عليه وسلم نعم العون على الدين المراة
الصالحة وقال في الولد اذا مات الرجل انقطع عمله الا من ثلث ولد صالح يدعو له وقد ذكرنا فوايد
الاهل والولد في كتاب النكاح واما الاقارب فمهما كثرت الاولاد والاقارب كانوا له مثل الاعين
والايدي فيتيسر له بسببهم من الامور الدنياوية المهمة في دينه ما لو انفرد به لطال
شغله وكلما يفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين على الدين فهو اذا نعمة واما العز والجاه فبه
يدفع الانسان عن نفسه الذلة والضيم ولا يستغني عن ذلك مسلم فانه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم
يشوش عليه علمه وعمله وفراغه ويشغل قلبه وقلبه راس ماله وانما تندفع هذه الشواغل بالعز
والجاه ولذلك قيل الدين والسلطان توامان وقال الله تعالى ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض
لفسدت الارض ولا معنى للجاه الا ملك القلوب كما لا معنى للغنى الا ملك الدراهم والدنانير ومن ملك

تسخرت له ارباب القلوب لدفع الاذى عنه وكما يحتاج الانسان الى سقف يدفع عنه المطر وجبة تدفع
عنه البرد وكلب يدفع عنه الذيب عن ماشيته يحتاج ايضا الى من يدفع الشر به عن نفسه وعلى
هذا القصد كان الانبياء عليهم السلام الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون
عندهم الجاه وكذلك علماء الدين لا على قصد التناول من خزائنهم والاستكثار في الدنيا باتباعهم ولا تظنن
ان نعمة الله على رسوله صلى الله عليه وسلم حين نصره واكمل دينه واظهره على جميع اعدائه ومكن له في
القلوب حتى اتسع بذلك عزه وجاهه كانت اقل من نعمته حين كان يؤذي ويضرب حتى افتقر الى الهرب
والهجرة فان قلت كرم العشيرة وشرف الاهل هل هي من النعم ام لا قلنا نعم ولذلك قال صلى الله
عليه وسلم الائمة من قريش ولذلك كان نبي الله صلى الله عليه وسلم من اكرم ارومة في نسب آدم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم
تخيروا لنطفكم وقال صلى الله عليه وسلم اياكم وخضراء الدمن فقيل وما خضراء الدمن فقال المراة الحسناء
في منبت السوء فهذا ايضا من النعم ولسنا نعني به الانتساب الى الظلمة وارباب الدنيا بل الانتساب الى شجرة
رسول الله صلى الله عليه وسلم والى ائمة العلماء والى الصالحين والى الابرار المتزينين بالعلم والعمل فان قلت
فما غناء الفضائل البدنية فاقول لا خفاء بشدة الحاجة الى الصحة والى القوة والى طول العمر اذ لا يتم
علم وعمل الا بها ولذلك قال صلى الله عليه وسلم افضل السعادات طول العمر في طاعة الله وانما
يستحقر من جملة ذلك امر الجمال فيقال انه يكفي ان يكون البدن سليما من الامراض الشاغلة عن تحري
الخيرات ولعمري الجمال قليل الغناء ولكنه من الخيرات ايضا اما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها واما
في الآخرة فمن وجهين احدهما ان القبيح مذموم والطباع عنه نافرة وحاجات الجميل الى الاجابة
اقرب وجاهه في الصدور اوسع فكانه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمال والجاه اذ هو نوع
قدرة اذ يقدر الجميل الوجه على تنجز الحاجات لا يقدر عليها القبيح وكل معين على قضاء حاجات الدنيا
فمعين على الآخرة بواسطتها والثاني ان الجمال في الاكثر يدل على فضيلة النفس لان نور النفس اذا تم
اشراقه تادى الى البدن فالمنظر والمخبر كثيرا ما يتلازمان ولذلك عول اصحاب الفراسة في معرفة
مكارم النفس على هيآت البدن وقالوا الوجه والعين مراة الباطن ولذلك يظهر فيه اثر الغضب والسرور

والغم

والغم ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان ما في النفس وقيل ما في الارض قبيح الا ووجهه احسن ما فيه
واستعرض المامون جيشا فعرض عليه رجل قبيح فاستنطقه فاذا هو الكن فاسقط اسمه من الديوان
وقال الروح اذا اشرقت على الظاهر فصباحة او على الباطن ففصاحة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن وقد قال
صلى الله عليه وسلم اطلبوا الخير عند حسان الوجوه وقال عمر رضي الله عنه اذا بعثتم الي رسولا فاطلبوا حسن
الوجه وحسن الاسم وقال الفقهاء اذا تساوت درجة المصلين فاحسنهم وجها اولاهم بالامامة وقال
الله تعالى ممتنا بذلك وزاده بسطة في العلم والجسم ولسنا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة فان ذلك انوثة وانما نعني
به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الاعضاء وتناصف خلقة الوجه بحيث لا
تنبو الطباع عن النظر اليها فان قلت فقد دخلت المال والجاه والنسب والاهل والولد في حيز
النعم وقد ذم الله الجاه والمال وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا العلماء وقال الله تعالى انما اموالكم واولادكم
فتنة لكم وقال ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم وقال علي رضي الله عنه في ذم النسب الناس ابناء ما يحسنون وقيمة
كل امرئ ما يحسنه وقيل المرء بنفسه لا بابيه فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا فاعلم
ان من ياخذ العلوم من الالفاظ المنقولة المؤولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه اغلب ما لم يهتد بنور الله
تعالى الى ادراك الامور على ما هي عليه ثم تنزيل النقل عليه وما ظهر له منها بالتاويل مرة وبالتخصيص اخرى
فهذه نعمة معينة على الآخرة لا سبيل الى جحدها الا ان فيها فتنا ومخاوف فمثال المال مثال الحية التي فيها
ترياق نافع وسم ناقع فان اصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها
النافع كانت نعمة وان اصابها السوادي الغر فهي عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر الذي تحته اصناف
الجواهر واللآلي فمن ظفر به فان كان عالما بالسباحة وطريق الغوص وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر
فقد ظفر بنعمة وان خاضه جاهل بذلك فقد هلك فلذلك مدح الله المال وسماه خيرا ومدحه رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقال نعم العون على تقوى الله المال وكذلك الجاه والعز اذ من الله على رسوله صلى الله
عليه وسلم بان اظهره على الدين كله وحببه في قلوب الخلق وذلك المعنى بالجاه ولكن المنقول في مدحهما قليل
والمنقول في ذم المال والجاه كثير وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه اذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب ومعنى

٣٤

الجاه ملك القلوب وانما كثر هذا وقل ذاك لان الناس اكثرهم جهال بالرقية لحية المال وطريق
الغوص في بحر الجاه فوجب تحذيرهم من ذلك لئلا يهلكوا بسم المال قبل الوصول الى ترياقه ويهلكهم
تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ولو كانا في اعيانهما مذمومين بالاضافة الى كل احد
لما تصور ان ينضاف الى النبوة الملك كما كان لنبينا صلى الله عليه وسلم ولا ان ينضاف اليها الغنى كما كان
سليمان عليه السلام فالناس كلهم صبيان والاموال حيات والانبياء والعارفون معزمون وقد يضر
الصبي ما لا يضر المعزم نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه واصلاحه وقد وجد حية وعلم
انه لو اخذها لاجل ترياقها لاقتدى به ولده واخذ الحية اذا راها ليلعب بها فيهلك فله
غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد فواجب عليه ان يزن غرضه في الترياق بغرضه
في حفظ الولد فان كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضررا كثيرا ولو اخذ الحية
لاخذها الصبي ويعظم ضرره بهلاكه فواجب عليه ان يهرب عن الحية اذا راها ويقبح على الصبي
بالهرب ويقبح صورتها في عينه ويعرفه ان فيها سما قاتلا لا ينجو منه احد ولا يحدثه اصلا بما فيها من
نفع الترياق فان ذلك مما يغره فيقدم من غير علم المعرفة وكذلك الغواص اذا علم انه لو غاص في
البحر براى من ولده لاتبعه وهلك فواجب عليه ان يحذر الصبي ساحل البحر والنهر فان كان
لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما راى اباه يحوم حول الساحل فواجب عليه ان يبعد من
الساحل مع الصبي فلا يقرب منه بين يديه فكذلك الامة في حجور الانبياء كالصبيان الاغبياء
ولذلك قال صلى الله عليه وسلم انما انا لكم مثل الوالد لولده وقال صلى الله عليه وسلم انكم تتهافتون
على النار تهافت الفراش وانا آخذ بحجزكم وحظهم الاوفر في حفظ ابنائهم عن المهالك فانهم لم يبعثوا
الا لذلك وليس لهم حظ الا بقدر القوت فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يمسكوه
بل انفقوه فان الانفاق فيه الترياق وفي الامساك فيه السم ولو فتح للناس باب كسب المال لرغبوا
فيه لمالوا الى سم الامساك ورغبوا عن ترياق الانفاق فلذلك قبحت الاموال والمعنى به تقبيح
امساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون الى الدنيا ولذاتها

فاما

فاما اخذها بقدر الكفاية وصرف الفضل الى الخيرات فليس بمذموم وحق كل مسافر ان لا يحمل الا
بقدر زاده في السفر اذا صمم العزم على ان يختص بما يحمله فاما اذا سمحت نفسه باطعام الطعام وتوسيع
الزاد على الرفقاء فلا باس بالاستكثار وقوله صلى الله عليه وسلم ليكن بلاغ احدكم من الدنيا كزاد الراكب
معناه لانفسكم خاصة والا فقد كان ممن يروي هذا الحديث ويعمل به من ياخذ مائة الف في موضع واحد
ويفرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الاغنياء يدخلون الجنة
بشدة استاذنه عبد الرحمن بن عوف في ان يخرج مما يملكه فاذن له فنزل جبريل عليه السلام وقال
مره بان يطعم المسكين ويكسو العاري ويقري الضيف الحديث فاذا النعم الدنياوية مشوبة قد
امتزج داؤها بدوائها ومرجوها بمخوفها ونفعها بضرها فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته
فله ان يقرب منها متقيا داءها ومن لا فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الاخطار فلا يعدل
بالسلامة شيئا في حق هؤلاء وهم الخلق كلهم الا من عصمه الله وهداه لطريقه فان قلت فما معنى النعم
التوفيقية الراجعة الى الهداية والرشد والتاييد والتسديد فاعلم ان التوفيق لا يستغني عنه
احد وهو عبارة عن التاليف والتلفيق بين ارادة العبد وبين قضاء الله وقدره وهذا يشمل
الشر والخير وما هو سعادة وما هو شقاوة ولكن جرت العادة بتخصيص الاسم بما وافق
السعادة من جملة قضاء الله وقدره كما ان الالحاد عبارة عن الميل فخصص بمن يميل الى الباطل
ولذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة الى التوفيق ولذلك قيل اذا لم يكن عون من الله للفتى فاكثر ما يجني
عليه اجتهاده فاما الهداية فلا سبيل لاحد الى طلب السعادة الا بها لان داعية الانسان قد
يكون مائلة الى ما فيه صلاح آخرته ولكن اذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد
صلاحا فمن اين ينفعه مجرد الارادة فلا فائدة في الارادة والقدرة والاسباب الا بعد الهداية
ولذلك قال تعالى ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى وقال تعالى ولولا فضل الله عليكم
ورحمته ما زكى منكم من احد ابدا ولكن الله يزكي من يشاء وقال صلى الله عليه وسلم ما من احد
يدخل الجنة الا برحمة الله اي بهدايته قيل ولا انت يا رسول الله قال ولا انا والهداية ثلاثة

منازل الاول معرفة طريق الخير والشر المشار اليه بقوله تعالى وهديناه النجدين وقد انعم
الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالعقل على لسان الرسل ولذلك قال تعالى واما ثمود فهديناهم
فاستحبوا العمى على الهدى فاسباب الهدى هي الكتب والرسل وبصائر العقول وهي مبذولة ولا يمنع
منها الا الحسد والكبر وحب الدنيا والاسباب التي تعمي القلوب وان كانت لا تعمي الابصار ومن جملة
المعميات الالف والعادة وحب استصحابها وعنه عبّر بقوله تعالى انا وجدنا اباءنا على
امة وانا على اثارهم مقتدون وعن الحسد والكبر العبارة بقوله تعالى وقالوا لولا نزل هذا
القران على رجل من القريتين عظيم وقوله تعالى ابشرا منا واحدا نتبعه فهذه المعميات هي التي منعت الاهتداء
والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهي التي يمد الله سبحانه العبد بها حالا على حال
وهي ثمرة المجاهدة وحيث قال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وهو المراد بقوله تعالى
والذين اهتدوا زادهم هدى والهداية الثالثة وراء الثانية وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة
والهداية والولاية بعد كمال المجاهدة فيهتدي بها الى ما لا يهتدي اليه بالعقل الذي يحصل به
التكليف وامكان تعلم العلوم به وهو الهدى المطلق وما عداه حجاب له ومقدمات وهو
الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الاضافة وان كان الكل من جهته تعالى ان هدى الله هو الهدى
وهو المسمى حيوة في قوله تعالى اومن كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس وبقوله تعالى
افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه واما الرشد فنعني به العناية الالهية التي تعين
الانسان عند توجهه الى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده ويكون ذلك
من الباطن كما قال تعالى ولقد اتينا ابرهيم رشده من قبل وكنا به عالمين فالرشد عبارة عن
هداية باعثة الى جهة السعادة ومحركة اليها فالصبي اذا بلغ خبيرا بحفظ المال وطريق التجارة
والاستنماء ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنماء لا يسمى رشيدا لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته
عن تحريك داعيته فكم من شخص يقدم على ما يعلم انه يضره فقد اعطي الهداية وميز بها عن الجاهل
الذي لا يدري انه لا يضره ولكن ما اعطي الرشد فالرشد بهذا الاعتبار اكمل من مجرد الهداية الى وجوه

ولكن تعمى القلوب التي في الصدور

الى وجوه الاعمال وهي نعمة عظيمة واما التسديد فهو توجيه حركاته الى صوب المطلوب وتيسيرها
عليه ليشتد في صوب الصواب في اسرع وقت فان الهداية بمجردها لا تكفي بل لا بد من هداية محركة
للداعية وهي الرشد والرشد لا يكفي بل لا بد من تيسير الحركات بمساعدة الاعضاء والالات حتى يتم
المراد بما انبعثت الداعية اليه فالهداية محض التعريف والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ
وتتحرك والتسديد اعانة ونصرة بتحريك الاعضاء في صوب السداد واما التاييد فكانه جامع
للكل فهو عبارة عن تقوية امره بالبصيرة من داخل وبقوة البطش ومساعدة الاسباب
من خارج وهو المراد بقوله تعالى اذ ايدتك بروح القدس ويقرب منه العصمة وهي عبارة
عن جود الهي يسنح في الباطن يتقوى به الانسان على تحري الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع
من باطنه غير محسوس واياه عنى بقوله تعالى ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه
فهذه مجامع النعم ولن تثبت الا بما يخوله الله تعالى من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي
والقلب البصير المتواضع المراعي والمعلم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر
عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذي يصونه عن سفه السفهاء وظلم الاعداء ويستدعي
كل واحد من هذه الاسباب الستة عشر اسبابا وتستدعي تلك الاسباب اسبابا الى ان تنتهي بالاخرة
الى دليل المتحيرين وملجأ المضطرين وذلك رب الارباب ومسبب الاسباب واذا كانت تلك
الاسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها انموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى
وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها

بيان وجه الانموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها

وخروجها عن الحصر والاحصاء اعلم انا جمعنا النعم في ستة عشر ضربا بهاتين هذه النعم
لم نقدر عليها ولكن الاكل احد اسباب الصحة فلنذكر جملة من هذه النعمة من جملة الاسباب التي
بها تتم نعمة الاكل ولا يخفى ان الاكل فعل وكل فعل من هذا النوع فهو حركة فلا بد لها
من جسم متحرك هو آلتها ولا بد لها من قدرة على الحركة ولا بد من ارادة للحركة ولا بد من علم
بالمراد وادراك له ولا بد للاكل من ماكول ولا بد للماكول من اصل منه يحصل ولا بد لمن يصنع

وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة المتاخرة فهذه النعمة الواحدة لو اردنا ان نستقصي الاسباب التي

فيصلحه فلنذكر اسباب الادراك ثم اسباب الايلاد ثم اسباب القوة ثم اسباب الماكول على
سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء الطرف الاول في نعم الله تعالى في خلق اسباب الادراك
اعلم ان الله تعالى خلق النبات وهو اكمل وجودا من الحجر والمدر والحديد والنحاس وساير
الجواهر التي لا تنمو ولا تتغذى فان النبات خلقت فيه قوة يجذب بها الغذاء الى نفسه
من جهة اصله وعروقه التي في الارض وهي له آلات فيها يجتذب الغذاء وهي العروق الدقيقة
التي تراها في كل ورقة يغلظ اصولها ثم تتشعب ولا تزال تستدق وتتشعب الى عروق شعرية
تنبسط في اجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر الا ان النبات مع هذا الكمال ناقص فانه لو اعوزه
غذا يساق اليه ويماس اصله جف ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر فان الطلب
انما يكون بمعرفة المطلوب بالانتقال اليه والنبات عاجز عن ذلك فمن نعمة الله عليك
ان خلق لك آلات الاحساس وآلات الحركة في طلب الغذاء فانظر الى ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس
الخمس التي هي آلة الادراك فاولها حاسة اللمس وانما خلقت لك حتى اذا مسك نار محرقة او سيف
جارح احسست به فتهرب منه وهذا اول حس يخلق للحيوان ولا يتصور ان يكون حيوان الا
له هذا الحس لانه لو لم يحس اصلا فليس بحيوان وانقص درجات الحس ان يحس بما يلاصقه
ويماسه فان الاحساس بما يبعد منه احساس اتم لا محالة وهذا الحس موجود لكل حيوان
حتى الدودة التي في الطين فانها اذا غرزت فيها ابرة انقبضت للهرب لا كالنبات
فان النبات يقطع فلا ينقبض اذ لا يحس بالقطع الا انك لو لم يخلق لك الا هذا الحس لكنت ناقصا
كالدودة لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه
الى نفسك فقط فافتقرت الى حس تدرك به ما بعد عنك فخلق لك الشم الا انك تدرك به الرايحة
ولا تدري انها جاءت من اية ناحية فتحتاج الى ان تطوف كثيرا من الجوانب فربما تعثر
على الغذاء الذي شممت رايحته وربما لم تعثر فتكون في غاية النقصان لو لم يخلق لك الا
هذا فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها الا انه لو لم يخلق

بعينها لك الا هذا لكنت ناقصا اذ لا تدرك ما وراء الجدران والحجب فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب
وتبصر عدوا لا حجاب بينك وبينه وقد لا يمكنك الحجاب الا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب فخلق
لك السمع حتى تدرك به الاصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات ولانك لا تدرك بالبصر الا
شيئا حاضرا واما الغايب فلا يمكنك معرفته الا بكلام ينتظم من حروف واصوات تدرك بالسمع فاشتدت
اليه حاجتك فخلق لك ذلك وميزت بفهم الكلام عن ساير الحيوانات وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس
الذوق اذ يصل الغذاء اليك فلا تدرك انه موافق لك او مخالف فتاكله فتهلك كالشجرة يصب في اصلها
كل مايع ولا ذوق لها فتجتذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق لك في مقدم
دماغك ادراكا آخر يسمى حسا مشتركا تتادى اليه هذه المحسوسات الخمس وتجتمع فيه ولولاه لطال الامر
عليك فانك اذا اكلت شيئا اصفر مثلا فوجدته مرا مخالفا لك فتركته فاذا رايته
مرة اخرى فلا تدري انه مضر ما لم تذقه ثانيا لولا الحس المشترك اذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة فكيف
تمتنع عنه والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم يجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعا
حتى اذا ادرك الصفرة حكم بانه مر فتمتنع عن تناوله ثانيا وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات اذ للشاة
هذه الحواس كلها فلو لم يكن لك الا هذا لكنت ناقصا فان البهيمة يحتال عليها فتوخذ فلا تدري كيف تدفع
الحيلة وكيف تتخلص اذا قيدت وقد تلقي نفسها في البير ولا تدري ان ذلك يهلكها ولذلك قد تاكل البهيمة
ما تستلذه في الحال ويضرها في ثاني الحال فتمرض فتموت اذ ليس لها الا الاحساس بالحاضر فاما ادراك
العواقب فلا فميزك الله سبحانه وتعالى واكرمك بصفة اخرى هي اشرف من الكل وهو العقل فبه تدرك مضرة الاطعمة
ومنفعتها وما يضر في المال وبه تدرك كيفية طبخ الاطعمة وتاليفها واعداد اسبابها فتنتفع بعقلك في الاكل
الذي هو سبب صحتك وذلك اخس فوايد العقل واقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى
ومعرفة افعاله ومعرفة الحكمة في عالمه فعند ذلك تنقلب فايدة الحواس في حقك فتكون الحواس الخمس
كالجواسيس واصحاب الاخبار الموكلين بنواحي المملكة وقد وكلت كل واحدة منها بامر تختص به فواحدة
باخبار الالوان والاخرى باخبار الاصوات والاخرى باخبار الروايح والاخرى باخبار الطعوم والاخرى باخبار

باخبار الحر والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة وغيرها وهذه البرد والجواسيس يقتبسون
الاخبار من اقطار المملكة ويسلمونها الى الحس المشترك والحس المشترك قاعد في مقدمة الدماغ مثل
صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فياخذها وهي مختومة
اذ ليس له الا اخذها وحفظها فاما حقايق ما فيها فلا ولكن اذا صادف القلب العاقل الذي هو
الامير والملك سلم الانهاآت اليه مختومة فيفتشها الملك ويطلع منها على اسرار المملكة ويحكم فيها
باحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الاحكام والمصالح يحرك
الجنود وهي الاعضاء مرة في الطلب ومرة في الهرب ومرة في اتمام التدبيرات التي تعن له فهذه
سياقة نعمة الله عليك في الادراكات ولا تظنن انا استوفيناها فان الحواس الظاهرة هي بعض الادراكات
والبصر واحد من جملة الحواس والعين آلة واحدة له وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها
رطوبات وبعضها اغشية وبعض الاغشية كانها نسج العنكبوت وبعضها كالمشيمة وبعض تلك الرطوبات
كانها بياض البيض وبعضها كانه الجمد ولكل واحدة من الطبقات العشر صفة وصورة وشكل
وهيئة وعرض وتدوير وتركيب لو اختلفت اختلت طبقة واحدة من العشر جملة العشر او صفة
واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الاطباء والكحالون كلهم فهذا في حس واحد
فقس به حاسة السمع وساير الحواس بل لا يمكن ان تستوفى حكم الله تعالى وانواع نعمته في جسم البصر
وطبقاته في مجلدات كثيرة مع ان جملته لا تزيد على جوزة صغيرة فكيف ظنك بجميع البدن وساير
اعضايه وعجايبه فهذه مرامز الى نعم الله تعالى في خلق الادراكات

الطرف الثاني

في اصناف النعم في خلق الارادات اعلم انه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعيد ولم يخلق
لك ميل في الطبع وشوق اليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلا فكم من مريض يرى
الطعام وهو انفع الاشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناوله فيبقى البصر والادراك معطلا
في حقه فاضطررت الى ان يكون لك ميل الى ما يوافقك يسمى شهوة ونفرة عما يخالفك يسمى كراهة
لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة فخلق الله فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكلها بك كالمتقاضي الذي

الذي يضطرك الى التناول حتى تتناول وتتغذى فتبقى بالغذاء وهذا مما يشاركك فيه الحيوان دون
النبات ثم هذه الشهوة لو لم تسكن اذا اخذت مقدار الحاجة اسرفت واهلكت نفسك فخلق الله
تعالى لك الكراهة عند الشبع لتترك الاكل بها لا كالزرع فانه لا يزال يجتذب الماء اذا انصب الى اسافله
حتى يفسد فيحتاج الى آدمي يقدر غذاءه بقدر الحاجة فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء اخرى
وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تاكل فيبقى بالاكل بدنك خلق لك شهوة الوقاع حتى تجامع فيبقى بذلك نسلك
ولو قصصنا عليك عجايب صنع الله تعالى في خلق الرحم وخلق دم الحيض وتاليف الجنين وكيفية خلق
الانثيين والعروق الساكنة اليه من الفقار الذي هو مستقر النطفة وكيفية انصباب ماء المرأة
من الترايب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم الى قوالب يقع النطفة في بعضها فيتشكل
بشكل الذكور ويقع في بعضها فيتشكل بشكل الاناث وكيفية ادارتها في اطوار خلقها مضغة
وعلقة ثم عظما ولحما ودما وكيفية قسمة اجزايها الى راس ورجل وبطن وظهر ويد وساير الاعضاء لقضيت
من انواع نعم الله عليك في مبدا خلقك كل العجب فضلا عما تراه الآن ولكنا لسنا نريد ان نتعرض
الا لنعم الله تعالى في الاكل وحده كيلا يطول الكلام فاذا شهوة الطعام احد ضروب الارادات وذلك
لا يكفيك فانه تاتيك المهلكات من الجوانب فلو لم يخلق فيك الغضب الذي به تدفع بها كل ما
يضادك ولا يوافقك لبقيت عرضة للآفات ولاخذ منك كل ما حصلته من الغذاء فان كل احد يشتهي
ما في يديك فتحتاج الى داعية في دفعه ومقاتلته وهي داعية الغضب ثم هذا لا يكفيك اذ الشهوة
والغضب لا يدعوان الا الى ما يضر وينفع في الحال في المآل فلا يكفي فيه هذه الداعية فخلق الله
تعالى لك ارادة اخرى مسخرة تحت اشارة العقل المعرف للعواقب كما خلق الشهوة والغضب مسخرين
تحت ادراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل اذ كان مجرد المعرفة بان هذه
الشهوة مثلا تضرك لا يغنيك في الاحتراز ما لم يكن لك ميل الى العمل بموجب المعرفة وهذه الارادة
افردت بها عن البهايم اكراما لبني آدم كما افردت بمعرفة العواقب وقد سمينا هذه الارادة
باعثا دينيا وفصلناه ذلك مفصلا في باب الصبر تفصيلا ادنى من هذا الطرف الثالث

وفصلناه في كتاب الصبر

في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة اعلم ان الحس لا الادراك واللذة
لامعنى لها الا الميل الى الطلب او الهرب وهذا لا كفاية فيه ما لم يكن آلة الطلب والهرب فكم من
زمن مشتاق الى شيء بعيد عنه مدرك له لكنه لا يمكنه ان يمشي لفقد رجله او لا يمكنه ان يتناوله لفقد يده
او لفلج او خدر فيها فلا بد من الآلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى
الشهوة طلبا وبمقتضى الكراهة هربا فلذلك خلق الله لك الاعضاء التي تنظر لظاهرها ولا تعرف
اسرارها فمنها ما هو للطلب والهرب كالرجل للانسان والجناح للطير والقوائم للدواب ومنها
ما للدفع كالاسلحة للانسان والقرون للحيوانات وفي هذا يختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها ما
يكثر اعداؤه فيحتاج الى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة ومنها ما خلق له اربع قوائم
ومنها ماله رجلان ومنها ما يدب وذكر ذلك يطول فلنذكر الاعضاء التي بها يتم الاكل فقط ليقاس
عليها غيرها فنقول رؤيتك للطعام من بعد وحركتك اليه لا يكفي ما لم تاخذه فافتقرت الى آلة باطشة
فانعم الله عليك بخلق اليدين وهما طويلتان فتمتد الى الاشياء ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك بها
في الجهات فتمتد وتنثني اليك فلا تكون كخشبة منصوبة ثم جعل رأس اليد عريضا بخلق الكف ثم قسم
الكف بخمسة اقسام هي الاصابع وجعلها في صفين بحيث يكون الابهام في جانب ويدور على الاربعة الباقية
ولو كانت مجتمعة او متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعها وضعا ان بسطتها كانت لك مجرفة
وان ضممتها وثنيتها كانت لك مغرفة وان جمعتها كانت لك آلة للضرب واذا نشرتها ثم قبضتها كانت لك
آلة في القبض ثم خلق لك اظفارا واسند اليها رؤس الاصابع حتى لا تتفتت وحتى تلتقط بها الاشياء الدقيقة
التي لا تحويها الاصابع فتاخذها برؤس اظفارك ثم هب انك اخذت الطعام باليد فمن اين يكفيك هذا ما لم
يصل الى المعدة وهي في الباطن فلا بد وان يكون من الظاهر دهليز اليه حتى يدخل الطعام فيه
فجعل الفم نافذا الى المعدة مع ما فيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذا للطعام الى المعدة ثم ان وضعت
الطعام في الفم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فتحتاج الى طاحونة تطحن بها الطعام طحنا
ثم الطعام تارة يحتاج الى الكسر وتارة يحتاج الى القطع ثم يحتاج بعد ذلك فقسم الانسان الى عريضة طواحن

كالاخراس

كالاضراس والى حادة قواطع كالرباعيات والى ما يصلح للكسر كالانياب ثم جعل مفصل اللحيين
متخلخلا بحيث يتقدم الفك الاسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الاعلى دوران الرحى ولولا ذلك لما
يتيسر الا ضرب احدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا وبذلك لا يتم الطحن فجعل اللحي الاسفل متحركا
حركة دورية واللحي الاعلى ثابتا لا يتحرك فانظر الى عجيب صنع الله تعالى فان كل رحى صنعه الخلق
يثبت منها الحجر الاسفل ويدور الاعلى الا هذه الرحى التي صنعها الله تعالى اذ يدور منها الاسفل على الاعلى
فسبحانه ما اعظم شأنه واتم برهانه واوسع امتنانه ثم هب انك وضعت الطعام في فضاء الفم فكيف تحرك الطعام
الى ما تحت الاسنان او كيف تستجره الاسنان الى نفسها او كيف تتصرف باليد في داخل الفم فانظر
كيف انعم الله عليك بخلق اللسان فانه يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط الى الاسنان
بحسب الحاجة كالمجرفة التي ترد الطعام الى الرحى هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قوة النطق
التي لسنا نطنب بذكرها ثم هب انك قطعت الطعام وطحنته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع الا بان
ينزلق الى الحلق بنوع رطوبة فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها
وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به الطعام وانظر كيف سخرها لهذا الامر فانك ترى الطعام
من بعيد فيثور المسكينة للخدمة وتنصب اللعاب حتى يتحلب اشداقك والطعام بعد بعيد منك
ثم هذا الطعام المطحون المتعجن من يوصله وهو في الفم ولا تقدر على ان تدفعه باليد ولا في المعدة
يد حتى تمتد فتجذب الطعام فانظر كيف هيأ الله المرئ والحنجرة وجعل على رأسها طبقات
تنفتح لاخذ الطعام ثم تنطبق وتنضغط فيهوي حتى ينقلب الطعام بضغطه فيهوي الى المعدة
في دهليز المرئ فاذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لان يصير
لحما ودما وعظما على هذه الهيئة قدرة فيقع فيها الطعام فتحتوي عليه وتغلق عليها الابواب
فلا يزال لابثا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الاعضاء الباطنة
اذ من جانبها الايمن الكبد ومن الايسر الطحال ومن قدام الترب ومن خلف لحم الصلب
فيتعدى الحرارة اليها من تسخين هذه الاعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مايعا

متشابهاً يصلح للنفوذ في تجاويف العروق فعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه
ورقته وهو بعد لا للتغذية فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجاري من العروق وجعل لها
فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهي إلى الكبد والكبد معجون من طينة الدم كأنه دم
وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها
وينتشر في أجزائها حتى يستولي عليه قوة الكبد فتصبغها بلون الدم فيستقر فيها ريثما
يحصل نضج آخر وتحصل له هيئة الدم الصافي لغذاء الأعضاء إلا أن حرارة الكبد هي
التي تنضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ إحدى الفضلتين
شبيهة بالدردي والعكر وهو الخلط السوداوي والأخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء
ولو لم تنفصل عنها هاتان الفضلتان فسد مزاج الأعضاء فخلق الله تعالى المرارة والطحال وجعل لكل
واحد منهما عنقاً ممدوداً إلى الكبد داخلاً في تجويفه فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب
الطحال العكر السوداوي فيبقى الدم صافياً ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لما فيه
من المائية ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية ولا خرج منها متصاعداً إلى الأعضاء
فخلق الله الكليتين وأخرج من كل واحدة عنقاً طويلاً إلى الكبد ومن عجائب حكمة تعالى أن
عنقيهما ليسا داخلين في تجويف الكبد بل متصلان بالعروق الطالعة في حدبة الكبد
حتى تجذب مائيتها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد إذ لو اجتذب قبل ذلك
لغلظ ولم يخرج فإذا انفصلت منها المائية فقد صار الدم صافياً من الفضلات الثلاث
نقياً من كل ما يفسد الغذاء ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقاً ثم قسمها بعد الطلوع وشعب
كل قسم بشعب وانتشر ذلك في البدن من الفرق إلى القدم ظاهراً وباطناً فيجري الدم الصافي
فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الأوراق والأشجار
بحيث لا تدرك بالأبصار فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء ولو حلت بالمرارة آفة لفسد الدم
وحصل من ذلك الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة وإن حل بالطحال آفة

فلم يجذب

فلم يجذب الخلط السوداوي تحدث الأمراض السوداوية كالبهق والجذام والماليخوليا وغير ذلك
وإن لم تندفع المائية نحو الكلى يحدث من ذلك الاستسقاء وغير ذلك ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف
رتب منافع هذه الفضلات الثلاث الخسيسة أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقيها وتقذف بالعنق
الآخر إلى الأمعاء ليحصل بذلك في ثفل الطعام رطوبة مزلقة ويحدث في الأمعاء لذع تحركها
للدفع صعط فينضغط حتى يندفع الثفل ويتزلق ويكون صفرته لذلك وأما الطحال فإنه يحيل
تلك الفضلة إحالة يحصل بها للإخاطة حموضة وقبض ثم يرسل منها في كل يوم شيئاً إلى فم المعدة فيحرك
الشهوة بحموضته وينبهها ويثيرها ويخرج الباقي مع الثفل وأما الكلية فإنها تغتذي بما في
تلك المائية من دم وترسل الباقي إلى المثانة ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعمة الله تعالى في الأسباب
التي أعدت للأكل ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل من واحد
من هذه الأعضاء الرئيسة إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب إلى سائر
البدن التي بواسطتها يصل الروح وكيفية تشعب الأعصاب من الدماغ إلى سائر البدن وبواسطتها
يصل إلى الجنين وكيفية تشعب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل إلى
الغذاء ثم كيفية تركيب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها وباطاتها
وغضاريفها ورطوباتها لطال الكلام وكل ذلك يحتاج إليه للأكل ولأمور أخر سوى الأكل بل في
الآدمي آلات من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة
والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ولا شيء منها إلا حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة
وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق يتحرك أو تحرك عرق ساكن لهلكت يا مسكين
فانظر إلى نعم الله أولاً لتقوى بعدها على الشكر فإنك لا تعرف من نعم الله إلا الأكل وهي أخسها ثم لا تعرف
إلا أنك تجوع فتأكل والحمار أيضاً يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجامع فإذا لم تعرف
أنت من نفسك إلا ما يعرفه الحمار فكيف تقوم بشكر نعم الله تعالى وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز
قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله تعالى فقس على الإجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذراً من التطويل

وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالاضافة الى ما لم نعرفه من نعم الله اقل من قطرة من بحر
من بحر الا ان من علم شيئا من هذا ادرك شمة من معاني قوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها
ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الاعضاء وقوام منافعها وادراكاتها وقواها ببخار لطيف
لطيف يتصاعد من الاخلاط الاربعة ومستقره القلب ويسري في جميع البدن بواسطة
العروق الضوارب فلا ينتهي الى جزء من اجزاء البدن الا ويحدث عند وصوله في ذلك الاجزاء
ما يحتاج اليها من قوة حس وادراك وقوة حركة وغيرها كالسراج الذي يدار في اطراف البيت
فلا يصل الى جزء منه الا ويحصل بسبب وصوله ضوء على اجزاء البيت من خلق الله سبحانه واختراعه
ولكنه جعل السراج سببا له وهذا البخار اللطيف هو الذي يسميه الاطباء الروح ومحله القلب
ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالمسرجة والدم الاسود الذي في باطن القلب له كالفتيلة
والغذاء له كالزيت والحيوة الظاهرة في ساير الاعضاء بسببها اليه كالضوء للسراج في جملة
البيت وكما ان السراج اذا انقطع زيته انطفاء فسراج الروح ايضا ينطفي مهما انقطع
غذاؤه وكما ان الفتيلة قد تحترق وتصير رمادا بحيث لا تقبل الزيت فينطفي السراج مع كثرة
الزيت فكذلك الدم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب
فينطفي مع وجود الغذاء فانه لا يقبل الغذاء الذي يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت
قبولا تتشبث النار به وكما ان السراج تارة ينطفي بسبب من داخله وتارة بسبب من
خارج وهو القتل وكما ان انطفاء السراج بفناء الزيت او بفساد الفتيلة او بريح
عاصف او بتطفية انسان فلا يكون انطفاؤه الا باسباب مقدرة في علم الله
تعالى مرتبة ويكون ذلك بقدر فكذلك انطفاء الروح وكما ان انطفاء السراج هو منتهى
وقت وجوده فيكون ذلك اجله الذي اجل له في ام الكتاب فكذلك انطفاء الروح وكما ان
السراج اذا انطفاء اظلم البيت كله فالروح اذا انطفا اظلم البدن كله وفارقته
انواره التي كان يستفيدها من الروح وهي انوار الاحساسات والقدر والارادات وساير

كانت تستفيدها الروح

٤١

ما يجمعها معنى لفظ الحيوة فهذا ايضا رمز وجيز الى عالم آخر من عوالم الله وعجايب صنعه
وحكمته ليعلم انه لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي فتعسا
لمن كفر بالله تعسا وسحقا لمن كفر بنعمته سحقا فان قلت فقد وصف الروح
ومثلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الروح فلم يزد على ان قال الروح من امر ربي
فلم لم يصفه لهم على هذا الوجه فاعلم ان هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ
الروح فان الروح يطلق لمعاني لا نطول بذكرها ونحن انما وصفنا من جملتها جسما لطيفا
يسميه الاطباء روحا وقد عرفوا صفتها ووجودها وكيفية سريانها في الاعضاء
وكيفية حصول الاحساس والقوى في الاعضاء بها ومواقع السدة حتى اذا خدر
بعض الاعضاء علموا ان الوقوع سدة في مجرى هذا الروح فلا يعالجون موضع الخدر
بل منابت الاعصاب ومواقع السدة فيها ويعالجونها بما يفتح السدة فان هذا الجسم بلطفه
ينفذ في شباك العصب وبواسطته يتادى من القلب الى ساير الاعضاء وما يرتقي اليه
معرفة الاطباء فامره سهل نازل واما الروح التي هي الاصل وهي التي اذا فسدت فسد لها
ساير البدن فذلك سر من اسرار الله لم نصفه ولا رخصة في وصفه الا بان يقال هو امر رباني
كما قال قل الروح من امر ربي والامور الربانية لا تحتمل العقول بل يتحير فيها عقول اكثر
الخلق واما الاوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن ادراك الاصوات
ويتزلزل في مبادي وصفها معاقد العقول المقيدة بالجهة الجوهر والعرض المحبوسة في مضيقها
فلا يدرك بالعقل شيء من وصفها بل بنور آخر اعلى واشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم الولاية
والنبوة نسبته الى العقل نسبة العقل الى الوهم والخيال وقد خلق الله تعالى الخلق اطوارا فكما يدرك الصبي
المحسوسات ولا يدرك المعقولات لان ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ
المعقولات ولا يدرك ما وراءها لان ذلك طور لم يبلغه وانه لمقام شريف ومشرب عذب ورتبة
عالية فيها يلحظ جناب الحق بنور الايمان واليقين وذلك المشرب اعز من ان يكون شريعة لكل وارد

اي موردا

بل لا يطلع واحد بعد واحد ولجناب الحق صدد وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب
وعلى اول الميدان عتبة هي مستقر ذلك الامر الرباني فمن لم يكن له على العتبة جواز
ولا لحافظ العتبة مشاهدة استحال ان يصل الى الميدان فكيف بالانتهاء الى ما وراه من
المشاهدات العالية ولذلك قيل من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه فانى يصادف هذا في خزانة
الاطباء ومن اين للطبيب ان يلاحظه بل المعنى المسمى روحا عند الطبيب بالاضافة الى هذا الامر
الرباني ~~كان من راى الكرة وظن انه راى الملك~~ كالكرة التي يحركها صولجان الملك بالاضافة
الى الملك فمن عرف الروح الطبي فظن انه ادرك الامر الرباني كان كمن راى الكرة فظن انه
انه راى الملك ولا يشك في ان خطائه فاحش وهذا الخطا افحش منه جدا ولما كانت العقول
التي بها يحصل التكليف وبها يدرك مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الامر
لم ياذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ان يتحدث عنه بل امره ان يكلم الناس على قدر عقولهم
ولم يذكر الله سبحانه في كتابه من حقيقة هذا الامر شيئا لكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته
اما نسبته ففي قوله تعالى قل الروح من امر ربي واما فعله فقد ذكره في قوله يا ايتها النفس المطمئنة
ارجعي الى ربك راضية مرضية الاية ولنرجع الان الى الغرض فان المقصود ذكر نعم الله تعالى في
الاكل فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى ~~في الاكل فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى~~ في الات الاكل الطرف

الرابع في نعم الله في الاصول التي منها تحصل الاطعمة وتصير خاصة صالحة لان يصلحها الادمي
بعد ذلك بصنعته اعلم ان الاطعمة كثيرة ولله في خلقها عجايب كثيرة لا تحصى واسباب متوالية
لا تتناهى وذكر ذلك في كل طعام مما يطول فان الاطعمة اما ادوية واما فواكه واما اغذية فلناخذ
الاغذية فانها الاصل ولناخذ من جملتها حبة من البر ولندع ساير الاغذية فنقول اذا وجدت
حبة او حبات فلو اكلتها فنيت وبقيت جايعا فما احوجك الى ان تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف
حتى تفي بتمام حاجتك فخلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما تغتذي به كما خلق فيك فان النبات
انما يفارقك في الحس والحركة ولا يفارقك في الاغتذاء لانه يغتذي بالماء ويجتذب الى باطنه

بواسطة

بواسطة العروق كما تغتذي انت وتجتذب ولسنا نطنب في ذكر الات النبات في اجتذاب
الغذاء الى نفسه ولكن نشير الى غذائه فنقول كما ان الخشب والتراب لا يغذيك بل تحتاج الى
طعام مخصوص فكذلك الحبة لا تغتذي بكل شيء بل تحتاج الى شيء مخصوص بدليل انك لو تركتها
في البيت لم تزد لانه ليس يحيط بها الا الهواء ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها ولو تركتها في الماء لم تزد
ولو تركتها في ارض لا ماء فيها لم تزد بل لا بد من ارض فيها ماء يمتزج ماؤها بالارض فيصير طينا واليه
الاشارة بقوله تعالى فلينظر الانسان الى طعامه انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا ثم لا يكفي
الماء والتراب اذ لو تركت في ارض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء فتحتاج الى تركها في
ارض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء اليها ثم الهواء لا يتحرك اليها بنفسه فتحتاج الى ريح تحرك
الهواء وتضربه بقهر وعنف على الارض حتى ينفذ فيها واليه الاشارة بقوله تعالى وارسلنا الرياح
لواقح وانما القاحها في ايقاع الازدواج بين الهواء والارض ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان في برد مفرط
وشتاء شات فتحتاج الى حرارة الربيع والصيف فقد بان احتياج غذائها الى هذه الاربعة فانظر
الى ما ذا يحتاج كل واحد من هذه الاربعة اذ يحتاج الماء ليساق الى ارض الزراعة الى البحار
والعيون والانهار والسواقي فانظر كيف خلق البحار وفجر العيون واجرى منها الانهار
ثم الارض ربما تكون مرتفعة والمياه لا ترتفع اليها فانظر كيف خلق الغيوم وسلط الرياح عليها
لتسوقها باذنه الى اقطار العالم وهي سحب ثقال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الارض
في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تتفجر منها العيون
تدريجا فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزرع والمواشي ونعم الله تعالى في الجبال
والسحاب والبحار والامطار لا يمكن احصاؤها واما الحرارة فانها لا تحصل بين الماء والارض
وكلاهما باردان فانظر كيف سخر الشمس وكيف خلقها مع بعدها عن الارض مسخنة للارض في وقت
دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة الى البرد والحر عند الحاجة اليه فهذه احدى حكم
الشمس والحكم فيها اكثر من ان تحصى ثم النبات اذا ارتفع عن الارض كان في الفواكه انعقاد وصلابة

فيفتقر الى رطوبة تنضجها فانظر كيف خلق القمر وجعل التخمير من خاصيته الترطيب كما
جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم ولذلك
لو كانت الاشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وساير الكواكب عليها لكانت ناسدة ناقصة
حتى ان الشجرة الحص الصغيرة تفسد اذا اظلتها شجرة كبيرة وتعرف ترطيب القمر بان تكشف
راسك له في الليل فيغلب على راسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام فكما يرطب راسك يرطب الفواكه
ايضا ولا نطول فيما لا مطمع في استقصائه بل نقول كل كوكب في السماء فقد سخر لنوع فايدة
كما سخر الشمس للتسخين والقمر للترطيب فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر
باحصايها ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى ربنا ما خلقت
هذا باطلا وقوله تعالى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين وكما انه ليس في اعضاء بدنك
عضو الا لفائدة فليس في اعضاء بدن العالم عضو الا لفائدة والعالم كله كشخص واحد واحاد اجسامه
كالاعضاء له وهي متعاونة تعاون اعضاء بدنك في جملة بدنك وشرح ذلك يطول ولا ينبغي
ان يظن ان الايمان بان النجوم والشمس والقمر مسخرات بامر الله في امور جعلت اسبابا لها بحكم الحكمة
مخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم بل المنهي عنه في النجوم امران
احدهما ان تصدق بانها فاعلة لاثارها مستقلة بها وانها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها
وقهرها وهذا كفر والثاني تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الاثار التي لا يشترك
كافة الخلق في دركها لانهم يقولون ذلك عن جهل فان علم احكام النجوم كان معجزة لبعض الانبياء ثم اندرس
ذلك العلم فلم يبق الا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطاء فاعتقاد كون
الكواكب اسبابا لاثار تحصل بخلق الله في الارض وفي النبات والحيوان ليس قادحا في الدين
بل هو الحق ولكن دعوى العلم بتلك الاثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدين ولذلك
اذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه فقال لك غيرك اخرج الثوب وابسطه فان
الشمس قد طلع وحمي الهواء لا يلزمك تكذيبه ولا ينكر عليه بحوالته حمي الهواء على طلوع

طلعت

الشمس

الشمس واذا سالت عن تغير وجه انسان فقال ضربتني الشمس في الطريق فاسود وجهي
لم يلزمك تكذيبه وقس بهذا ساير الاثار الا ان الاثار بعضها معلومة وبعضها مجهولة فالمجهول
لا يجوز ادعاء العلم فيها والمعلومة بعضها معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة
بطلوع الشمس وبعضها معلوم لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر فاذا الكواكب ما خلقت
عبثا بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السماء وقرا قوله تعالى
ربنا ما خلقت هذا باطلا الاية ثم قال ويل لمن قرا هذه الاية ثم مسح بها سبلته فله في ملكوت
السموات والافاق والانفس والحيوانات والنبات عجايب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فان
من احب عالما فلا يزال مشغوفا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجايب علمه حبا فكذلك
الامر في عجايب صنع الله فان العالم كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذي بواسطة قلوب
عباده فان تعجبت من تصنيف مصنف فلا تتعجب من المصنف بل من الذي سخر المصنف لتاليفه
بما انعم الله عليه من هدايته وتسديده وتعريفه كما اذا رايت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات
موزونة متناسبة ~~لتاليفه بما انعم الله عليه من هدايته~~ فلا تتعجب من اللعب فانها خرق محركة
لا متحركة ولكن تتعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الابصار فاذا
المقصود ان غذاء النبات لا يتم الا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ولا يتم ذلك الا بالافلاك
التي هي مركوزة فيها ولا يتم الافلاك الا بحركاتها ولا يتم حركاتها الا بملايكة سماوية يحركونها وكذلك
يتمادى ذلك الى اسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيها بما ذكرناه على ما اهملناه ولنقتصر على هذا من ذكر
اسباب غذاء النبات

الطرف الخامس

من نعم الله تعالى في الاسباب الموصلة للاطعمة
اليك اعلم ان هذه الاطعمة كلها لا توجد في كل مكان بل لها شروط مخصوصة لاجلها توجد
في بعض الاماكن دون بعض والناس منتشرون على وجه الارض وقد تبعد عنهم الاطعمة ويحول بينهم
وبينها البحار والبوادي فانظر كيف سخر التجار وسلط عليهم حرص حب المال وشهوة الربح مع انهم

الله تعالى

معناه انه اقتصر وترك التامل في ملكوت السموات على ان يعرف من السماء زرقتها وضوء الكواكب ... وذلك مما يعرفه البهايم ايضا فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته

لا يغنيهم في غالب الامر شيئا بل يجوعون فاما ان تغرق بهم السفن او ينهبها قطاع الطريق
او يموتون في بعض الطريق او البلاد فياخذ السلاطين واحسن احوالهم ان ياخذها ورثتهم
وهم اشد اعدائهم لو عرفوه فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم حتى يقاسوا الشدايد
في طلب الربح ويركبون الاخطار ويغررون بالارواح في ركوب البحار فيحملون الاطعمة
وانواع الحوايج من اقصى الشرق والغرب اليك فانظر كيف علمهم الله صناعة السفن
وكيفية الركوب فيها وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب فيها والحمل في البراري
وانظر الى الابل كيف خلقت والى الفرس كيف امدت بسرعة الحركة والى الحمار كيف جعل صبورا
على التعب والى الجمال كيف تقطع البوادي وتطوي المراحل تحت الاعباء الثقيلة على الجوع و
العطش وانظر كيف سخرهم الله بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا اليك
الاطعمة وساير الحوايج ولو تاملت ما تحتاج اليه الحيوانات من اسبابها وادواتها وعلفها
وما تحتاج اليه السفن فقد خلقه الله تعالى جميع ذلك الى حد الحاجة وفوق الحاجة واحصاء
ذلك غير ممكن ويتمادى ذلك الى امور خارجة عن الحصر نرى تركها طلبا للايجاز **الطرف**
السادس في اصلاح الاطعمة اعلم ان الذي ينبت من الارض من النبات وما
يخلق من الحيوانات لا يمكن ان يقضم ويوكل وهو كذلك بل لا بد في كل واحد من اصلاح وطبخ
وتركيب وتنظيف بالقاء البعض وابقاء البعض الى امور اخر لا تحصى واستقصاء ذلك في كل
طعام طويل فلنعين رغيفا واحدا ولننظر الى ما يحتاج اليه الرغيف الواحد حتى يستدير
ويصلح للاكل من بعد بذر الزارع البذر في الارض فاول ما يحتاج اليه الحراث ليزرع
ويصلح الارض ثم الثور الذي يثير به الارض والفدان وجميع اسبابه ثم بعد ذلك التعهد
بسقي الماء مدة ثم تنقية الارض من الحشيش ثم الفرك والتنقية ثم الطحن ثم العجن ثم الخبز
فتامل عدد هذه الافعال التي ذكرناها وعدد القايمين بذلك وعدد الالات التي يحتاج اليها

وما لم نذكره وعدد الاشخاص ما لم نذكرها

من الحديد

من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر الى اعمال الصناع في اصلاح الات الحراثة والطحن والخبز
من نجار وحداد وغيره وانظر الى الحديد والرصاص والنحاس وانظر كيف خلق الله الجبال والاحجار
والمعادن وكيف جعل الله الارض قطعا متجاورات مختلفة فان فتشت علمت ان رغيفا واحدا لا
يستدير بحيث يصلح للاكل يا مسكين ما لم يعمل عليه اكثر من الف صانع فابتدئ من الملك الذي يزجي السحاب
لينزل الماء الى اخر الاعمال من جهة الملايكة حتى ينتهي النوبة الى عمل الانسان فاذا استدار طلبه قريب
من سبعة الاف صانع كل صانع اصل من اصول الصنايع التي بها تتم مصلحة الخلق ثم تامل كثرة
اعمال الانسان في تلك الالات حتى ان الابرة التي هي آلة صغيرة فايدتها خياطة اللباس الذي يمنع
البرد عنك لا يكمل صورتها من حديدة تصلح للابرة الا بعد ان تمر على يد الابري خمسة وعشرين
مرة يتعاطى في كل مرة منها عملا فلو لم يجمع الله البلاد ولم يسخر العباد وافتقرت الى عمل المنجل الذي
تحصد به البر مثلا بعد نباته لنفد عمرك وعجزت عنه افلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه
من نطفة قذرة لان يعمل هذه الاعمال العجيبة والصنايع الغريبة فانظر الى المقراض مثلا وهما جلمان
متطابقان ينطبق احدهما على الاخر فيتناولان الشيء معا ويقطعانه بسرعة ولو لم يكشف الله
تعالى طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمن قبلنا وافتقرنا الى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثم استخراج
الحديد من الحجر والى تحصيل الالات التي بها يعمل المقراض وعمر الواحد منا عمر نوح واوتي اكمل
العقل لقصر عمره عن استنباط الطريق في اصلاح هذه الالة وحدها فضلا عن غيرها
فسبحان من الحق ذوي الابصار بالعميان وسبحان من منع التبين مع هذا البيان فانظر الان
لو خلا بلدك عن الطحان مثلا وعن الحداد وعن الحجام الذي هو اخس الاعمال او عن الحايك او
واحد من جملة الصناع ماذا يصيبك من الاذى وكيف يضطرب عليك امورك كلها فسبحان من
سخر العباد لبعض نفذت بذلك مشيته وتمت به حكمته ولنوجز القول في هذه الطبقة
ايضا فان الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء **الطرف السابع**
في اصلاح المصلحين اعلم ان هولاء الصناع المصلحين للاطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم

الحاجة الحداد

الجلم الذي يجز به وهما جلمان

وتنافرت طباعهم تنافر الوحش لتبددوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم بالبعض بل كانوا
كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ولا يجمعهم غرض واحد فانظر كيف الف الله بين قلوبهم وسلط
الانس والمحبة عليهم ولو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم فلاجل الالف وتعارف
الارواح اجتمعوا وايتلفوا وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة ورتبوا
الاسواق والخانات وساير اصناف البقاع مما يطول احصاوه ثم هذه المحبة تزول باغراض
يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها في جبلة الانسان الغيظ والحسد والمنافسة وذلك يودي
الي التقاتل والتنافر فانظر كيف سلط الله السلاطين وامدهم بالقوة والعدة والاسباب
والقي رعبهم في قلوب الرعايا حتى اذعنوا لهم طوعا وكرها وكيف هدي السلاطين الي طريق
اصلاح البلاد حتى رتبوا اجزاء البلد كانها اجزاء شخص واحد يتعاونون علي غرض واحد ينتفع
البعض منها بالبعض فرتبوا الروسا والقضاة والسجن وزعماء الاسواق واضطروا الخلق الي قانون
العدل والزموهم التساعد والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب والخباز وساير اهل
البلد وكلهم ينتفعون بالحداد وصار الحجام ينتفع بالحراث والحراث بالحجام وينتفع كل واحد
منهم بالاخر بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه كما يتعاون
جميع اعضاء البدن فينتفع بعضها ببعض وانظر كيف بعث الله الانبياء صلوات الله عليهم حتى
اصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا وعرفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق
وقوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من احكام الامامة والسلطنة واحكام الفقه ما اهتدوا
به الي اصلاح الدنيا فضلا عما ارشدهم اليه من اصلاح الدين وانظر كيف اصلح الله الانبياء بالملايكة
وكيف اصلح الله الملايكة بعضهم ببعض الي ان ينتهي الي الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين
الله تعالى فالخباز يخبز العجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلحه بالحصاد و
الحداد يصلح الات الحراثة والنجار يصلح الات الحداد وكذا جميع ارباب الصناعات المصلحين
لالات الاطعمة والسلطان يصلح الصناع والانبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم

والعلماء يصلحون السلاطين والملايكة يصلحون الانبياء الي ان ينتهي الي حضرة الربوبية التي
هي ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشا كل ترتيب وتاليف وكل ذلك نعم من رب الارباب
ومسبب الاسباب ولولا فضله وكرمه اذ قال والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا لما اهتدينا
الي معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ولولا عزله ايانا عن ان نطمح بعين الطمع الي الا
حاطة بكنه نعمه لتشوفنا الي الاحاطة والاستقصاء ولكنه جل جلاله عزلنا بحكم القهر
والقدرة فقال عز من قايل وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فان تكلمنا باذنه انبسطنا
وان سكتنا بقهره انقبضنا اذ لا معطي لما منع ولا مانع لما اعطي لانا في كل لحظة من لحظات
العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار لمن الملك اليوم لله الواحد القهار
فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار واسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الاعمار

الطرف الثامن في بيان الله تعالى في خلق الملايكة ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في الملايكة
باصلاح الانبياء وهدايتهم وتبليغ الوحي اليهم ولا تظنن انهم مقتصرون في افعالهم علي ذلك القدر
بل طبقات الملايكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلث طبقات الملايكة الارضية
والسماوية وحملة العرش فانظر كيف حملهم وكلهم الله بك فيما يرجع الي الاكل والغذاء الذي
ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية والارشاد وغيرهما فاعلم ان كل جزء من
اجزاء بدنك من اجزاء النبات لا يغتذي الا بان يوكل به سبع من الملايكة هو اقله الي عشرة
الي مائة الي ما وراء ذلك وبيانه ان معني الغذاء ان يقوم جزء من الغذاء مقام جزء قد تلف وذلك
الغذاء يصير دما في اخر الامر ثم يصير لحما وعظما فاذا صار لحما وعظما تم اغتذاوك واللحم
واللحم اجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار فهي لا تتحرك بانفسها ولا تتغير بانفسها ومجرد الطبع
لا يكفي في ترددها في اطوارها كما ان البر بنفسه لا يصير طحينا ثم عجينا ثم خبزا مستديرا
ثم مطبوخا الا بصناع فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما وعظما وعروقا وعصبا الا بصناع
والصناع في الباطن هم الملايكة كما ان الصناع في الظاهر هم اهل البلد وقد اسبغ الله عليكم نعمه ظاهرة

وباطنة فلا ينبغي ان تغفل عن نعمة الباطن فاقول لابد من ملك يجذب الغذا الي جوار اللحم
والعظم فان الغذا لا يتحرك بنفسه ولابد من ملك آخر يمسك الغذا في جواره ولابد من ثالث
يخلع عليه صورة الدم ولابد من رابع يكسوه صورة اللحم او العظم او العرق ولابد من خامس
يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذا ولابد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم
وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلا ولابد من سابع يرعى المقادير في الالصاق
فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته وبالعريض ما لا يزيل عرضه وبالمجوف ما لا يبطل تجويفه
ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فانه لو جمع مثلا من الغذا على انف الصبي ما يجمع على فخذه
لكبر انفه وبطل تجويفه وتشوهت خلقته وصورته بل ينبغي ان يسوق الي الاجفان مع رقتها
والي الحدقة مع صفائها والي الافخاذ مع غلظها والي العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها
من حيث القدر والشكل والا لبطلت الصورة وربما عظم بعض المواضع وضعف بعض المواضع بل
لو لم يراع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيط فساق الي راس الصبي وساير بدنه من الغذا ما
ينمو به الا احدى الرجلين مثلا لبقيت تلك الرجل كما كانت في حد الصغر وكبر جميع البدن
فكنت ترى شخصا في ضخامة رجل وعليه رجل واحدة كانها رجل طفل فلا ينتفع بنفسه البتة فرعاية
هذه الهندسة في القسمة مفوض الي ملك من الملايكة ولا تظنن ان الدم بطبعه يهتدي الي
تشكيل نفسه فان محيل هذه الامور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول فهؤلاء هم الملايكة الارضية
وقد شغلوا بك وانت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد وهم يصلحون الغذا في باطنك ولا خبر
لك منهم وذلك في كل جزء من اجزائك التي لا تتجزى حتى يفتقر بعض الاجزاء كالعين والقلب
الي اكثر من ماية ملك لكن تركنا تفصيل ذلك والملايكة الارضية مددهم من الملايكة السماوية
على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهها الا الله ومدد الملايكة السماوية من حملة العرش
والمنعم على جميعهم بالتاييد والهداية والتسديد القدوس المهيمن المتفرد بالملك والملكوت
والعز والجبروت جبار السموات والارض مالك الملك ذو الجلال والاكرام والاخبار الواردة

في الملايكة

في الملايكة المقربين الموكلين بالسموات والارضين واجزا النبات والحيوانات
حتى كل قطرة وحتى كل سحاب ينجر جانب الي جانب اكثر من ان تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد به
فان قلت فهلا فوضت هذه الافعال الي ملك واحد ولم افتقرت الي سبعة والحنطة
ايضا تحتاج الي من يطحنها اولا ثم الي من يميز عنه النخالة ويدفع الفضل ثانيا ثم الي من يصب
الما عليها ثالثا ثم الي من يعجن رابعا ثم الي من يقطعها كرات مدورة خامسا ثم الي من يرققها
رغفانا عريضة سادسا ثم الي من يلصقها بالتنور سابعا ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد
ويستقل به فهلا كانت اعمال الملايكة باطنا كاعمال الانس ظاهرا فاعلم ان خلقة الملايكة
تخالف خلقة الانس وما من واحد منهم الا وهو وحداني الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة
ولا يكون في كل واحد منهم الا فعل واحد واليه الاشارة بقوله تعالى وما منا الا له مقام فلذلك
ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم في تعين مرتبة كل واحد وفعله عليه مثال الحواس الخمس فان
البصر لا يزاحم السمع في ادراك الاصوات ولا الشم يزاحمهما ولا هما ينازعان الشم وليس كاليد
والرجل فانك قد تبطش باصابع الرجل بطشا ضعيفا فتزاحم به اليد وقد تضرب غيرك براسك فتزاحم
اليد التي هي آلة الضرب ولا كالانسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والخبز فان
هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الانسان واختلاف دواعيه
فانه ليس وحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل ولذلك ترى الانسان يطيع الله مرة ويعصيه
اخرى لاختلاف دواعيه وصفاته وذلك غير ممكن في طباع الملايكة بل هم مجبولون على الطاعة
لا مجال للمعصية في حقهم فلا جرم لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون يسبحون الليل
والنهار لا يفترون فالراكع منهم راكع ابدا والساجد منهم ساجد ابدا والقايم قايم ابدا لا اختلاف
في افعالهم ولا فتور ولكل واحد منهم مقام معلوم لا يتعداه وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال
للمخالفة فيهم يمكن ان تشبه بطاعة اطرافك فانك مهما جزمت الارادة بفتح الاجفان لم يكن للجفن
الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومعصيتك اخرى بل كانه منتظر لامرك ونهيك ينفتح وينطبق

متصلا ذلك بالنار تكل فهذا يشبهه من وجه ولكن يخالفه من وجه اذ الجفن لا علم له بما يصدر
منه من الحركة فتحا واطباقا وللملائكة احياء عالمون بما يفعلون فاذا هذه هي نعمة الله عليك
في الملائكة الارضية والسماوية وحاجتك اليها في غرض الاكل فقط دون ما عداه من الحركات
والحاجات كلها فانا لم نطول بذكرها فهذه طبقة اخرى من طبقات النعم ومجامع الطبقات
لا يمكن احصاؤها فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات فاذا قد اسبغ الله عليك نعمه ظاهرة
وباطنة ثم قال تعالى وذروا ظاهر الاثم وباطنه فترك باطن الاثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء
الظن والبدعة واضمار السوء للناس الى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة
وترك الاثم الظاهر ~~مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدعة~~ بالجوارح شكر للنعم الظاهرة
بل اقول كل من عصى الله تعالى ولو في تطريفة واحدة بان فتح جفنه مثلا حيث يجب غض
البصر فقد كفر كل نعمة لله عليه في السموات والارضين وما بينهما فان كل ما خلق الله تعالى الملائكة
والسموات والحيوان والنبات بجملته نعمة على كل واحد من العباد قد تم به انتفاعه وان
انتفع غيره ايضا به فان لله تعالى في كل تطريفة نعمتين في نفس الجفن اذ خلق تحت كل جفن
عضلات ولها اوتار ورباطات متصلة باعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن
الاعلى وارتفاع الجفن الاسفل وعلى كل جفن شعر اسود ونعمة الله في سواد تلك الشعر
انها تجمع ضوء العين اذ البياض يفرق الضوء والسواد يجمعه ونعمة الله في ترتيبها صفا
واحدا ان يكون مانعا للهوام من الدبيب الى باطن العين ومتشبثا بالاقذاء التي تتناثر
في الهواء ولله عز وجل في كل شعرة منها نعمتان من حيث لين اصلها ومع اللين قوام
نصبها وله في اشتباك الاهداب نعمة اعظم من الكل وذلك ان غبار الهواء قد يمنع من
فتح العين ولو طبق لم يبصر فيجمع الاجفان مقدار ما يتشابك الاهداب فينظر من وراء
شباك الشعر فيكون شباك الشعر مانعا من وصول القذى وغير مانع من امتداد
البصر من داخل ثم ان اصاب الحدقة غبار فقد خلق اطراف الاجفان حادة منطبقة

والارضين صح
الارض صح

على

على الحدقة كالمصقلة للمرآة فيطبقها مرة او مرتين وقد انصقلت الحدقة من الغبار وخرجت
الاقذاء الى زوايا العين والاجفان والذباب لما لم يكن لحدقته جفن خلقت له يدان
فتراه على الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما عن الغبار واذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل
النعم لافتقار ذلك الى تطويل يزيد على اصل هذا الكتاب فلعلنا نستانف له كتابا مقصودا فيه
ان امهل الزمان وساعد التوفيق نسميه عجائب صنع الله فلنرجع الى غرضنا فنقول فقد كفر
بفتح العين نعمة الله في الاجفان ولا تقوم الاجفان الا بالعين ولا العين الا بالرأس ولا الرأس الا بجميع
البدن ولا البدن الا بالغذاء ولا الغذاء الا بالماء والارض والهواء والمطر والغيم والشمس
والقمر ولا يقوم شيء من ذلك الا بالسموات ولا السموات الا بالملائكة فان الكل كالشيء الواحد
يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط اعضاء البدن بعضها ببعض فاذا فقد كفر كل نعمة لله في الوجود
من منتهى الثريا الى منتهى الثرى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جماد
الا ويلعنه ولذلك ورد في الاخبار ان البقعة التي يجتمع فيها الناس اما ان تلعنهم اذا تفرقوا او
تستغفر لهم ولذلك ورد ان العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر وان الملائكة يلعنون
العصاة في الفاظ كثيرة لا يمكن احصاؤها وكل ذلك اشارة الى ان العاصي بتطريفة واحدة
جنى على جميع ما في الملك والملكوت وقد اهلك نفسه الا ان يتبع السيئة الحسنة تمحوها فيتبدل
اللعن بالاستغفار فعسى الله ان يتوب عليه ويتجاوز عنه واوحى الله تعالى الى ايوب عليه
السلام ما من عبد لي من الآدميين الا ومعه ملكان فاذا شكرني على نعمائي قال الملكان اللهم زده نعما على
فانك اهل الحمد والشكر ونحن من الشاكرين قربنا فكفى بالشاكرين علو رتبة عندي اني اشكر
شكرهم وملائكتي يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تبكي عليهم ولما عرفت ان في كل طرفة
عين نعما كثيرة فاعلم ان في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين اذ بانبساطه يخرج
الدخان المحترق من القلب ولو لم يخرج لهلك وبانقباضه يجمع روح الهواء الى القلب ولو
سد متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته وهكذا اليوم والليلة اربع

وفي بعض النسخ لعلنا فهو لغة في لعل
الا بعينين صح
تجمع خ
فيتبدل صح
فتتبدل اللعنة
ان اشكر صح
تطريفة نعما صح

اربع وعشرون ساعة وفي كل ساعة قريب من الف نفس قريب من عشر لحظات فعليك
في كل لحظة الاف الاف نعمة في كل جزء من اجزاء بدنك بل في كل جزء من اجزاء العالم فانظر هل
يتصور احصاء ذلك ام لا ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله عز وجل وان تعدوا نعمة
الله لا تحصوها قال الهي كيف اشكرك وكل في كل شعرة من جسدي نعمتان ان لينت اصلها وان
طمست راسها ولذلك ورد في الاثر من لم يعرف نعمة الله عليه الا في مطعمه ومشربه فقد قل علمه
وحضر عذابه وجميع ما ذكرناه يرجع الى المطعم والمشرب فاعتبر بها يا اولي الابصار
ما سواه من النعم به فان البصير لا يقع عينه في العالم على شيء ولا يلم خاطره الا بموجود الا ويتحقق
ان لله تعالى فيه نعمة عليه فلنترك الاستقصاء والتفصيل فانه طمع في غير مطمع بيان

السبب الصارف للخلق عن الشكر اعلم انه لم يقصر بالخلق
عن شكر النعمة الا الجهل والغفلة فانهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر
النعمة الا بعد معرفتها ثم انهم ان عرفوا نعمة ظنوا ان الشكر عليها ان يقول احدهم بلسانه الحمد لله
الشكر لله ولم يعرفوا ان معنى الشكر ان يستعمل النعمة في اتمام الحكمة التي اريدت بها وهي طاعة
الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين الا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان
اما الغفلة عن النعم فلها اسباب واحد اسبابها ان الناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق
به ويسلم لهم في جميع احوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لانها عامة للخلق مبذولة لهم
في جميع احوالهم فلا يرى كل واحد منهم لنفسه اختصاصا بها فلا يعد ذلك نعمة فلا تراهم يشكرون
الله على روح الهواء ولو اخذ بمخنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في بيت
حمام فيه هواء حار او في بئر فيه هواء ثقيل برطوبة الماء لماتوا غما فان ابتلي واحد منهم
من ذلك ثم نجا منه ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله تعالى عليه وهذا غاية الجهل اذ صار شكرهم
موقوفا على ان تسلب عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الاحوال والنعمة في جميع الاحوال اولى
بان تشكر من النعمة في بعضها فلا ترى البصير يشكر صحة بصره الا ان يعمى عينه فعند ذلك
الى ان

لواعيد

لواعيد عليه بصره لاحس به وشكره وعده نعمة ولما كانت رحمة الله واسعة عمم الخلق
بها وبذلك في جميع الاحوال لم يعدها الجاهلون نعمة وهذا الجاهل مثل العبد السوء حقه
ان يضرب دائما حتى اذا ترك ضربه ساعة تقلد بذلك منة فان ترك ضربه على الدوام غلبه
البطر وترك الرضا والناس لا يشكرون الا المال الذي يتطرق الاختصاص اليه من حيث الكثرة
والقلة وينسون جميع نعم الله عليهم كما شكى بعضهم فقره الى بعض ارباب البصائر واظهر شدة
اغتمامه بذلك فقال له ايسرك انك اعمى ولك عشرة الاف درهم فقال لا فقال ايسرك انك اخرس
ولك عشرة الاف درهم فقال ايسرك انك مجنون ولك عشرة الاف درهم فقال لا فقال ايسرك
انك اقطع اليدين والرجلين ولك عشرون الف درهم فقال لا فقال له اما تستحيي ان تشكو مولاك
وله عندك عروض بخمسين الفا وحكي ان بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فراى في المنام
كان قائلا يقول له تود انا انسيناك سورة الانعام وان لك الف دينار قال لا قال فسورة هود
قال لا قال فسورة يوسف قال لا قال فمعك قيمة مائة الف دينار وانت تشكو فاصبح وقد
سري عنه ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء وفي يده كوز ماء يشربه فقال له عظني فقال
لو لم تعط هذه الشربة الا ببذل جميع اموالك والا بقيت عطشان فهل كنت تبذله قال نعم
فقال ولو لم تعطها الا بملكك كله فهل كنت تتركه قال نعم قال فلا تفرح بملك لا يساوي شربة ماء فبهذا
يتبين ان نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش اعظم من ملك الارض كلها واذا كانت
الطباع مائلة الى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة وقد ذكرنا النعم العامة فلنذكر
اشارة وجيزة الى النعم الخاصة فنقول ما من عبد الا ولو امعن النظر في احواله لراى من الله نعمة
او نعما كثيرة تخصه لا يشاركه فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه
فيها احد وذلك يعترف به كل عبد في ثلاثة امور في العقل والخلق والعلم اما العقل فما من
عبد لله تعالى الا وهو راض عن الله في عقله يعتقد انه اعقل الناس وقل ما يسال الله العقل وان من شرف
العقل ان يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتصف فاذا كان اعتقاده انه اعقل الناس فواجب عليه

ان يشكر الله تعالى لانه ان كان كذلك فالشكر واجب عليه وان لم يكن ولكنه يعتقد انه كذلك فهو نعمة
في حقه فمن وضع كنزا تحت الارض فهو يفرح به ويشكر عليه فان اخذ الكنز من حيث لا يدري
فيبقى شكره فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لانه في حقه كالباقي واما الخلق فما من عبد
الا وهو يرى من غيره عيوبا يكرهها واخلاقا يذمها وانما يذمه من حيث انه يرى نفسه بريئا
عنها فاذا لم يشتغل بذم الغير فينبغي ان يشتغل بشكر الله اذ حسن خلقه وابتلى غيره بالخلق السيء
واما العلم فما من عبد احد الا ويعرف من بواطن نفسه وخفايا افكاره ما هو منفرد به
ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه احد من الخلق لافتضح فكيف لو اطلع عليه الناس كافة فاذا
لكل عبد علم بامر خاص لا يشاركه فيه احد من عباد الله فلم لا يشكر ستر الله الجميل الذي ارسله
على وجه مساويه فاظهر الجميل وستر القبيح واخفى ذلك عن اعين الخلق وخصص علمه به
حتى لا يطلع عليه احد فهذه ثلثة امور من النعم خاصة يعترف بها كل عبد اما معرفة
مطلقة واما في بعض الامور فلننزل عن هذه الطبقة الى اخرى اعم منها قليلا فنقول
ما من عبد الا وقد رزقه الله في صورته او شخصه او اخلاقه او صفاته او اهله او ولده
او مسكنه او بلده او رفيقه او اقاربه او عزه او جاهه او في ساير محابه امورا لو
سلب ذلك منه واعطي ما خص به غيره لكان لا يرضى به وذلك مثل ان جعله مؤمنا لا كافرا
وحيا لا جمادا وانسانا لا بهيمة وذكرا لا انثى وصحيحا لا مريضا وسليما لا معيبا فان كل هذه خصائص
وان كان فيها عموم ايضا فان هذه الاحوال لو بدلت باضدادها لم يرض بذلك بل له امور لا يبدلها
باحوال الادميين ايضا وذلك اما ان يكون بحيث لا يبدلها بما خص به احد من الخلق او لا يبدله
بما خص به الاكثر فاذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فاذا حاله احسن من غيره فان كان لا يعرف
شخصا يرتضي لنفسه حاله بدلا عن حال نفسه اما على الجملة واما في امر خاص فاذا لله
عليه نعمة ليست له على احد من عباد الله سواه فان كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم
دون البعض فلينظر الى عدد المغبوطين عنده فانه لا محالة يراهم اقل بالاضافة الى غيرهم

فيكون

فيكون من دونه في الحال اكثر بكثير ممن هو فوقه فما باله ينظر الى من فوقه ليزدري
نعمة الله على نفسه ولا ينظر الى من دونه ليستعظم نعم الله تعالى عليه وما باله لا يسوي
دنياه بدينه اليس اذا لامته نفسه على سيئة يقارفها يعتذر اليها بان في الفساق
كثرة فينظر ابدا في الدين الى من دونه لا الى من فوقه فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك
فاذا كان حال اكثر الخلق في الدين خيرا منه وحاله في الدنيا خير من حال اكثر الخلق
فكيف لا يلزمه الشكر ولهذا قال صلى الله عليه وسلم من نظر في الدنيا الى من هو فوقه كتبه الله
صابرا شاكرا ومن نظر في الدنيا الى من فوقه وفي الدين الى من هو دونه لم يكتبه الله
الله صابرا ولا شاكرا فاذا كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما خص به وجد لله تعالى
على نفسه نعما كثيرة لا سيما من خص بالسنة والايمان والعلم والقران ثم الفراغ
والصحة والامن وغير ذلك ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من لم يستغن بايات الله فلا اغناه
الله وهذا اشارة الى نعمة العلم فقال صلى الله عليه وسلم ان القران هو الغنى الذي لا غنى
بعده ولا فقر معه وقال صلى الله عليه وسلم من اتاه الله القران فظن ان احدا اغنى منه فقد استهزا
بايات الله وقال صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقران وقال صلى الله عليه وسلم
كفى باليقين غنى وقال بعض السلف يقول الله تعالى ان عبدا اغنيته عن ثلثة لقد تممت عليه
نعمتي عن سلطان ياتيه وطبيب يداويه وعما في يد اخيه وعبر الشاعر عن هذا فقال
اذا القوت تاتى لك والصحة والامن واصبحت اخا حزن فلا فارقك الحزن بل ارشق العبارات
وافصح الكلام كلام من افصح من نطق بالضاد حيث عبر عليه السلام عن هذا المعنى فقال
من اصبح معافا في بدنه امنا في سربه عنده قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها
ومهما تاملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتالمون من امور وراء هذه الثلاث مع
انها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الايمان الذي به وصولهم الى النعيم المقيم
والملك العظيم بل البصير ينبغي ان لا يفرح الا بالمعرفة واليقين والايمان بل نحن نعلم من العلماء

من لو سلم اليه جميع ما دخل تحت قدرة الله ملوك الارض من الشرق الي الغرب من اموال
واتباع وانصار وقيل له خذ هذا عوضا عن علمك بل عن عشر عشير علمك لم ياخذه وذلك
لرجائه ان نعمة العلم تفضي به الي جوار الله تعالي في الاخرة بل لو قيل له في الاخرة ما ترجوه بكماله
فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلا عن التلذذ بالعلم في الدنيا والفرح به لكان لا ياخذ لعلمه
بان لذة العلم دائمة لا تنقطع وثابتة لا تسرق ولا تغصب ولا تنافس فيها وانها صافية
لا كدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة ومكدرة ومشوشة ولا يفي مرجوها بمخوفها ولا لذاتها
بالمها ولا فرحها بغمها هكذا كانت الي الان وهكذا يكون الي اخر ما بقي الزمان اذ ما خلقت
لذات الدنيا الا لتجلب العقول الناقصة وتخدع حتي اذا انخدعت وتقيدت بها ابت عليهم
واستعصت كالمراة الجميلة ظاهرها تتزين للشاب الشبق الغر حتي اذا تقيد بها قلبه
استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في عناء دايم وتعب قايم وكل ذلك لاغتراره
بلذة النظر اليها في لحظة ولو عقل غض بصره واستهان بتلك اللذة سلم جميع العمر فهكذا
وقعت ارباب الدنيا في شبكات الدنيا وحبائلها ولا ينبغي ان تقول المعرض عن الدنيا متالم
بالصبر فان المقبل عليها ايضا متالم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع المقصود
عنها والم المعرض يفضي الي لذة في الاخرة والم المقبل يفضي الي الالم في الاخرة فليقرا المعرض
عن الدنيا علي نفسه قوله تعالي ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تالمون فانهم يالمون كما
تالمون وترجون من الله ما لا يرجون فاذا انسد طريق الشكر عن الخلق لجهلهم بضروب النعم
الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة فان قلت فما علاج هذه القلوب الغافلة
حتي تشعر بنعمة الله نعالي عسي ان تشكر فاقول اما القلوب البصيرة فعلاجها التامل فيما رمزنا
اليه من اصناف نعم الله تعالي العامة واما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة الا اذا خصتها
او اشعرت بالبلاء معه فسبيله احدها ان ينظر الي من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية
اذ كان يحضر كل يوم دار المرضي والمقابر والمواضع التي تقام فيها الحدود فكان يحضر دار المرضي

يشاهد

يشاهد انواع بلاء الله عليهم ثم يتامل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة
عند شعوره ببلاء المرضي ويشاهد الجناة الذين يقتلون ويقطع اطرافهم ويعذبون بانواع العذاب
ليشكر الله تعالي علي عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالي علي نعمة الامن ويحضر
المقابر فيعلم ان احب الاشياء الي الموتي ان يردوا الي الدنيا ولو يوما واحدا اما من عصي فليتدارك واما من
اطاع الله فليزيد في طاعته فان يوم القيامة يوم التغابن فالمطيع مغبون اذ يري جزاء طاعته
فيقول كنت اقدر علي اكثر من هذه الطاعات فما اعظم غبني اذ ضيعت بعض الاوقات في المباحات
واما العاصي فغبنه ظاهر فاذا شاهد المقابر وعلم ان احب الاشياء اليهم ان يكون قد بقي لهم من العمر
ما بقي له فيصرف بقية العمر الي ما يشتهي اهل القبور العود لاجله ليكون ذلك معرفة لنعمة الله في بقية
العمر بل في الامهال في كل نفس من الانفاس واذا عرف تلك النعمة شكرها بان يصرف العمر الي ما خلق العمر
لاجله وهو التزود من الدنيا للاخرة فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله فعساها
تشكر ولقد كان الربيع بن خثيم مع تمام استبصاره يستعين بهذا الطريق تاكيدا للمعرفة فكان
قد حفر في داره قبرا فيضع غلا في عنقه ويضطجع في لحده ثم يقول رب ارجعون لعلي اعمل صالحا
ثم يقوم ويقول يا ربيع قد اعطيت ما سالت فاعمل قبل ان تسال الرجوع فلا ترد ومما ينبغي ان تعالج
بها القلوب البعيدة عن الشكران تعرف ان النعمة اذا لم تشكر زالت ولم تعد ولذلك قال الفضيل عليكم
بمداومة الشكر علي النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت اليهم وقال بعض السلف النعم وحشية
فقيدوها بالشكر وفي الخبر ما عظمت نعمة الله علي عبد الا كثرت حوائج الناس اليه فمن تهاون عرض
تلك النعمة للزوال وقال تعالي ان الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بانفسهم فهذا تمام هذا الركن

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك

فيه الصبر والشكر ويرتبط احدهما بالاخر بيان اجتماع الصبر والشكر علي شي
واحد لعلك تقول ما ذكرته في النعم اشارة الي ان لله في كل موجود نعمة وهذا يشير الي ان البلاء
لا وجود له اصلا فما معني الصبر اذا لم يكن موجودا فما معني الشكر علي البلاء وقد ادعي مدع ان

انا نشكر علي البلا افضلا من النعمة الشكر علي النعمة فكيف يتصور الشكر علي البلاء وكيف نشكر
علي ما يصبر عليه والصبر يستدعي الما والشكر يستدعي فرحا فهما متضادان وما معني ما ذكرتموه
من ان لله تعالي في كل ما اوجده نعمة علي عباده فاعلم ان البلاء موجود كما ان النعمة
موجودة والقول باثبات النعمة يوجب القول باثبات البلاء لانهما متضادان ففقد
البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ولكن قد سبق ان النعمة تنقسم الي نعمة مطلقة من كل وجه
اما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله واما في الدنيا فبالايمان وحسن الخلق
وما يعين عليهما والي نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذي يصلح الدين من وجه
ويفسده من وجه فكذلك البلاء ينقسم الي مطلق ومقيد اما المطلق في الآخرة فالبعد من الله
اما مدة واما ابدا واما في الدنيا فالكفر والمعصية وسوء الخلق وهي التي تفضي الي البلاء المطلق
واما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وساير انواع البلاء التي لا تكون
بلاء في الدين بل في الدنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة اما البلاء المطلق في الدنيا فقد
لا يومر بالصبر عليه لان الكفر بلاء ولا معني للصبر وكذا الصبر المعصية بل حق الكافر
ان يترك كفره وكذا حق العاصي نعم الكافر قد لا يعرف انه كافر فيكون كمن به علة وهو لا
يتالم بجانب غشية او غيرها فلا صبر عليه والعاصي يعرف انه عاص فعليه ترك المعصية
بل كل بلاء يقدر الانسان علي دفعه فلا يومر بالصبر عليه فلو ترك الانسان الماء مع طول
العطش حتي عظم المه فلا يومر بالصبر بازالة الصبر الالم وانما الصبر علي الم ليس الي العبد
ازالته فاذا يرجع الصبر في الدنيا الي ما ليس ببلاء مطلق بل يجوز ان يكون نعمة من وجه
فلذلك يتصور ان يجتمع عليه وظيفة الصبر ووظيفة الشكر فان الغني مثلا يجوز ان يكون سببا
لهلاك الانسان حتي يقصد بسبب ماله ويقتل اولاده والصحة ايضا كذلك فما من نعمة من هذه
النعم الدنيوية الا ويجوز ان يصير بلاء بالاضافة الي حاله وكذلك ما من بلاء الا ويجوز
ان يصير نعمة ولكن بالاضافة الي حاله فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض ولو صح

بدنه

بدنه وكثر ماله لبطر وبغي قال الله تعالي ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض وقال
كلا ان الانسان ليطغي ان راه استغني وقال صلي الله عليه وسلم ان الله ليحمي عبده الدنيا وهو
يحبه كما يحمي احدكم مريضه وكذلك الزوجة والولد والقريب وكل ما ذكرناه في الاقسام الستة
عشر من النعم سوي الايمان وحسن الخلق فانها يتصور ان تكون بلاء في حق بعض الناس
فيكون اضدادها اذا نعما في حقهم اذ قد سبق ان المعرفة كمال ونعمة فانها صفة من صفات
الله عز وجل ولكن قد تكون علي العبد في بعض الامور بلاء ويكون فقدها نعمة مثاله
جهل الانسان باجله فانه نعمة عليه اذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش وطال بذلك
غمه وكذلك جهله بما يضمر الناس من معارفه واقاربه نعمة عليه اذ لو رفع الستر واطلع عليه
لطال المه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره
نعمة عليه اذ لو عرف ذلك من غيره لابغضه واذاه وكان ذلك وبالا عليه في الدنيا والآخرة
بل جهله بالخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فانه لعله ربما يكون وليا لله وهو
يضطر الي ايذايه واهانته ولو عرفه واذاه بعد المعرفة به لكان اثمه اعظم لا محالة
فليس من اذي نبيا او وليا وهو يعرفه كمن اذي وهو لا يعرف ومنها ابهام الله امر
القيمة وابهامه ليلة القدر وساعة يوم الجمعة وابهامه بعض الكباير فكل ذلك نعمة
لان هذا الجهل يوفر دواعيك علي الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله في الجهل فكيف
في العلم وحيث قلنا ان لله تعالي في كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد في حق كل
واحد ولا يستثني عنه بالظن الا الالام التي يخلقها في بعض وهي ايضا قد تكون نعمة في
حق غير المتالم فان لم تكن نعمة في حقه كالالم الحاصل من المعصية كقطعه يده نفسه
ووشمه بشرته فانه يتالم به وهو عاص به ذلك الم الكفار في النار فهي ايضا نعمة ولكن في حق
غيرهم من العباد لا في حقهم فان مصايب قوم عند قوم فوايد فلولا ان الله خلق العذاب
وعذب به طايفة لما عرف المتنعمون قدر نعمه ولا كثر فرحهم بذلك ففرح اهل الجنة

انا مثيضا عن اذا تنكروا في الام اهل النار اما ترى اهل الدنيا لا يشتد فرحهم بنور الشمس مع
شدة حاجتهم اليها من حيث انها عامة مبذولة ولا يشتد فرحهم بالنظر الى زينة السماء
وهي احسن من كل بستان لهم في الارض يجتهدون في عمارتها ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا
بها ولم يفرحوا بسببها فاذا قد صح ما ذكرناه من ان الله لم يخلق شيئا الا وفيه حكمة ولا خلق
شيئا الا وفيه نعمة اما على جميع عباده واما على بعضهم فاذا في خلق البلاء ايضا نعمة اما على المبتلى
واما على غير المبتلى فاذا كل واحد حالة لا توصف بانها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد
وظيفتان الصبر والشكر جميعا فان قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان اذ لا صبر الا
على غم ولا شكر الا على فرح فاعلم ان الشي الواحد قد يغتم به من وجه ويفرح به من وجه
اخر فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح وفي كل فقر ومرض وخوف وبلاء
في الدنيا خمسة امور ينبغي ان يفرح العاقل بها ويشكر عليها احدها ان كل مصيبة ومرض
فيتصور ان تكون اكثر منها اذ مقدورات الله لا تتناهى فلو ضعفها الله وزادها ماذا كان يرده
ويحجزه فليشكر الله سبحانه اذا لم تكن اعظم منها في الدنيا الثاني انه يمكن ان يكون مصيبته في دينه
قال رجل لسهل دخل اللص بيتي واخذ متاعي فقال له اشكر الله لو دخل الشيطان قلبك واخذ
التوحيد ماذا كنت تصنع ولذلك استعاذة عيسى عليه السلام في دعائه اذ قال اللهم لا تجعل مصيبتي
في ديني وقال عمر ما ابتليت ببلية الا كان لله تعالى علي فيها اربع نعم اذ لم يكن في ديني واذ لم يكن اعظم
منها واذ لم احرم الرضا بها واذ ارجو الثواب عليها وكان لبعض ارباب القلوب صديق فحبسه
السلطان فارسل اليه يعلمه ويشكو اليه فقال له اشكر الله فضربه فقال اشكر فجي بمجوسي محبوس
فقيد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة على رجل المجوسي فارسل اليه فقال اشكر الله
اليه فكان المجوسي يحتاج ان يقوم مرات وهو يحتاج ان يقوم معه ويقف على راسه حتى
يقضي حاجته فكتب اليه بذلك فقال اشكر الله فقال الى متى هذا واي بلاء اعظم من هذا
فقال لو وضع الزنار الذي في وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع فاذا ما من انسان قد اصيب

ببلاء

ببلاء الا ولو تامل حق التامل في سوء ادبه ظاهرا وباطنا في حق مولاه لكان يرى
انه يستحق اكثر مما اصيب به عاجلا واجلا ومن استحق عليك ان يضربك مائة فاقتصر على عشرة
فهو مستحق للشكر ومن استحق ان يقطع يداه ورجلاه فترك له احديهما فهو مستحق ان يشكر من
فعل ذلك ولذلك مر بعض الشيوخ بشارع فصب على راسه طست من رماد فسجد
لله تعالى سجدة الشكر فقيل له ما هذه السجدة فقال كنت انتظر ان يصب علي النار فالاقتصار
على الرماد نعمة وقيل لبعضهم الا تخرج الى الاستسقاء فقد احتبست الامطار فقال انتم
تستبطؤن المطر وانا استبطي الحجر فان قلت كيف افرح وانا ارى جماعة ممن
زادت معصيتهم على معصيتي ولم يصابوا بما اصابني حتى الكفار فاعلم
ان الكافر قد خبي له ما هو اكثر وانما امهل حتى يستكثر من الاثم ويطول عليه العقاب
كما قال عز وجل انما نملي لهم ليزدادوا اثما واما العاصي فمن اين تعلم ان في العالم من
هو اعصى منه ورب خاطر بسوء ادب في حق الله تعالى في صفاته اعظم واطم من شرب
الخمر والزنا وساير المعاصي بالجوارح ولذلك قال تعالى وتحسبونه هينا وهو عند الله
عظيم فمن اين تعلم ان غيرك اعصى منك ثم لعله قد اخرت عقوبته الى الاخرة وعجلت
عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله على ذلك وهذا هو الوجه الثالث في الشكر وهو انه ما من
عقوبة الا وكان يتصور ان تؤخر الى الاخرة ومصايب الدنيا يتسلى عنها باسباب اخر تهون
المصيبة فيخف وقعها ومصيبة الاخرة تدوم وان لم تدم فلا سبيل الى تخفيفها بالتسلي اذ
اسباب التسلي مقطوعة بالكلية في الاخرة عن المعذبين ومن عجلت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب
ثانيا اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا اذنب ذنبا فاصابته شدة او بلاء في الدنيا
فالله اكرم من ان يعذبه ثانيا الرابعة ان هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة
عليه في ام الكتاب وكان لا بد من وصولها اليه وقد وصلت ووقع الفراغ منها واستراح من بعضها
او من جميعها فهذه نعمة الخامسة ان ثوابها اكثر منها فان مصايب الدنيا طريق الى الاخرة

من وجهين احدهما الوجه الذي يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض ويكون المنع من اسباب اللعب في حق الصبي فانه لو خلي واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والادب فكان يخسر جميع عمره فكذلك المال والاهل والاقارب والاعضاء حتى العين التي هي اعز الاشياء قد تكون سببا لهلاك الانسان في بعض الاحوال بل العقل الذي هو اعز الامور قد يكون سببا لهلاكه صاحبه فالملحدة غدا يتمنون لو كانوا مجانين او صبيانا لم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى فاي شي من هذه الاسباب يوجد من العبد الا ويتصور ان يكون له فيه خيرة دينية فعليه ان يحسن الظن بالله ويقدر فيه الخيرة ويشكر عليه فان حكمة الله واسعة بمصالح العباد اعلم من العباد وغدا يشكر العباد على البلايا اذا راوا ثواب البلاء كما يشكر الصبي بعد البلوغ والعقل استاذه واباه على ضربه وتاديبه اذ يدرك ثمرة ما استفاد من التاديب والبلاء تاديب من الله تعالى وعنايته بعباده اتم واوفر من عناية الاباء بالاولاد فقد روي ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اوصني فقال لا تتهم الله في شي قضاه عليك ونظر صلى الله عليه وسلم الى السماء فضحك فقيل فقال عجبت لقضاء الله تعالى للمومن ان قضى له بالسراء رضي وكان خيرا له وان قضى بالضراء رضي كان خيرا له الوجه الثاني ان راس الخطايا المهلكة حب الدنيا وراس اسباب النجاة التجافي بالقلب عن دار الغرور ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة يورث طمانينة القلب الى الدنيا وانسه بها حتى تصير كالجنة في حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته لها واذا كثرت عليه المصايب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يسكن اليها ولم يانس بها وصارت سجنا وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الدنيا سجن المومن وجنة الكافر والكافر كل من اعرض عن الله ولم يرد الا الحيوة الدنيا ورضي بها واطمان اليها والمومن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحنين الى الخروج منها والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفي وبقدر حب الدنيا في القلب يسري فيه الشرك الخفي بل الموحد المطلق هو الذي لا يحب الا الواحد الحق فاذا في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح

واما التالم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة الى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجانا او يسقيك دواء نافعا بشعا وهو مجانا فانك تتالم وتفرح فتصبر على الالم وتشكر على سبب الفرح فكل بلاء في الامور الدنياوية مثاله الدواء الذي يولم في الحال وينفع في المال بل من دخل دار الملك للنظارة وعلم انه يخرج منها لا محالة فراى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار كان ذلك بلاء عليه لانه يورثه الانس بمنزل لا يمكن المقام فيه ولو كان عليه في المقام خطر بان يطلع عليه الملك فيعذبه فاصابه ما يكره حتى نفر من المقام كان ذلك نعمة عليه والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحم وهم خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق انسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزعج عنها قلوبهم ويقطع انسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصور منه ان يشكر على البلاء ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر لان الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يومن بان ثواب المصيبة اكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة حكي ان اعرابيا عزى ابن عباس عن ابيه فقال اصبر نكن بك صابرين فانما صبر الرعية بعد صبر الراس خير من العباس اجرك بعده والله خير منك للعباس فقال ابن عباس رضي الله عنه ما عزاني احد احسن من تعزيته والاخبار الواردة في الصبر على المصايب كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يرد الله به خيرا يصب منه وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى اذا وجهت الى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه او ماله او ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيمة ان انصب له ميزانا او انشر له ديوانا وقال صلى الله عليه وسلم ما من عبد اصيب بمصيبة فقال كما امره الله تعالى انا لله وانا اليه راجعون اللهم اجرني في مصيبتي واعقبني خيرا منها الا فعل ذلك به وقال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى من سلبت كريمته فجزاؤه الخلود في داري والنظر الى وجهي وروي ان رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسده ان الله اذا احب عبدا ابتلاه واذا ابتلاه صبره وقال صلى الله عليه وسلم لتكونن الرجل

لتكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمله حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك
وعن خباب بن الارت قال اتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل
الكعبة فشكونا اليه فقلنا يا رسول الله الا تدعو الله تستنصره لنا فجلس محمارا لونه
ثم قال ان كان من قبلكم ليوتى بالرجل فيحفر له في الارض حفيرة ويجاء بالمنشار فيوضع
على راسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه وعن علي رضي الله عنه قال ايما رجل
حبسه السلطان ظلما فمات فهو شهيد وان ضربه فمات فهو شهيد وقال
ايضا من اجلال الله ومعرفة حقه ان لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك وقال ابو الدرداء
تولدون للموت وتعمرون للخراب وتحرصون على ما يفنى وتذرون ما يبقى الا حبذا
المكروهات الثلث الفقر والمرض والموت وعن انس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا
اراد الله بعبد خيرا واراد ان يصافيه صب عليه البلاء صبا وثجه عليه ثجا
فاذا دعاه قالت الملائكة صوت معروف فان دعاه ثانيا فقال يا رب قال الله تعالى
لبيك عبدي وسعديك لا تسألني شيئا الا اعطيتك او دفعت عنك ما هو خير وادخرت
لك عندي ما افضل منه فاذا كان يوم القيمة جيء باهل الاعمال فوفوا اعمالهم بالميزان
اهل الصلوة والصيام والصدقة والحج ثم يؤتى باهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان
ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الاجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا فيود اهل
العافية في الدنيا لو انهم كانت تقرض اجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب
به اهل البلاء من الثواب فذلك قوله انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب
وعن ابن عباس رضي الله عنه قال شكى نبي من الانبياء عليهم السلام الى ربه فقال
يا رب العبد المومن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء
ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترئ على معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له
الدنيا فاوحى الله تعالى اليه ان العباد لي والبلاء لي وكل يسبح بحمدي فيكون المومن

عليه

عليه من الذنوب فازوي عنه الدنيا واعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني
فاجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فابسط له الرزق وازوي عنه البلاء
فاجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فاجزيه بسيئاته وروي انه لما نزل قوله تعالى
ومن يعمل سوءا يجز به قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه كيف الفرح بعد هذه الاية فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا ابا بكر الست تمرض اليس يصيبك الاذى الست
تحزن فهذا ما تجزون به يعني ان جميع ما يصيبك كفارة لذنوبك وعن عقبة بن عامر
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا رايتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته
فاعلموا ان ذلك استدراج ثم قرا قوله تعالى فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب
كل شيء حتى اذا فرحوا بما اوتوا اي بما اعطوا من الخيرات اخذناهم بغتة وعن الحسن البصري
ان رجلا من الصحابة راى امراة كان يعرفها في الجاهلية فكلمها ثم فارقها فجعل يلتفت
اليها وهو يمشي فصدمه حائط فاثر في وجهه فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فاخبره فقال النبي
صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله بعبد خيرا عجل عقوبة ذنبه في الدنيا وقال علي رضي الله عنه
الا اخبركم بارجى اية في كتاب الله قالوا بلى فقرا عليهم وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت
ايديكم ويعفو عن كثير فالمصائب في الدنيا بكسب الاوزار فاذا عاقبه الله في الدنيا فالله
اكرم من ان يعذبه ثانيا وان عفا عنه في الدنيا فالله اكرم من ان يعذبه يوم القيمة وعن
انس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما تجرع عبد جرعتين احب
الى الله تعالى من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ولا قطرت
قطرة احب الى الله من قطرة دم اهريقت في سبيل الله وقطرة دموع في سواد الليل وهو
ساجد ولا يراه الا الله وما خطا عبد خطوتين احب الى الله من خطوة الى الصلوة الفريضة
وخطوة الى صلة رحم وعن ابي الدرداء انه قال توفي ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد
عليه وجدا شديدا فاتاه ملكان فجلسا بين يديه في زي الخصوم فقال احدهما بذرت بذرا

وقلم أستخص غرّبه هذا فاسله فقال للآخر ما تقول فقال أخذت الجادة فأتيت
على زرع فنظرت يمينا وشمالا فإذا الطريق عليه فقال له سليمان ولم لا تدرت على الطريق
أما علمت أن لا بد للناس من الطريق قال فلم تحزن على ولدك لما علمت أن الموت سبيل الآخرة
فتاب سليمان إلى ربه ولم يجزع على ولده بعد ذلك ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له وهو
مريض فقال يا بني لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك فقال يا أبت لأن يكون ما تحب
أحب إلي من أن يكون ما أحب وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه نعي إليه ابنة له وهو في سفر
فاسترجع وقال عورة سترها الله ومؤنة كفاها الله وأجر ساقه الله ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال
قد صنعنا ما أمرنا الله قال الله تعالى واستعينوا بالصبر والصلوة الآية وذكر عن ابن المبارك
أنه مات له ابن له فعزاه مجوسي تعزية فقال ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل
بعد خمسة أيام فقال ابن المبارك اكتبوا عنه هذه وقال بعض العلماء أن الله تعالى ليبتلي العبد بالبلاء
بعد البلاء حتى يمشي على الأرض وما له ذنب وقال الفضيل إن الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء
كما يتعاهد الرجل أهله بالخير وقال حاتم الأصم إن الله عز وجل يحتج على الخلق يوم القيامة
بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان عليه السلام وعلى الفقراء بعيسى عليه السلام وعلى
العبيد بيوسف عليه السلام وعلى المرضى بأيوب عليه السلام وروي أن زكريا عليه السلام لما هرب
من الكفار من بني إسرائيل واختفى في الشجرة فعرفوا ذلك فجيء بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ
المنشار إلى رأس زكريا فأنّ أنّة فأوحى الله إليه يا زكريا إن صعدت منك أنة ثانية لأمحونك
من ديوان النبوة فعض زكريا عليه السلام على الصبر حتى قطع بنصفين وقال ابن مسعود وقال
ابن مسعود البلخي من أصيب بمصيبة فمزق ثوبا أو ضرب صدرا فكأنما أخذ رمحا يريد أن يقاتل
به ربه وقال لقمان لابنه يا بني إن الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء وإذا أحب
الله قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط وقال الأحنف بن قيس أصبحت
يوما أشتكي ضرسي فقلت لعمي ما نمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثا فقال لقد أكثرت

من ضرسك في ليلة واحدة وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلثين سنة ما علم بها أحد وأوحى الله
تعالى إلى عزير إذا نزلت بك بلية فلا تشكني إلى خلقي كما لا أشكوك إلى ملائكتي إذا صعدت مساويك
وفضائحك

بيان فضيلة النعمة على البلاء

لعلك تقول هذه الأخبار
تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعيم فهل لنا أن نسأل الله البلاء **فأقول** لا وجه لذلك
لما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة
وكان يقول هو والأنبياء ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وكانوا يستعيذون من
شماتة الأعداء وغير ذلك وقال علي رضي الله عنه اللهم إني أسألك الصبر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم
لقد سألت الله البلاء فاسأله العافية وروى الصديق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال
سلوا الله العافية فما أعطي عبد أفضل من العافية إلا اليقين وأشار باليقين إلى عافية القلب
عن مرض الجهل والشك فعافية القلب أعلى من عافية البدن وقال الحسن الخير الذي لا شر فيه
العافية مع الشكر فكم من منعم عليه غير شاكر وقال مطرف بن عبد الله لأن أعافى فأشكر أحب
إلي من أن أبتلى فأصبر وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه وعافيتك أحب إلي وهذا أظهر من أن
يحتاج إلى استشهاد وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكبر منها
إما في الدنيا أو في الدين والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب فينبغي أن يسأل الله تمام
النعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من البلاء ويسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته فإنه قادر
على أن يعطي على الشكر ما يعطيه على الصبر **فإن قلت** فقد قال بعضهم أود أن أكون
جسرا على النار يعبر علي الخلق كلهم فينجون وأكون أنا في النار وقال سمنون وليس لي في سواك
حظ فكيف ما شئت فاختبرني ويروى فكيف ما شئت فامتحني فهذا من هؤلاء سؤال البلاء فاعلم
أنه حكي عن سمنون أنه بلي بعد هذا البيت بعلة الحصر فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان
ادعوا لعمكم الكذاب وأما محبة الإنسان لأن يكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكن
ولكن قد تغلب المحبة على القلب حتى يظن المحب بنفسه أنه يحب مثل ذلك فمن شرب كأس المحبة
بنفسه حبا لمثل ذلك البلاء

سكر ومن سكر توسع في الكلام ولو زايله سكره علم ان ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقة لها
فما تسمعه من هذا الفن فهو كلام العشاق الذين افرط حبهم وكلام العشاق الذين يستلذ
سماعه ولا يعول عليه كما حكي ان فاختة كانت تراود زوجها فمنعه فقال لها الذي يمنعك
عني فلو اردت ان اقلب لك ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لاجلك فسمعه سليمان فاستدعاه
وعاتبه فقال يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى وهو كما قال الشاعر اريد وصاله ويريد هجري
فاترك ما اريد لما يريد وذلك ايضا محال ومعناه اني اريد ما لا اريد لان من اراد الوصال
ما اراد الهجر فكيف اراد الهجر الذي لم يرده بل لا يصدق هذا الكلام الا بتاويلين احدها
ان يكون ذلك في بعض الاحوال حتى يكتسب به رضاه الذي يتوصل به الى مراد الوصال
في الاستقبال فيكون الهجران وسيلة الرضاء والرضاء وسيلة لوصال المحبوب والوسيلة الى
المحبوب محبوب فيكون مثاله مثال محب المال اذا اسلم درهما في درهمين فهو يحب الدرهمين
بترك الدرهم في الحال الثاني اذ يصير رضاه عنده محبوبا مطلوبا من حيث انه
رضاه فقط ويكون له لذة في استشعاره رضا محبوبه منه يزيد تلك اللذة على لذته
في مشاهدته مع كراهته فعند ذلك يتصور ان يريد ما فيه الرضاء فلذلك قد انتهى حال
بعض المحبين الى ان صارت لذتهم في استشعارهم رضاء الله عنهم اكثر من لذتهم في العافية
من غير شعور الرضاء فهؤلاء اذا قدروا رضاه في البلاء صار البلاء احب اليهم من العافية
وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب ولكنها لا تثبت وان ثبتت مثلا فهل هي
حالة صحيحة ام هي حالة اقتضتها حالة اخرى وردت على القلب فالت به عن
الاعتدال وهذا فيه تجرط نطرد ذكر تحقيق لا يليق بالحض فيه وقد ظهر بما سبق
ان العافية خير من البلاء فنسال الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والاخرة بيان
الافضل من الصبر والشكر اعلم ان الناس اختلفوا في ذلك فقال قايلون الصبر
افضل من الشكر وقال اخرون الشكر افضل وقال اخرون هما سيان وقال اخرون يختلف باختلاف الاحوال

ذلك

والا واستدل

واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل ولا معنى للتطويل بالنقل
بل المبادرة الى اظهار الحق اولى فنقول في بيان ذلك مقامان المقام الاول البيان على
سبيل التساهل وهو ان ينظر الى ظاهر الامر ولا يطلب بالتفتيش تحقيقه وهو البيان الذي
ينبغي ان يخاطب به عوام الخلق لقصور افهامهم عن درك الحقايق الغامضة وهذا الفن
من الكلام هو الذي ينبغي ان يعتمده الوعاظ اذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام اصلاحهم
والطير المشفق للشفقة لا ينبغي ان يصلح الصبي الطفل بالطيور السمان وضروب الحلو بل
باللبن وعليها ان يدخر اطايب الاطعمة الى ان يصير محتملا لها بقوته ويفارق الضعف الذي
هو عليه في بنيته فنقول هذا المقام في البيان يابى البحث عن التفصيل ومقتضاه النظر
الى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضي تفضيل الصبر فان الشكر وان وردت اخبار
في فضله فاذا اضيف اليها ما ورد في فضيلة الصبر كان فضايل الصبر اكثر بل فيها الفاظ صريحة
في التفضيل كقوله عليه السلام من افضل ما اوتيتم اليقين وعزيمة الصبر وفي الخبر يؤتى باشكر
اهل الارض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى باصبر اهل الارض فيقال له اترضى ان نجزيك
كما جزينا هذا الشاكر فيقول نعم يا رب فيقول الله تعالى كلا انعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت
لاضعفن لك الاجر عليه فيعطى اضعاف جزاء الشاكرين وقد قال الله تعالى انما يوفى الصابرون
اجرهم بغير حساب واما قوله عليه السلام الطاعم الشاكر بمنزلة الصايم الصابر فهو دليل
على الفضيلة في الصبر اذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فالحقه بالصبر فكان
هذا منتهى درجته ولولا انه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان الحاق الشكر به مبالغة
في الصبر وهو كقول النبي صلى الله عليه وسلم الجمعة حج الفقراء وجهاد المراة حسن التبعل
وكقوله شارب الخمر كعابد الوثن وابدا المشبه به ينبغي ان يكون اعلى رتبة وكذلك قوله صلى
الله عليه وسلم الصبر نصف الايمان لا يدل على ان الشكر مثله وهو كقوله الصوم نصف
الصبر فان كل ما ينقسم بقسمين يسمى احدهما نصفا وان كان بينهما تفاوت كما يقال الايمان هو العلم والعمل

فالعمل نصف الايمان فلا بد ان ذلك على ان العمل يساوي العلم وفي الخبر آخر الانبياء
دخولا الجنة سليمان بن داود عليه السلام لمكان ملكه وآخر الاغنياء دخولا
الجنة عبد الرحمن بن عوف لمكان غناه وفي لفظ آخر يدخل سليمان الجنة بعد الانبياء
باربعين خريفا وفي الخبر ابواب الجنة كلها مصراعان الا باب الصبر فانه مصراع واحد
واول من يدخله اهل البلاء امامهم ايوب عليه السلام وكلما ورد في فضائل الفقر
يدل على فضيلة الصبر لان الصبر حال الفقير والشكر حال الغني فهذا هو المقام الذي ينفع
العوام ويكفيهم في الوعظ اللائق بهم والتعريف لما فيه صلاح دينهم

المقام الثاني

هو البيان الذي نقصد به تعريف اهل العلم والاستبصار بحقائق الامور بطريق الكشف
والايضاح فنقول فيه كل امرين مبهمين لا يمكن الموازنة بينهما مع الابهام ما لم يكشف
عن حقيقة كل واحد منهما وكل مكشوف يشتمل على اقسام لا يمكن الموازنة بين الجملة مع الجملة
بل يجب ان يفرد الاحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان والشكر والصبر اقسامهما وشعبهما
كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان والنقصان مع الاجمال فنقول قد ذكرنا ان هذه المقامات
تنتظم من ثلثة امور علوم واحوال واعمال والشكر والصبر وساير المقامات هي كذلك وهذه الثلثة
اذا وزنت البعض منها بالبعض لاح للناظرين الى الظواهر ان العلوم تراد للاحوال والاحوال
تراد للاعمال فالاعمال هي الافضل واما ارباب البصاير فالامر عندهم بالعكس من ذلك فان الاعمال
تراد للاحوال والاحوال تراد للعلوم فالافضل العلوم ثم الاحوال ثم الاعمال لان كل مراد لغيره فذلك
الغير لا محالة افضل منه واما احاد هذه الثلثة فالاعمال قد تتساوى وقد تتفاوت اذا
اضيف بعضها الى البعض وكذا احاد الاحوال اذا اضيف بعضها الى البعض وكذا احاد المعارف
وافضل المعارف علوم المكاشفة وهي ارفع من علوم المعاملة بل علوم المعاملة دون
المعاملة فانها تراد للمعاملة ففايدتها اصلاح العمل وانما فضل العالم بالمعاملة على العابد
اذا كان عمله تمام نفعه فيكون بالاضافة الى عمل خاص افضل والا فالعلم القاصر بالعمل
ليس بافضل من العمل القاصر فنقول فايدة اصلاح العمل اصلاح القلب وفايدة اصلاح حال
القلب ان ينكشف له جلال الله في ذاته وصفاته وافعاله فارفع علوم المكاشفة معرفة الله
الله تعالى وهي الغاية التي تطلب لذاتها فان السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ولكن قد
لا يشعر القلب في الدنيا بانها عين السعادة وانما يشعر بها في الآخرة فهي المعرفة الحرة
التي لا قيد عليها فلا تتقيد بغيرها وكلما عداها من المعارف عبيد وخدم بالاضافة اليها
فانها تراد لاجلها ولما كانت مرادة لاجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الافضاء الى معرفة
الله تعالى فان بعض المعارف تفضي الى بعض اما بواسطة واما بوسائط كثيرة فكلما كانت
الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى اقل فهي افضل واما الاحوال فاعني بها احوال
القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق حتى اذا طهر وصفا
اتضحت له حقيقة الحق فاذا فضائل الاحوال بقدر تأثيرها في اصلاح القلب وتطهيره واعداده
لان تحصل له علوم المكاشفة وكما ان تصقيل المرآة يحتاج الى ان يتقدم على تمامه احوال
للمرآة بعضها اقرب الى الصقالة من بعض فكذلك احوال القلب فالحالة القريبة او المقربة
من صفاء القلب هي افضل مما دونها لا محالة بسبب القرب من المقصود وهكذا ترتيب
الاعمال فان تأثيرها في تأكيد صفات القلب وجلب الاحوال اليه وكل عمل فاما ان يجلب
الى القلب حالة مانعة من المكاشفة موجبة ظلمة في القلب جاذبة الى زخارف الدنيا
واما ان يجلب اليه حالة مهيئة للمكاشفة موجبة صفاء القلب وقطع علايقه عن
الدنيا واسم الاول المعصية واسم الثاني الطاعة والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب
وقساوته متفاوتة وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات
تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الاحوال وذلك انا نطلق بالقول بان نقول الصلوة
النافلة افضل من كل عبادة نافلة وان الحج افضل من الصدقة وان قيام الليل افضل
من غيره ولكن التحقيق فيه ان الغني الذي معه مال وقد غلبه البخل وحب المال على امساكه

واخر اصحابه

فهو عالم العابد فانه يعلم لغيره بعلم الاخير

وهو العالم الذي يعم نفعه بالتعدي الى غيره اذ يتعدى بالعالم اكثر مما يتعدى بالعابد

انا بالقول المطلق بل ربما نقول

البخل وحمله حب المال على امساكه

٥٧

فاخراج درهم له افضل من قيام ليالي وصيام ايام لان الصيام لمن غلبته شهوة البطن
فاراد كسرها او منعه الشبع عن صفاء الفكر في علوم المكاشفة فاراد تصفية القلب
بالجوع فاما هذا المدبر اذا لم يكن حاله هذه الاحوال فليس يستضر بشهوة بطنه ولا هو
مشتغل بنوع فكرة يمنع منه الشبع منعًا فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله الى حال غيره
وهو كالمريض الذي يشكو وجع البطن اذا استعمل دواء الصداع لا يصح ينتفع به بل حقه
ان ينظر في المهلك الذي استولى عليه والبخل المطاع من جملة المهلكات ولا يزيل صيام ماية
سنة وقيام الف ليلة منه ذرة بل لا يزيله الا اخراج المال فعليه ان يتصدق بما معه
وتفصيل هذا مما ذكرناه في ربع المهلكات فليرجع اليه فاذا باعتبار هذه الاحوال يختلف وعند
ذلك يعرف البصير ان الجواب المطلق فيه خطا اذ لو قال لنا قايل الخبز افضل ام الماء لم يكن
فيه جواب حق الا ان نقول الخبز للجايع افضل والماء للعطشان افضل فان اجتمع الجوع
والعطش الى الاغلب فان كان العطش هو الاغلب فالماء افضل منه وان كان الجوع هو
الاغلب فالخبز افضل وان تساويا فهما متساويان وكذا اذا قيل السكنجبين افضل ام شراب
النيلوفر لم يصح الجواب عنه مطلقا اصلا نعم لو قيل لنا السكنجبين افضل ام عدم الصفراء
فنقول عدم الصفراء افضل لان السكنجبين يراد لذلك وما يراد لغيره فذلك الغير افضل
منه لا محالة فاذا في بذل المال عمل وهو الانفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج
حب الدنيا عن القلب ويتهيا القلب بسبب خروج حب الدنيا من القلب لمعرفة
الله تعالى وحبه فالافضل المعرفة ودونها الحال ودون الحال العمل فان قلت
فقد حث الشرع على الاعمال وبالغ في ذكر فضايلها حتى طلب الصدقات بقوله عز وجل
من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا وقال عز وجل ويأخذ الصدقات فكيف
لا يكون البذل والانفاق هو الافضل فاعلم ان الطبيب اذا اثنى على الدواء لم يدل
على ان الدواء مراد لعينه او على انه افضل من الصحة والشفاء الحاصل به ولكن الاعمال علاج

لمرض

لمرض القلب ومرض مما لا يشعر به غالبا فهو كبرص على وجه من لا مرآة له فانه لا يشعر به
ولو ذكر له لم يصدق به فالسبيل المبالغة في النداء على غسل الوجه بماء الورد مثلا ان كان ماء
الورد يزيل البرص حتى يستحثه فرط النداء على المواظبة عليه فيزول مرضه فانه لو ذكر له
ان المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم ان وجهي لا عيب فيه ولنضرب
مثالا اقرب من هذا فنقول من له ولد علمه العلم والقران فاراد ان يثبت ذلك في حفظه
بحيث لا يزول عنه وعلم انه لو امره بالتكرار والدراسة ليبقى له ذلك محفوظا لقال انه محفوظ
ولا حاجة بي الى التكرار والدراسة لانه يظن ان ما يحفظه في الحال يبقى كذلك ابدا وكان له عبيد
فامر الولد بتعليم العبيد ووعده على ذلك بالجميل لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم فربما
يظن الصبي المسكين ان المقصود تعليم العبيد والقران وان اباه قد استخدمه لتعليمهم فيثقل
عليه الامر فيقول ما بالي قد استخدمت لاجل العبيد وانا اجل منهم واعز عند الوالد واعلم ان
ابي لو اراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفي واعلم انه لا نقصان لابي بتبلد هولاء العبيد
فضلا عن عدم علمهم بالقران علمهم بالقران فربما يتكاسل هذا المسكين ويترك تعليمهم اعتمادا
على استغناء ابيه وعلى كرمه في العفو عنه فينسى العلم والقران ويبقى مدبرا محروما من حيث
لا يدري وقد انخدع بمثل هذا الخيال طايفة وبه سلكوا طريق الاباحة وقالوا ان الله غني
عن عبادتنا وعن ان يستقرض منا فاي معنى لقوله من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا
ولو شاء الله اطعام المساكين لاطعمهم فلا حاجة بنا الى صرف اموالنا اليهم كما قال الله تعالى حكاية
عن الكفار واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين امنوا انطعم من لو يشاء الله
اطعمه وقالوا لو شاء الله ما اشركنا ولا اباؤنا فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم وكيف هلكوا
بصدقهم فسبحان من اذا شاء اهلك بالصدق واذا شاء اسعد بالجهل يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا
فهولاء لما ظنوا انهم استخدموا لاجل المساكين ولاجل الله ثم قالوا لا حظ لنا في المساكين
ولا حظ لله فينا وفي اموالنا انفقنا او امسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن ان مقصود الوالد

استخدامه لاجل العبيد ولم يشعر بانه كان المقصود منه ثبات صفة العلم في نفسه وتاكده
في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا وانما كان ذلك من الوالد تلطفا به في استجراره الي
ما فيه سعادته فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق فان المسكين لاخذ لما لك ينتو في بواسطة
المال لجنن البخل وحب الدنيا من باطنك فانه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم بخروج الدم العلة
المهلكة من باطنك فالحجام فالحجام خادم لك لا انت خادم للحجام ولا يخرج الحجام عن كونه خادما
بان يكون له غرض في ان يصبغ شيئا بالدم ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها
عن خبائث الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اخذها ونهي عنها لما نهي عن كسب الحجام
وسماها اوساخ اموال الناس وشرف اهل بيته بالصيانة عنها والمقصود ان الاعمال مؤثرات
في القلب كما سبق في ربع المهلكات والقلب بحسب تاثيرها يستعد لقبول الهداية ونور المعرفة
فهذا هو القول الكلي والقانون الاصلي الذي ينبغي ان يرجع اليه في معرفة فضائل الاعمال
والمعارف فلنرجع الان الي خصوص ما نحن فيه من الشكر والصبر فنقول في كل واحد منهما
معرفة وحال وعمل فلا يجوز ان تقابل المعرفة في احدهما بالحال او العمل في الاخر بل تقابل
كل واحد بنظيره حتى يظهر التناسب وبعد التناسب يظهر الفضل ومهما قوبلت معرفة
الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا الي معرفة واحدة اذ معرفة الشاكر ان يري نعمة العينين
مثلا من الله تعالي ومعرفة الصابر ان يري العمي من الله تعالي وهما معرفتان متلازمتان و
متساويتان وبيان هذا ان اعتبر في البلاء والمصائب وقد بينا ان الصبر قد يكون علي الطاعة
وعن المعصية وفيهما يتحد الصبر والشكر لان الصبر علي الطاعة هو عين شكر الطاعة لان الشكر
يرجع الي صرف نعمة الله الي ما هو المقصود منها بالحكمة والصبر يرجع الي رجح ثبات باعث الدين
في مقابلة باعث الهوي فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمي واحد باعتبارين مختلفين فان ثبات
باعث الدين في مقابلة باعث الهوي يسمي صبرا بالاضافة الي باعث الهوي ويسمي
شكرا بالاضافة الي باعث الدين اذ باعث الدين انما خلق لهذه الحكمة وان يصرع به باعث

الشهوة

الشهوة فقد صرفه الي مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معني واحد فكيف يفضل الشي
علي نفسه فاذا مجاري الصبر ثلثة الطاعة والمعصية والبلاء وقد ذكرنا حكمهما في الطاعة والمعصية
اما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة اما ضرورية كالعينين مثلا واما ان تقع في
محل الحاجة كالزيادة علي قدر الكفاية من المال اما العينان فصبر الاعمي عنهما
بان لا يظهر الشكوي ويظهر الرضاء بما قضاء الله عز وجل ولا يترخص بسبب العمي
في بعض المعاصي وشكر البصير عليهما من حيث العمل بامرين احدهما ان لا يستعين بهما
علي معصية والاخر ان يستعملهما في الطاعة وكل واحد من الامرين لا يخلو عن الصبر
فان الاعمي كفي الصبر عن الصور الجميلة لانه لا يراها والبصير اذا وقع بصره علي جميل
جميل فصبر كان شاكرا لنعمة العينين علي الطاعة فلابد في ذلك ايضا من صبر علي الطاعة
ثم قد يشكرهما بالنظر الي عجائب صنع الله ليتوصل بذلك الي معرفة الله فيكون هذا الشكر
ايضا افضل من الصبر ولولا فضل هذا لكانت رتبة شعيب مثلا وقد كان ضريرا من
الانبياء فوق رتبة موسي عليه السلام وغيره من الانبياء لانه صبر علي فقد البصر
وموسي لم يصبر ولكان الكمال في ان يسلب الانسان الاطراف كلها ويترك الانسان كلحم علي وضم
وذلك محال جدا لان كل واحد من هذه الاعضاد الة في الدين فيفوت بفواتها
ذلك الركن من الدين وشكرها استعمالها فيما هو الة له فيه من الدين وذلك لا يكون
الا بالصبر واما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة علي الكفاية من المال فانه اذا لم يؤت
الا قدر الضرورة وما اوى اليه محتاج اليه ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقراء
ووجود الزيادة نعمة وشكرها ان يصرف الي الخيرات وان لا تستعمل في المعصية فان
اضيف الشكر الصبر الي الشكر الذي هو صرف الي الطاعة فالشكر افضل لانه تضمن الصبر
ايضا ففيه فرح بنعمة الله وفيه احتمال الم في صرفه الي الفقراء وترك صرفه الي التنعم المباح
فكان الحاصل يرجع الي ان الشيئين افضل من شي واحد وان الجملة اعلي رتبة من البعض

وهذا فيه خلل اذ لا يتضح الموازنة بين الجملة وبين احاد ابعاضها ولما اذا كان شكره
بان لا يستعين به على معصية بل يصرفه الى التنعم المباح فالصبر ههنا افضل
من الشكر والفقير الصابر افضل من الغني الممسك ماله الصارف له الى المباحات
لا من الغني الصارف ماله الى الخيرات لان الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها
واحسن الرضا على بلاء الله وهذه الحالة تستدعي لا محالة قوة والغني اتبع نهمته
واطاع شهوته ولكنه اقتصر على المباح وفي المباح مندوحة عن الحرام ولكن لا بد
من قوة في الصبر عن الحرام ايضا الا ان القوة التي عنها يصدر صبر الفقير اعلى واتم
من القوة التي عنها يصدر الاقتصار في التنعم على المباح والشرف لتلك القوة التي
يدل العمل عليها فان الاعمال لا تراد الا لاحوال القلب وتلك القوة حالة للقلب تختلف
بحسب قوة اليقين والايمان فما دل على زيادة قوة في الايمان فهو افضل لا محالة وجميع
ما ورد من تفضيل اجر الصبر على اجر الشكر في الاخبار والآيات انما اريد به
هذه الرتبة على الخصوص لان السابق الى افهام الناس من النعمة الاموال والغني بها والسابق
الى الافهام من الشكر ان يقول الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية ولا ان يصرفها
الى الطاعة فاذا الصبر افضل من الشكر اي الصبر الذي يفهمه العامة افضل من الشكر الذي
الذي تفهمه والى هذا المعنى على الخصوص اشار الجنيد حيث سئل عن الشكر ايهما افضل
فقال ليس مدح الغني في الوجود ولا مدح الفقر في العدم وانما مدحهما في الاثنين قيامهما
بشروط ما عليهما فشرط الغني يصحبه فيما عليه اشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها
والفقير يصحبه فيما عليه اشياء تولم صفته وتقبضها وتزعجها فاذا كان الاثنان قائمين
لله عز وجل بشروط ما عليهما كان الذي الم صفته وازعجها اتم حالا ممن متع صفته وانعمها والامر
على ما قاله وهو صحيح من جملة اقسام الصبر والشكر في القسم الاخير الذي ذكرناه وهو
لم يرد سواه ويقال كان ابو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال الغني الشاكر افضل من

الفقير الصابر

الصابر فدعا عليه الجنيد فلحقه ما اصابه من البلاء من قتل اولاده وتلف ماله
وزال عقله اربع عشرة وكان يقول دعوة الجنيد اصابتني ورجع الى تفضيل الفقير
الصابر على الغني الشاكر ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت ان لكل واحد من القولين
وجها في بعض الاحوال فرب فقير صابر افضل من غني شاكر كما سبق ورب غني شاكر
افضل من فقير صابر وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير اذ لا يمسك لنفسه
من ماله الا قدر الضرورة والباقي يصرفه الى الخيرات او يمسكه على اعتقاد انه
خازن للمحتاجين والمساكين وانما ينتظر حاجة شخص ليصرفه اليها ثم اذا
صرف لم يصرفه لطلب جاه ولا صيت ولا لتقليد منة بل اداء لحق الله تعالى في تفقد عباده
فهذا افضل من الفقير الصابر فان قلت هذا الامر لا يثقل على النفس
والفقير يثقل عليه الفقر لانه يستشعر لذة القدرة وذلك يستشعر الم الصبر
فان كان يتالم بفراق المال فينجبر ذلك بلذته في القدرة على الانفاق فاعلم
ان الذي نراه ان من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس اكمل حالا ممن ينفقه
وهو بخيل به وانما يقتطعه عن نفسه قهرا وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق
من كتاب التوبة فايلام النفس غير مقصودة ليس مطلوبا لعينه بل لتاديبها وذلك
يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب المتادب اكمل من الكلب المحتاج الى الضرب وان كان
صابرا على الضرب ولذلك يحتاج الى الايلام والمجاهدة في البداية ولا يحتاج اليه
في النهاية بل النهاية ان يصير ما كان مولما في حقه لذيذا عنده كما يصير التعلم
عند الصبي العاقل لذيذا وقد كان مولما اولا ولكن لما كان الناس كلهم الا الاقلون
في البداية بل قبل البداية بكثير اطلق الجنيد القول بان الذي يولم صفته افضل
وهو كما قال صحيح فيما اراده من عموم الخلق فاذا اذا كنت لا تفصل الجواب ونطلقه
لارادة الاكثر فاطلق القول بان الصبر افضل من الشكر فانه صحيح بالمعنى السابق

الي الافهام فاما اذا اردت التحقيق فان للصبر درجات اقلها ترك الشكوي
مع الكراهة ووراها الرضا وهو مقام وراء الصبر ووراءه الشكر علي البلاء وهو وراء
الرضاء اذ الصبر مع الالم والرضا يمكن بما لا الم فيه ولا فرح والشكر لا يكون
الا علي محبوب مفروح به وكذلك للشكر درجات كثيرة وذكرنا اقصاها ويدخل
في جملتها امور دونها فان من حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر وعرفته بتقصيره
عن الشكر شكر والاعتذار من قلة الشكر والمعرفة بعظيم حلم الله وكثيف ستره شكر والاعتراف
بان النعم ابتداء من غير استحقاق شكر والعلم بان الشكر ايضا نعمة من نعم الله وموهبة
شكر وحسن التواضع بالنعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسايط شكر اذ قال صلي الله عليه وسلم
من لم يشكر الناس لم يشكر الله وقد ذكرنا حقيقته في كتاب اسرار الزكوة وقلة
الاعتراض وحسن الادب بين يدي المنعم شكر وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام
صغيرها شكر فما يندرج من الاعمال والاحوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر احادها
وهي درجات مختلفة فكيف يمكن اجمال القول بتفضيل احدهما علي الاخر الا علي سبيل
ارادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الاخبار والاثار وقد روي
عن بعضهم انه قال رايت في بعض الاسفار شيخا قد طعن في السن فسالته
عن حاله فقال اني كنت في ابتداء عمري اهوي ابنة عم لي وهي كذلك تهواني
فاتفق انها زوجت مني فليلة زفافها قلت تعالي حتي نحيي هذه الليلة شكرا لله علي ما
جمعنا فصلينا طول الليل فمنذ سبعين او ثمانين سنة نحن علي تلك الحالة كل ليلة
تلك الليلة ولم يتفرغ احدنا الي صاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك
فصلينا طول الليل فمنذ سبعين او ثمانين سنة نحن علي تلك الحالة كل ليلة اليس
كذلك يا فلانة فقالت العجوز هو كما قال الشيخ فانظر اليهما لو صبرا علي بلاء الفرقة
الي ان يجمع الله بينهما فانسب صبر الفرقة الي شكر الوصال علي هذا الوجه فلا يخفي عليك

عليك

عليك ان هذا الشكر افضل فاذا لا وقوف علي حقائق المفضلات الا بتفصيل
كما سبق تم كتاب الصبر والشكر والله المشكور علي حسن
توفيقه واحسانه وجوده وكرمه
ويتلوه كتاب الخوف والرجاء



كتاب الرجاء والخوف وهو الكتاب
الثالث من ربع المنجيات من
كتاب احياء علوم الدين صنفه الامام
الغزالي قدس الله روحه العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم وبالله التوفيق

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه المخوف مكره وعقابه الذى عمر قلوب اوليائه
بروح رجائه حتى ساقهم بلطايف الائه الى النزول بفنائه والعدول عن
دار بلائه التى هى مستقر اعدائه وصرف بسياط التخويف وزجره العنيف
وجوه المعرضين عن حضرته الى دار ثوابه وكرامته وصدهم عن التعرض لنقمته
والتهدف لسخطه ونقمته قود الاصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف
وازمة الرفق واللطف الى جنته والصلوة على محمد سيد انبيائه وخير خليقته وعلى
آله واصحابه وعترته **اما بعد** فان الرجاء والخوف جناحان بهما يطير
المقربون الى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود
فلا يقود الى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الارجاء ثقيل الاعباء محفوفا
بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والاعضاء الا ازمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم
والعذاب المقيم مع كونه محفوفا بلطايف الشهوات وعجايب اللذات الا سياط التخويف
وسطوات التعنيف فلا بد اذن من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل
الى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما ونحن نجمع ذكرهما فى كتاب واحد مشتمل على
شطرين الشطر الاول فى الرجاء والشطر الثانى فى الخوف اما الشطر الاول فيشتمل
على بيان حقيقة الرجاء وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء والطريق الذى به
يجتلب الرجاء **بيان حقيقة الرجاء** اعلم ان الرجاء من جملة مقامات
السالكين واحوال الطالبين وانما يسمى الوصف مقاما اذا ثبت واقام وانما
يسمى حالا اذا كان عارضا سريع الزوال وكما ان الصفرة تنقسم الى ثابتة

الوصف

كصفرة الذهب والى سريعة الزوال كصفرة الوجل والى ما هو بينهما كصفرة المريض
فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الاقسام فالذى هو غير ثابت يسمى حالا
لانه يحول على القرب وهذا جار فى كل وصف من اوصاف القلب وغرضنا
الآن حقيقة الرجاء فالرجاء ايضا يتم بعلم وحال وعمل العلم سبب يثمر الحال
والحال يقتضى العمل وكان الرجاء اسم للحال من جملة الثلاث وبيانه ان كل
ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم الى موجود فى الحال والى موجود فيما
مضى والى منتظر فى الاستقبال فاذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمى ذكرا
وتذكرا وان كان ما خطر بقلبك موجودا فى الحال سمى وجدا وذوقا وادراكا
وانما تسمى وجدا لانها حالة تجدها من نفسك وان كان قد خطر ببالك وجود شئ
فى الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمى انتظارا وتوقعا فان كان المنتظر مكروها
حصل منه الم فى القلب يسمى خوفا واشفاقا وان كان محبوبا حصل من
انتظاره وتعلق القلب به واخطار وجوده بالبال لذة فى القلب وارتياح
يسمى ذلك الارتياح رجاء فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ولكن
ذلك المحبوب المتوقع لا بد وان يكون له سبب فان كان انتظاره لاجل حصول اكثر اسبابه
فاسم الرجاء عليه صادق وان كان ذلك انتظارا مع انخرام اسبابه واضطرابها
فاسم الغرور والحمق عليه اصدق من اسم الرجاء وان لم يكن الاسباب معلومة
الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمنى اصدق على انتظاره لانه انتظار من غير
سبب وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف الا على ما يتردد فيه اما ما يقطع به
فلا اذ لا يقال ارجو طلوع الشمس وقت الطلوع واخاف غروبها وقت الغروب

طلوع الشمس واخاف غروبها

المغرب

لان ذلك مقطوع به نعم يقال ارجو نزول المطر واخاف انقطاعه وقد علم
ارباب القلوب ان الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالارض والايمان كالبذر فيه والطاعات
جارية مجرى تقليب الارض وتطهيرها ومجرى حفر الانهار وسياقة الماء اليها والقلب
المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالارض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ويوم القيامة
يوم الحصاد ولا يحصد احد الا ما زرع ولا ينمو زرع الا من بذر الايمان وقل ما
ينفع ايمان مع خبث القلب وسوء اخلاقه كما لا ينمو بذر في ارض سبخة فينبغي ان
يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب ارضا طيبة والقى فيها
بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ثم امده بما يحتاج اليه وهو سياق الماء اليه في اوقاته
ثم ينقي الارض عن الشوك والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر او يفسده ثم جلس
منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة الى ان يتم الزرع
ويبلغ غايته سمي انتظاره رجاء وان بث البذر في ارض صلبة سبخة مرتفعة
لا ينصب اليها ماء ولم يشتغل بتعهد البذر اصلا ثم انتظر حصاد الزرع منه سمي
انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء وان بث البذر في ارض طيبة ولكن لا ماء لها
واخذ ينتظر مياه الامطار حيث لا تغلب الامطار ولا تمتنع ايضا سمي انتظاره تمنيا
لا رجاء فاذن اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع اسبابه
الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق الا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى
بصرف القواطع والمفسدات فالعبد اذا بث بذر الايمان وسقاه بماء الطاعات
وطهر القلب عن شوك الاخلاق الردية وانتظر من فضل الله تثبيته على ذلك
الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا

في نفسه

٦٤

في نفسه باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى الايمان في اتمام اسباب المغفرة الى الموت
وان قطع عن بذر الايمان تعهده بماء الطاعات او ترك القلب مشحونا برذائل الاخلاق
وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور قال صلى الله عليه وسلم
الاحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله وقال الله تعالى فخلف من بعدهم خلف اضاعوا
الصلوة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا وقال تعالى فخلف من بعدهم خلف
ورثوا الكتاب ياخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا وذم الله تعالى
صاحب البستان اذ دخل جنته وقال ما اظن ان تبيد هذه ابدا وما اظن الساعة
قائمة ولئن رددت الى ربي لاجدن خيرا منها منقلبا فاذن العبد المجتهد
في الطاعات المجتنب المعاصي حقيق بان ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام
النعمة الا بدخول الجنة واما العاصي فاذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه
من تقصير فحقيق بان يرجو قبول التوبة واما قبول التوبة اذا كان كارها
للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي
التوبة ويشتاق اليها فحقيق بان يرجو من الله التوفيق للتوبة لان كراهته
للمعصية وحرصه على التوبة يجري مجرى السبب الذي قد يفضي الى التوبة وانما
الرجاء بعد تأكد الاسباب ولذلك قال تعالى ان الذين آمنوا والذين هاجروا
وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله معناه ان اولئك يستحقون
ان يرجوا وما اراد به تخصيص وجود الرجاء لان غيرهم ايضا قد يرجو
ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء فاما من ينهمك فيما يكرهه الله ولا يذم
نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث

البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهدها بسقي ولا تنقية قال يحيى بن معاذ
من أعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة وتوقع
التقرب من الله بغير طاعة وانتظار زرع الجنة ببذر النار وطلب
دار المطيعين بالمعاصي وانتظار الجزاء بغير عمل والتمني على الله مع الإفراط فإذا
عرفت حقيقة الرجاء ومظنته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر
الأسباب وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان فإن
من حسن بذره وطابت أرضه ووافاه ماء صدق رجاؤه فلا يزال الجد صدق الرجاء على
تفقد الأرض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها
أصلاً إلى وقت الحصاد وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس يمنع من التعهد
فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت فيترك بالمحالة تفقد
الأرض والتعب في تعهدها والرجاء محمود لأنه باعث واليأس مذموم وهو
ضده لأنه صارف عن العمل والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه
بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة فإذن
حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيف ما تقلبت
الأحوال ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله والتنعم بمناجاته
والتلطف في التملق له فإن هذه الأحوال لا بد وأن يظهر على كل من يرجو ملكاً
من الملوك أو شخصاً من الأشخاص فكيف لا يظهر ذلك في حق الله فإن كان
ذلك لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والنزول في حضيض
الغرور والتمني فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما أثمره من العلم ولما استثمر

منه

منه من العمل ويدل على آثاره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل إذ قال لرسول الله
صلى الله عليه وسلم جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال
كيف أصبحت قال أصبحت أحب الخير وأهله وإذا قدرت على شيء منه سارعت
إليه وأيقنت بثوابه وإذا فاتني شيء منه حزنت عليه وحننت إليه فقال هذه
علامة الله فيمن يريد ولو أرادك بالأخرى هيأك لها ثم لا يبالي في أي أوديتها هلكت
فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير فمن ارتجى أن يكون مراداً
بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف لأن أقرب العباد
إلى الله أحبهم له والحب يغلب بالرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً
من عقابه والآخر رجاء لثوابه ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب
لا سيما وقت الموت قال تعالى لا تقنطوا من رحمة الله فحرم أصل اليأس وفي
أخبار يعقوب أن الله تعالى أوحى إليه أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف لقولك
أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجني ولم نظرت
إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وقال عليه السلام لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن
الظن بالله وقال عليه السلام قال الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي
ما شاء ودخل عليه السلام على رجل وهو في النزع فقال كيف تجدك قال أجدني
أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي فقال عليه السلام ما اجتمعا في قلب عبد في هذا
الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وآمنه مما يخاف وقال علي رضي الله عنه لرجل
أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم

من ذنوبك وقال سفين من اذنب ذنبا فعلم ان الله قدّر عليه ورجا غفرانه
غفر الله ذنبه قال لان الله عيّر قوما فقال وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم اردٰيكم
وقال تعالى وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا وقال صلى الله عليه وسلم ان الله
تعالى يقول للعبد يوم القيمة ما منعك اذ رايت المنكر ان تنكره فان لقنه الله
حجته قال يا رب رجوتك وخفت الناس فقال الله قد غفرته لك وفى الخبر الصحيح
ان رجلا كان يداين الناس فيسامح ويتجاوز عن المعسر فلقى الله ولم يعمل
خيرا قط فقال الله تعالى من احق بذلك منا فعفى عنه بحسن ظنه ورجائه
انه يعفى عنه مع افلاسه من الطاعات وقال تعالى ان الذين يتلون
كتاب الله واقاموا الصلوة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون
تجارة لن تبور ولما قال صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا
ولبكيتم كثيرا ولخرجتم الى الصعدات تلدمون صدوركم وتجارون الى ربكم فهبط
جبريل فقال ان ربك يقول لم تقنط عبادى فخرج عليهم فرجاهم وشوقهم
وفى الخبر ان الله اوحى الى داود احبنى واحب من يحبنى وحببنى الى الخلق فقال يا رب
كيف احببك الى خلقك فقال اذكرنى بالحسن الجميل واذكر آلائى واحسانى
وذكرهم ذلك فانهم لا يعرفون منى الا الجميل ورؤى ابان بن ابى عياش فى النوم
وكان يكثر ذكر ابواب الرجاء فقال اوقفنى الله بين يديه فقال ما الذى
حملك على ذلك فقلت اردت ان احببك الى خلقك فقال قد غفرت لك ورؤى
يحيى بن اكثم فى النوم بعد موته فقيل له ما فعل الله بك فقال اوقفنى بين يديه
وقال يا شيخ فعلت وفعلت قال فاخذنى من الرعب ما يعلم الله ثم قلت

يارب

يا رب ما هكذا احدثت عنك قال وما حدثت عنى فقال حدثنا عبد الرزاق
عن معمر عن الزهرى عن انس عن نبيك عليه السلام عن جبريل انك قلت انا عند
ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء فكنت اظن بك ان لا تعذبنى فقال صدق جبريل
وصدق نبيى وصدق انس وصدق الزهرى وصدق معمر وصدق عبد
الرزاق وصدقت قال فالبست ومشى بين يدى الولدان الى الجنة فقلت
يا لها من فرحة وفى الخبر ان رجلا من بنى اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد
عليهم فيقول الله تعالى يوم القيامة اليوم اويسك من رحمتى كما كنت تقنط
عبادى منها وقال النبى عليه السلام ان رجلا يدخل النار فيمكث فيها الف سنة
ينادى يا حنان يا منان فيقول الله تعالى لجبريل اذهب فاتنى بعبدك قال
فيجى به فيوقفه على ربه فيقول الله كيف وجدت مكانك فيقول شر مكان
فيقول ردوه الى مكانه فيمشى ويلتفت الى ورائه فيقول الله تعالى الى اى
شى تلتفت فيقول لقد رجوت ان لا تعيدنى اليها بعد ان اخرجتنى منها
فيقول الله تعالى اذهبوا به الى الجنة فدل على ان رجاءه كان سبب نجاته

بيان دواء الرجاء والسبيل الذى منه يحصل حال الرجاء ويغلب

اعلم ان هذا الدواء يحتاج اليه احد رجلين
اما رجل غلب عليه الياس فترك العبادة واما رجل غلب الخوف فاسرف فى المواظبة
على العبادة حتى اضر بنفسه واهله وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال الى طرفى
الافراط والتفريط فيحتاجان الى علاج يردهما الى الاعتدال فاما العاصى
المغرور المتمنى على الله مع الاعراض عن العبادة واقتحام المعاصى فادوية

الرجاء تنقلب سموما فى حقه مهلكة وتنزل منزلة العسل الذى هو شفاء لمن
غلب عليه البرد وهو سم مهلك لمن غلبه الحرارة بل المغرور لا يستعمل فى حقه
الا ادوية الخوف والاسباب المهيجة له فلهذا يجب ان يكون واعظ الخلق
متلطفا ناظرا الى مواقع العلل معالجا لكل علة بما يضادها لا بما يزيد فيها فان
المطلوب هو العدل والقصد فى الصفات والاخلاق كلها وخير الامور اوساطها
فاذا جاوز الوسط الى احد الطرفين عولج بما يرده الى الوسط لا بما يزيد فى ميله
عن الوسط وهذا الزمان زمان لا ينبغى ان يستعمل فيه مع الخلق اسباب
الرجاء بل المبالغة فى التخويف ايضا تكاد لا تردهم الى الجادة الحق وسنن
الصواب فاما ذكر اسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية ولكنها لما كانت
اخف على القلوب والذ عند النفوس ولم يكن غرض الوعاظ الا استمالة القلوب
واستنطاق الخلق بالثناء كيف ما كانوا مالوا الى الارجاء حتى ازداد الفساد
فسادا وازداد المنهمكون فى طغيانهم تماديا قال على رضى الله عنه انما
العالم الذى لا يقنط الناس من رحمة الله ولا يؤمنهم من مكر الله ونحن
نذكر اسباب الرجاء ليستعمل فى حق الايس او فيمن غلبه الخوف اقتداء
بكتاب الله وسنة رسوله فانهما مشتملان على الخوف والرجاء جميعا
لانهما جامعان لاسباب الشفاء فى حق اصناف المرضى ليستعمله العلماء
الذين هم ورثة الانبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لا استعمال
الاخرق الذى يظن ان كل شىء من الادوية صالح لكل مريض كيف
ما كان وحال الرجاء يغلب بفنين احدهما الاعتبار والاخر استقراء

الايات

الايات والاخبار والاثار اما الاعتبار فهو ان يتامل جميع ما ذكرناه فى اصناف النعم
فى كتاب الشكر حتى اذا علم لطايف نعم الله سبحانه لعباده فى الدنيا وعجايب حكمه
التى راعاها فى فطرة الانسان حتى اعد له فى الدنيا كل ما هو ضرورى له فى دوام
الوجود كالات الغذاء وما هو محتاج اليه كالاصابع والاظفار وما هو زينة له
كاستقواس الحاجبين واختلاف الوان العينين وحمرة الشفتين وغير ذلك
مما كان لا يتثلم بفقده غرض مقصود وانما كان يفوت به مزية جمال فالعناية
الالهية اذا لم تقصر عن عباده فى امثال هذه الدقايق حتى لم يرض لعباده ان
تفوتهم المزايد والمزايا فى الزينة والحاجة كيف يسياقهم الى الهلاك المؤبد بل اذا نظر
الانسان نظرا شافيا علم ان اكثر الخلايق قد هيئ له اسباب السعادة فى الدنيا حتى انه
يكره الانتقال من الدنيا بالموت وان اخبر بانه لا يعذب بعد الموت مثلا او لا يحشر
اصلا فليس كراهتهم للعدم الا لان اسباب النعم اغلب لا محالة وانما الذى يتمنى الموت
نادر ثم لا يتمناه الا فى حالة نادرة وواقعة هاجمة غريبة فاذا كان حال اكثر الخلق
فى الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة فسنة الله تعالى لا تجد لها تبديلا فالغالب ان
امر الاخرة هكذا يكون لان مدبر الدنيا والاخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف
بعباده متعطف عليهم فهذا اذا تامل حق التامل قوى به اسباب الرجاء ومن
الاعتبار ايضا النظر فى حكمة الشريعة وسنتها فى مصالح الدنيا ووجه الرحمة
للعباد بها حتى كان بعض العارفين يرى اية المداينة فى البقرة من اقوى
اسباب الرجاء فقيل له وما فيها من الرجاء فقال الدنيا كلها قليل ورزق الانسان
فيها قليل والدين قليل من رزقه فانظر كيف انزل الله تعالى فيه اطول اية ليهدى

ليهدى عبده

عبده الى الطريق الاحتياط فى حفظ دينه فكيف لا يحفظ دينه الذى لا عوض له منه

الفن الثانى استقراء الآيات والاخبار فيما ورد فى الرجاء خارج عن الحصر اما الآيات

فقد قال تعالى قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا وفى قراءة رسول الله ولا يبالى انه هو الغفور الرحيم وقال تعالى والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الارض واخبر تعالى ان النار اعدها لاعدائه وانما خوف بها اولياءه فقال لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده وقال واتقوا النار التى اعدت للكافرين وقال فانذرتكم نارا تلظى لا يصلاها الا الاشقى الذى كذب وتولى وقال وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وقيل ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يزل يسال فى امته حتى قيل له اما ترضى وقد انزلت عليك هذه الآية وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وفى تفسير قوله ولسوف يعطيك ربك فترضى قال لا يرضى محمد وواحد من امته فى النار وكان ابو جعفر محمد ابن على يقول انتم اهل العراق تقولون ارجى آية فى كتاب الله تعالى قوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى

واما الاخبار فقد روى ابو موسى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال امتى امة مرحومة لا عذاب عليها فى الآخرة عجل عقابها فى الدنيا الزلازل والفتن فاذا كان يوم القيامة دفع الى كل رجل من امتى رجل من اهل الكتاب فقيل هذا فداؤك من النار وفى لفظ آخر يأتى كل رجل من هذه الامة بيهودى او نصرانى الى جهنم فيقول هذا فداى من النار

فيلقى

فيلقى فيها وقال صلى الله عليه وسلم الحمى من فيح جهنم وهى حظ المؤمن من النار وروى فى تفسير قوله تعالى يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه ان الله تعالى اوحى الى نبيه انى اجعل حساب امتك اليك فقال لا يا رب انت خير لهم منى فقال اذا لا اخزيك فيهم وروى عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سال ربه فى ذنوب امته فقال يا رب اجعل حسابهم الى لئلا يطلع على مساويهم غيرى فاوحى الله تعالى اليه هم امتك وهم عبادى وانا ارحم بهم منك لا اجعل حسابهم الى غيرى لئلا تنظر فى مساويهم انت ولا غيرك وقال صلى الله عليه وسلم حياتى خير لكم اما حياتى فاسن لكم السنن واشرع الشرائع واما موتى فان اعمالكم تعرض على فما رايت منها حسنا حمدت الله تعالى عليه وما رايت منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم وقال صلى الله عليه وسلم يوما يا كريم العفو فقال جبريل اتدرى ما تفسير يا كريم العفو هو ان عفا عن السيئات برحمته ثم بدلها حسنات بكرمه وسمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلا يقول اللهم انى اسالك تمام النعمة فقال هل تدرى ما تمام النعمة قال لا قال دخول الجنة فقال العلماء قد اتم نعمته علينا برضاه الاسلام لنا اذ قال واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا وفى الخبر اذا اذنب العبد فاستغفر الله يقول الله عز وجل للملائكة انظروا الى عبدى اذنب ذنبا فعلم ان له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب اشهدكم انى قد غفرت له وفى الخبر لو اذنب العبد حتى يبلغ ذنوبه اعنان السماء غفرتها ما استغفرنى ورجانى وفى الخبر لو لقينى عبدى بقراب الارض ذنوبا لقيته بقراب الارض مغفرة وفى الحديث ان الملك ليرفع القلم عن العبد اذا

اذا اذنب ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبه عليه والا كتبها
سيئة وفي لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب
الشمال وهو امير عليه الق هذه السيئة حتى القي من حسناته واحدة من
تضعيف العشر وارفع له تسع حسنات فيلقى عنه هذه السيئة وروى في حديث
انه عليه السلام قال اذا اذنب العبد ذنبا كتب عليه قال الاعرابي فان تاب عنه قال
محي عنه قال فان عاد قال عليه السلام تكتب عليه قال الاعرابي فان تاب قال
محي من صحيفته قال الى متى قال الى ان يستغفر ويتوب الى الله ان الله لا يمل من
المغفرة حتى يمل العبد من الاستغفار فاذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب
اليمين حسنة قبل ان يعملها فان عملها كتب عشر حسنات ثم يضاعفها الله
الى سبعمائة ضعف واذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فان عملها كتبت خطيئة
واحدة ووراءها حسن عفو الله وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال
يا رسول الله اني لا اصوم الا الشهر ولا ازيد ولا اصلي الا الخمس ولا ازيد
عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع اين انا اذا مت فتبسم
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال نعم معي اذا حفظت قلبك من
اثنين الغيبة والكذب وعينيك من اثنين النظر الى ما حرم الله وان تزدري
بهما مسلما دخلت معي الجنة على راحتي هاتين وفي الحديث الطويل لانس
ان الاعرابي قال يا رسول الله من يلي حساب الخلق فقال الله فقال
هو بنفسه قال نعم فتبسم الاعرابي فقال عليه السلام مم ضحكت يا اعرابي
قال لان الكريم اذا قدر عفى واذا حاسب سامح فقال عليه السلام صدق

٢٢

الا ولا كريم اكرم من الله هو اكرم الاكرمين ثم قال فقه الاعرابي وفيه ايضا ان
الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو ان عبدا هدمها حجرا حجرا ثم احرقها ما بلغ
جرم من استخف بولي من اولياء الله فقال الاعرابي ومن اولياء الله قال
المؤمنون كلهم اولياء الله اما سمعت قول الله تعالى الله ولي الذين آمنوا يخرجهم
من الظلمات الى النور وفي بعض الاخبار المؤمن افضل من الكعبة والمؤمن طيب
طاهر والمؤمن اكرم على الله من الملائكة وفي الخبر خلق الله جهنم من فضل
رحمته سوطا يسوق بها عباده الى الجنة وفي خبر آخر يقول الله تعالى انما
خلقت الخلق ليربحوا علي ولم اخلقهم لاربح عليهم وفي حديث ابي سعيد
الخدري عن النبي عليه السلام ما خلق الله شيئا الا جعل له ما يغلبه وجعل
رحمته تغلب غضبه وفي الخبر المشهور ان الله كتب على نفسه قبل ان يخلق ان
رحمتي تغلب غضبي وعن معاذ بن جبل وانس بن مالك انه عليه السلام قال
من قال لا اله الا الله دخل الجنة ومن كان آخر كلامه قول لا اله الا الله لم تمسه النار
ومن لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار ولا يدخل النار من في قلبه وزن
ذرة من ايمان وفي خبر آخر لو علم الكافر سعة رحمة الله ما ايس من
جنته احد ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ان زلزلة الساعة
شيء عظيم قال تدرون اي يوم هذا يوم يقال لآدم قم فابعث بعث
النار من ذريتك فيقول كم فيقال من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار
وواحد الى الجنة قال فابلس القوم وجعلوا يبكون تسكا يومهم وتعطلوا
عن الاشغال والعمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال

٣٩

وقال مالكم لا تعملون فقالوا ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا فقال لهم انتم
في الامم اين تاويل قرنا وتاريس ومنسك وياجوج وماجوج امم لا يحصيها
الا الله عز وجل انما انتم في ساير الامم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الاسود
وكالرقمة في ذراع الدابة فانظر كيف كان صلى الله عليه وسلم يسوق الخلق بازمة
الخوف والرجاء الى الله تعالى اذ ساقهم بسياط الخوف اولا فلما خرج ذلك بهم عن
حد الاعتدال الى افراط اليأس داواهم بدواء الرجاء وردهم الى الاعتدال والقصد
والآخر لم يكن مناقضا للاول ولكن ذكر في الاول ما راه سببا للشفاء واقتصر عليه فلما
احتاجوا الى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الامر فعلى الواعظ ان يقتدي بسيد الوعاظ فيتلطف
في استعمال اخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة فان لم يراع
ذلك كان ما يفسده بوعظه اكثر مما يصلحه وفي الخبر لو لم تذنبوا لخلق الله تعالى
خلقا يذنبون ليغفر لهم وفي لفظ آخر لذهب بكم وجاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم انه
هو الغفور الرحيم وفي الخبر لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل وما
هو قال العجب وقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لله ارحم بعبده المومن من
الوالدة الشفيقة بولدها وفي الخبر ليغفرن الله يوم القيمة مغفرة ما خطرت قط
على قلب احد حتى ان ابليس ليتطاول رجاء ان تصيبه وفي الخبر ان لله مائة رحمة اظهر منها
في الدنيا رحمة واحدة بها يتراحم الخلايق فتحن الوالدة الى ولدها وتعطف البهيمة على ولدها
فاذا كان يوم القيمة ضم هذه الرحمة الى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل
رحمة طباق السموات والارضين قال فلا يهلك على الله الا هالك وفي الخبر ما منكم من احد يدخله
عمله الجنة ولا ينجيه من النار قالوا ولا انت يا رسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمته

وقال اعملوا وابشروا واعلموا ان احدا لن ينجيه عمله وقال صلى الله عليه وسلم اني اختبات شفاعتي
لاهل الكباير من امتي اترونها للمطيعين المتقين للمخلطين المتلوثين وقال صلى الله عليه وسلم بعثت
بالحنيفية السمحة السهلة وقال احب ان يعلم اهل الكتابين ان في ديننا سماحة ويدل على
معناه استجابة الله للمومنين في قولهم ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من
قبلنا وقوله ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم وروي محمد بن الحنفية عن علي
رضي الله عنه انه قال لما نزل قوله فاصفح الصفح الجميل قال اذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه
قال يا جبريل فالله اكرم من ان يعاتب من عفا عنه فبكى جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم
فبعث الله اليهما ميكائيل فقال ان ربكما يقريكما السلام ويقول كيف اعاتب من عفوت
عنه هذا ما لا يشبه كرمي والاخبار الواردة في اسباب الرجاء اكثر من ان تحصى واما
الاثار فقد قال علي رضي الله عنه من اذنب ذنبا فستره الله عليه في الدنيا
فالله اكرم ان يكشف ستره عنه في الآخرة ومن اذنب ذنبا فعوقب عليه في الدنيا
فالله اعدل من ان يثني عقوبته على عبده في الاخرة وقال الثوري ما احب ان يجعل
حسابي الى ابوي لاني اعلم ان الله ارحم بي منهما وقال بعض السلف المومن اذا عصى
الله ستره عن ابصار الملايكة كيلا تراه فتشهد عليه وكتب محمد بن مصعب الى
اسود بن سالم بخطه اذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول يا رب
حجبت الملايكة صوته وكذلك الثانية والثالثة حتى اذا قال الرابعة يا رب
قال الله تعالى حتى متى تحجبون صوت عبدي عني قد علم عبدي انه ليس له رب يغفر
الذنوب غيري اشهدكم اني قد غفرت له وقال ابرهيم بن ادهم خلى لي الطواف ليلة وكانت
ليلة مطيرة مظلمة فوقفت في الملتزم عند الباب فقلت يا رب اعصمني حتى لا اعصيك

ابدا فهتف بي هاتف من البيت يا ابرهيم تسئلني العصمة وكل عبادي المؤمنين
يطلبون ذلك فاذا اعصمتهم فعلى من اتفضل ولمن اغفر وكان الحسن يقول لو لم يذنب
المؤمن لكان يطير ولكن الله قمعه بالذنوب وقال الجنيد ان بدت عين من الكرم الحقت
المسيئين بالمحسنين ولقي مالك بن دينارا ابانا فقال له الى كم تحدث الناس بالرخص فقال
يا يا يحيى اني لارجوان ترى من عفو الله يوم القيمة ما تخرق له كساك هذا من الفرح وفي حديث
ربعي بن خراش عن اخيه وكان من خيار التابعين وهو ممن تكلم بعد الموت قال لما مات اخي سجي
بثوبه والقيناه على نعشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا فقال اني لقيت ربي عز وجل فحياني
بروح وريحان ورب غير غضبان واني رايت الامر ايسر مما تظنون ولا تغتروا وان محمدا صلى الله عليه وسلم
واصحابه ينتظروني حتى ارجع اليهم قال ثم طرح نفسه فكانها حصاة وقعت في طست فحملناه ودفناه
وفي الحديث ان رجلين تواخيا في الله من بني اسرايل فكان احدهما يسرف على نفسه وكان الآخر
عابدا وكان يردعه فيقول دعني وربي ابعثت علي رقيبا حتى راه ذات يوم على كبيرة فغضب وقال
لا يغفر الله لك قال فيقول الله تعالى يوم القيمة انستطيع ان تحظر رحمتي على عبادي اذهب فقد غفرت
لك ثم قال للعابد وانت فقد وجبت لك النار قال فو الذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة اهلكت دنياه وآخرته
وروي ان لصا كان يقطع الطريق في بني اسرايل اربعين سنة فمر عيسى عليه السلام وخلفه عابد
من عباد بني اسرايل من الحواريين فقال اللص في نفسه هذا نبي الله والى جنبه حواريه
لو نزلت فكنت معهما ثالثا قال فنزل فجعل يريد ان يدنو من الحواري ويزدري نفسه تعظيما للحواري
ويقول في نفسه مثلي لا يمشي الى جنب هذا العابد قال واحس به الحواري فقال في نفسه هذا
يمشي الى جانبي فضم عنه نفسه وتقدم عيسى فمشى الى جانبه وبقي اللص خلفه فاوحى الله الى عيسى
قل لهما يستانفا العمل فقد احبطت ما سلف من اعمالهما اما الحواري فقد احبطت حسناته

لعجبه بنفسه

لعجبه بنفسه واما الآخر فقد احبطت سيئاته بما ازدرى على نفسه فاخبرهما بذلك وضم اللص
اليه في سياحته وجعله حواريه وروي عن مسروق ان نبيا من الانبياء كان ساجدا فوطي بعض الغواة
عنقه حتى الزق الحصى بجبهته قال فرفع النبي راسه اليه مغضبا وقال اذهب فلن يغفر الله لك فاوحي
الله اليه تتالى على في عبادي اني قد غفرت له ويقرب من هذا ما روى ابن عباس رضي الله عنه
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت ويدعو على المشركين ويلعنهم في صلوته فنزل قوله تعالى
ليس لك من الامر شيء او يتوب عليهم او يعذبهم فترك الدعاء عليهم وهدى الله عامة اوليك الى الاسلام
وفي الاثر ان رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة فاذا ادخلا الجنة رفع احدهما في
الدرجات العلى على صاحبه فيقول يا رب ما كان هذا في الدنيا باكثر مني عبادة فرفعته في عليين
فيقول الله تعالى انه كان يسئلني في الدرجات العلى وانت كنت تسئلني النجاة من النار فاعطيت كل
عبد سؤله وهذا يدل على ان العبادة على الرجاء افضل لان المحبة اغلب على الراجي منها على الخايف
فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجا لانعامه واكرامه ولذلك
امر الله تعالى بحسن الظن ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سلوا الله الدرجات العلى من الفردوس
فانما تسئلون كريما وقال صلى الله عليه وسلم اذا سالتم الله فاعظموا الرغبة وسلوا الفردوس الاعلى فان الله
لا يتعاظمه شيء وقال بكر بن سليم الصواف كيف تجد لك فقال لا ادري ما اقول لكم الا انكم ستعاينون
من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب ثم ما برحنا حتى اغمضناه رحمة الله عليه وقال يحيى بن معاذ في
دعائه يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الاعمال لاني اعتمد في الاخلاص على الاعمال
وكيف احرزها وانا بالآفة معروف واجدني في الذنوب اعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها
وانت بالجود موصوف وقيل ان مجوسيا استضاف ابرهيم الخليل عليه السلام فقال ان اسلمت
اضفتك فمر المجوسي فاوحى الله الى ابرهيم عليه السلام يا ابرهيم لم لم تطعمه الا بتغيير دينه ونحن

من سبعين سنة نطعمه على كفره فلو اضفته ليلة ماذا عليك فمر ابرهيم عليه السلام خلف المجوسي واضافه
فقال المجوسي ما السبب فيما بدا لك فذكر له فقال المجوسي اهكذا يعاملني ثم قال اعرض علي الاسلام
فاسلم ورای الاستاذ ابو سهل الصعلوكي ابا سهل الزجاجي في المنام وكان يقول بوعيد الابد فقال له كيف
فقال وجدنا الامر اسهل مما توهمنا ورای بعضهم ابا سهل الصعلوكي في المنام على هيئة حسنة لا توصف
فقال له يا استاذ بم نلت هذا فقال بحسن ظني بربي وحكي ان ابا العباس بن سريج رای
في مرض موته في منامه كان القيامة قد قامت واذا الجبار سبحانه يقول اين العلماء فجاؤا ثم قال
ماذا عملتم فيما علمتم قال فقلنا يا رب قصرنا واسانا فاعاد السوال كانه لم يرض به واراد
جوابا آخر فقلت اما انا فليس في صحيفتي شرك وقد وعدت ان تغفر ما دونه فقال اذهبوا فقد غفرت
لكم ومات بعد ذلك بثلاث وحكي انه كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ودفع الى غلام له
اربعة دراهم وامره ان يشتري شيا من الفواكه للمجلس فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمار
وهو يسئل لفقير شيا وهو يقول من دفع اليه اربعة دراهم دعوت له اربع دعوات قال فدفع
الغلام اليه الدراهم فقال منصور ما الذي تريد ان ادعو لك به فقال لي سيد اريد ان اتخلص منه
فدعا له بذلك فقال ان يخلف الله علي دراهمي فدعا له بذلك ثم قال الاخرى فقال يتوب الله على
سيدي فدعا له بذلك وقال الاخرى فقال يغفر الله لي ولك وللقوم فدعا منصور بذلك فرجع الغلام
فقال له سيده لم ابطات فقص عليه القصة فقال وبم دعا فقال سالت لنفسي العتق قال اذهب
فانت حر ثم قال له وما الثاني قال ان يخلف الله علي دراهمي فقال لك اربعة آلاف درهم فقال
وايش الثالث قال ان يتوب الله عليك قال تبت الى الله قال وايش الرابع قال ان يغفر الله
لي ولك وللقوم وللمذكر فقال هذا الواحدة ليست الي فلما بات راى في المنام كان قائلا يقول له
انت فعلت ما كان اليك ترى اني لا افعل ما الي قد غفرت لك وللغلام ولمنصور بن عمار وللقوم

الحاضرين اجمعين وروى عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي قال رايت جنازة يحملها ثلثة من الرجال وامراة
قال فاخذت مكان المراة وذهبنا الى المقبرة وصلينا ودفنا الميت فقلت للمراة من كان هذا منك قالت
ابني قلت ولم يكن لك جيران قالت نعم ولكن صغروا امره فقلت وايش كان فقالت مخنثا فرحمتها وذهبت
بها الى منزلي واعطيتها دراهم وحنطة وثيابا فرايت تلك الليلة كانه اتاني آت كانه القمر ليلة البدر
وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرلي فقلت من انت فقال المخنث الذي دفنتموني اليوم رحمني ربي
باحتقار الناس اياي وقال ابرهيم الاطروش كنا قعودا ببغداد مع معروف الكرخي على دجلة
اذ مر قوم احداث في زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقالوا لمعروف اما تراهم يعصون
الله مجاهرين ادع الله عليهم فرفع يديه وقال الهي كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة فقالوا انما
سالناك ان تدعو عليهم قال اذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم فهذه هي الاسباب التي يجتلب بها روح
الرجاء الى قلوب الخائفين والآيسين فاما الحمقى المغرورون فلا ينبغي ان يسمعوا شيا من ذلك
بل يسمعون ما سنورده في اسباب الخوف كالعبد السوء والصبي لغر لا يستقيمان الا بالسوط
والعصا والخشونة في الكلام فاما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا

الشطر الثاني من كتاب الخوف

وفيه بيان حقيقة الخوف وبيان درجات الخوف وبيان
اقسام المخاوف وبيان فضيلة الخوف وبيان الافضل من الخوف وبيان دواء الخوف وبيان
معنى سوء الخاتمة وبيان احوال الخائفين

بيان حقيقة الخوف

اعلم ان الخوف عبارة عن تالم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال وقد ظهر هذا في بيان
حقيقة الرجاء ومن انس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على
الدوام لم يبق له التفات الى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله اعلى من الخوف
والرجاء لانهما زمامان يمنعان النفس من الخروج الى رعوناتها والى هذا اشار الواسطي

حيث قال الخوف حجاب بين الله وبين العبد وقال ايضا اذا ظهر الحق على السراير لا يبقى فيها فضلة لرجاء
ولا خوف وبالجملة فالمحب اذا اشتغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا
في الشهود وانما دوام الشهود غاية المقامات ولكنا الآن انما نتكلم في اوايل المقامات فنقول حال
الخوف ينتظم ايضا من علم وحال وعمل اما العلم فهو العلم بالسبب المفضي الى المكروه وذلك كمن جنى
على ملك ثم وقع في يديه فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والافلات ولكن يكون تالم قلبه بالخوف
بحسب قوة علمه بالاسباب المفضية الى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه حقودا غضوبا
منتقما وكونه محفوفا بمن يحثه على الانتقام خاليا عمن يتشفع اليه ويكون هذا الخايف عاطلا عن كل
وسيلة وحسنة تمحو اثر جنايته عند الملك فالعلم بظاهر هذه الاسباب سبب لقوة الخوف وشدة
تالم القلب وبحسب ضعف هذه الاسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية قارفها
الخايف بل عن صفة المخوف كالذي وقع في مخالب السبع فانه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي سطوته
وحرصه على الافتراس غالبا وان كان افتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة جبلية للمخوف منه
كخوف من وقع في مجرى السيل او جوار حريق فان الماء انما يخاف لانه بطبعه مجبول على السيلان والاغراق
وكذا النار مجبولة على الاحراق فالعلم باسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لاحراق القلب
وتالمه وذلك الاحراق هو الخوف فكذا الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله ومعرفة
صفاته وانه لو اهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد
بمقارفة المعاصي وتارة يكون بهما جميعا وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله
وتعاليه واستغنائه وانه لا يسئل عما يفعل تكون قوة خوفه فاخوف الناس لربه اعرفهم
بنفسه وبربه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم انا اخوفكم ولذلك قال الله تعالى انما يخشى الله
من عباده العلماء ثم اذا كملت المعرفة اورثت حال الخوف واحتراق القلب ثم يفيض اثر

٧٢

الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات اما في البدن فالنحول والصفار
والغشية والزعقة والبكاء وقد تنشق به المرارة فيفضي الى الموت او يصعد الى الدماغ
فيفسد العقل او يقوى فيورث القنوط واليأس واما في الجوارح فيكفها عن المعاصي ويقيدها
بالطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل ولذلك ليس الخايف من يبكي ويمسح عينيه
بل الخايف من يترك ما يخاف العذاب عليه وقال ابو القسم الحكيم من خاف شيئا هرب منه ومن خاف الله
هرب اليه وقيل للذي النون متى يكون العبد خايفا قال اذا نزل نفسه منزلة السقيم يحتمي
مخافة طول السقام واما في الصفات فهو انه يقمع الشهوات ويكدر اللذات فيصير المعاصي
المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه اذا عرف ان فيه سما فتحترق
الشهوات بالخوف وتتادب الجوارح ويحصل في القلب الذل والخشوع والاستكانة ويفارقه
الكبر والحقد والحسد بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره
ولا يكون له شغل الا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالانفاس واللحظات ومواخذة
النفس في الخطرات والخطوات والكلمات فيكون حاله حال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري
انه يغفل عنه فيفلت او يهجم عليه فيهلك فيكون ظاهره وباطنه مشغولا بما هو خايف منه
لا متسع فيه لغيره هذا حال من غلب عليه الخوف واستولى عليه وهكذا كان جماعة من الصحابة
والتابعين وقوة المراقبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تالم القلب واحتراقه
وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله وصفاته وافعاله وبعيوب النفس وما بين
يديها من الاخطار والاهوال واقل درجات الخوف مما يظهر اثره في الاعمال ان يمنع من
المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعا فان زادت قوته كف عما يتطرق
اليه امكان التحريم فيكف عما لا يتيقن ايضا تحريمه ويسمى ذلك تقوى اذ التقوى ان يترك

ما يريبه الى ما لا يريبه وقد يحمله على ان يترك ما لا باس به مخافة ما به باس وهو الصدق في التقوى
فاذا انضم اليه التجرد في الخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا ياكله ولا يلتفت الى دنيا
يعلم انها تفارقه ولا يصرف الى غير الله نفسا من انفاسه فهو الصدق وصاحبه جدير بان يسمى
صديقا ويدخل في الصدق التقوى ويدخل في التقوى الورع ويدخل في الورع العفة فانها
عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة فاذا الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والاقدام ويتجدد
له بسبب الكف اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوة واعلى منه الورع فانه اعم لانه كف عن كل محظور
واعلى منه التقوى فانه اسم للكف عن المحظور والشبهة جميعا وراءه اسم الصديق والمقرب وتجري مجرى
الرتبة الاخيرة مما قبلها مجرى الاخص من الاعم فاذا ذكرت الاخص فقد ذكرت الكل كما انك
تقول اما عربي او عجمي والعربي اما قرشي او غيره والقرشي اما هاشمي او غيره والهاشمي اما
علوي او غيره والعلوي اما حسني او حسيني فاذا ذكرت انه حسني مثلا فقد وصفته
بالجميع وان وصفته بانه علوي وصفته بما فوقه مما هو اعم منه فكذلك اذا قلت انه
صديق فقد قلت انه متق وورع وعفيف ولا ينبغي ان تظن ان كثرة هذه الاسامي تدل
على معاني كثيرة متباينة فيختلط عليك كما اختلط على كل من طلب المعاني من الالفاظ
ولم يتبع الالفاظ المعاني فهذه اشارة الى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو
كالمعرفة الموجبة له ومن جانب السفل كالاعمال الصادرة منه كفا واقداما

بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف

اعلم ان الخوف محمود
وربما يظن ان كل ما هو محمود فكلما كان اقوى واكثر كان احمد وذلك غلط بل الخوف سوط
الله عز وجل يسوق به عباده الى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله والاصلح
للبهيمة ان لا تخلو عن سوط وكذا الصبي ولكن ذلك لا يدل على ان المبالغة في الضرب محمودة

فكذلك

فكذلك الخوف له قصور وله افراط وله اعتدال فالمحمود هو الاعتدال والوسط فاما القاصر
منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع اية من القرآن فيورث البكاء
وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل واذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب
الى الغفلة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذي
تضرب به دابة قوية لا يؤلمها الما مبرحا فلا يسوقها الى المقصد ولا يصلح لرياضتها وكذلك
خوف الناس كلهم الا العارفين والعلماء ولست اعني بالعلماء المترسمين برسوم العلماء
والمتسمين باسمائهم فانهم ابعد الناس عن الخوف بل اعني به العلماء بالله وبايامه وافعاله
وذلك مما عز وجوده الان ولذلك قال الفضيل اذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فانك ان قلت
لا كفرت وان قلت نعم كذبت واشار به الى ان الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها
بالطاعات وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق ان يسمى خوفا واما
المفرط فهو الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج الى الياس والقنوط وهو مذموم
ايضا لانه يمنع من العمل والمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل فلولاه لما
كان الخوف كمالا لانه بالحقيقة نقصان لان منشاه الجهل والعجز اما الجهل فهو انه ليس
يدري عاقبة امره ولو عرف ذلك لم يكن خائفا لان المخوف هو الذي يتردد فيه واما العجز فهو
انه متعرض لمحذور لا يقدر على دفعه فاذا هو محمود بالاضافة الى نقص الادمي وليس المحمود
في ذاته وانما المحمود في ذاته هو العلم والقدرة وكل ما يجوز ان يوصف الله به وما لا يجوز
وصف الله به فليس بكمال في ذاته وانما يصير محمودا بالاضافة الى نقص هو اعظم منه كما يكون
احتمال الم الدواء محمودا لانه اهون من الم المرض والموت فما يخرج الى القنوط فهو مذموم وقد
يخرج الخوف ايضا الى المرض والضعف والى الوله والدهشة وزوال العقل وقد يخرج الى
الموت

وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة او يمرضها او يكسر
عضوا من اعضائها وانما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم اسباب الرجاء واكثر منها ليعالج به صدمة
الخوف المفرط المفضي الى القنوط او احد هذه الامور وكل ما يراد لامر فالمحمود منه ما يفضي الى
المراد المقصود منه وما يقصر عنه او يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى
والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وساير الاسباب الموصلة الى الله وكل ذلك يستدعي الحياة
مع صحة البدن وسلامة العقل فكل ما يقدح في هذه الاسباب فهو مذموم **فان قلت**
من خاف فمات من خوفه فهو شهيد فكيف يكون حاله مذموما **فاعلم** ان معنى كونه شهيدا
ان له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو
بالاضافة اليه فضيلة فاما بالاضافة الى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبيله
فليس بفضيلة بل السالك سبيل الله بطريق الفكر والمشاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة
رتبة شهيد وشهداء ولولا ذلك لكانت رتبة صبي يقتل او مجنون يفترسه سبع اعلى من رتبة نبي
وولي يموت حتف انفه وذلك محال فلا ينبغي ان يظن هذا بل افضل السعادات طول العمر في
طاعة الله وكل ما ابطل العمر او العقل او الصحة التي يتعطل العمر بتعطيلها فهو خسران ونقصان
بالاضافة الى امور اخر وان كان بعض اقسامها فضيلة بالاضافة الى امور كما كانت الشهادة
فضيلة بالاضافة الى ما دونها لا بالاضافة الى درجة النبيين والصديقين فاذا الخوف
ان لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابة وان اثر فله
درجات بحسب ظهور اثره فان لم يحمل الا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة
فان اثمر الورع فهو اعلى واقصى درجاته ان يثمر درجات الصديقين وذلك ان يسلب
الظاهر والباطن عما سوى الله سبحانه حتى لا يبقى لغير الله فيه متسع فهذا اقصى ما يحمد منه وذلك

مع بقاء الصحة والعقل فان جاوز هذا الى ازالة العقل والصحة فهو مرض يجب علاجه
ان قدر عليه ولو كان محمودا لما وجب علاجه باسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ولذلك كان
سهل يقول للمريدين الملازمين للجوع اياما كثيرة احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله تعالى ولي
ناقص العقل

بيان اقسام الخوف بالاضافة الى ما يخاف منه

اعلم ان الخوف لا يتحقق الا بانتظار مكروه والمكروه اما ان يكون مكروها في ذاته
كالنار واما ان يكون مكروها لانه يفضي الى المكروه كما تكره المعاصي لادائها الى مكروه
في الآخرة وكما يكره المريض الفواكه المضرة لادائها الى الموت ولا بد لكل خائف من ان يتمثل
في نفسه مكروها من احد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحترق قلبه بسبب استشعار
ذلك المكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة فالذين يغلب
على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره كالذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة او خوف نقض التوبة
ونكث العهد او خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى او خوف زوال رقة
القلب وتبدلها بالقساوة او خوف الميل عن الاستقامة او خوف استيلاء العادة في اتباع
الشهوات المالوفة او خوف الاغترار بزخارف الدنيا او خوف اطلاع الله على سريرته
في حال غفلته عنه او خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء او خوف السابقة التي سبقت له
في الازل فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد منها خصوص فائدة وهو سلوك
سبيل الحذر عما يفضي الى المخوف فمن خاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن عادته
والذي يخاف من اطلاع الله على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس وهكذا الى بقية
الاقسام واغلب هذه المخاوف على المتقين خوف الخاتمة فان الامر في ذلك مخطر واعلى
الاقسام وادلها على كمال المعرفة خوف السابقة لان الخاتمة تبع السابقة وفرع يتفرع

عنها بعد تخلل اسباب كثيرة فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في ام الكتاب والخائف من الخاتمة بالاضافة
الى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقهما بتوقيع يحتمل ان يكون هو حز الرقبة ويحتمل ان يكون
هو تسليم الوزارة ولم يصل التوقيع اليهما بعد فيرتبط قلب احدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وانه عما ذا
يظهر ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وانه ما الذي خطر له في حال التوقيع من رحمة
او غضب وهذا التفات الى السابقة فهو اعلى من الالتفات الى ما هو فرع وهذا كانقسام الخائفين
الى من يخاف معصيته وجنايته والى من يخاف الله نفسه لصفته وجلاله واوصافه التي
يقتضي الهيبة لا محالة فهذا اعلى رتبة ولذلك يبقى خوفه وان كان في طاعة الصديقين واما
الآخر فهو في عرضة الغرور والامن ان واظب على الطاعة فالخوف من المعصية خوف الصالحين
والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى فكل من عرفه وعرف
صفاته ما هو جدير بان يخاف من غير جناية بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف
الله ولم يخف معصيته ولولا انه مخوف في نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها
ومهد له اسبابها فان تيسر اسباب المعصية ابعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية
استحق بها ان يسخر للمعصية الثانية ويجري عليه اسبابها ولا سبق قبل الطاعة
وسيلة توسل بها من يسرت له الطاعة ومهد له سبيل القربات فالعاصي قد قضي
عليه بالمعصية شاء ام ابى وكذا المطيع فالذي رفع محمدا صلى الله عليه وسلم اعلى عليين
من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ووضع ابا جهل في اسفل سافلين من غير جناية
سبقت قبل وجوده جدير بان يخاف لصفة جلاله فان من اطاع اطاع
بان سلط عليه ارادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الارادة الجازمة
والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا والذي عصى عصى لانه سلط عليه ارادة

قوية جازمة وآتاه الاسباب والقدرة فكان الفعل بعد الارادة والقدرة ضروريا
فليت شعري ما الذي اوجب اكرام هذا وتخصيصه بتسليط ارادة الطاعة عليه وما الذي اوجب
اهانة الآخر وابعاده بتسليط دواعي المعصية عليه وكيف يحال ذلك على العبد فاذا
كانت الحوالة ترجع الى القضاء الازلي من غير جناية ولا وسيلة فالخوف ممن يقضي
بما يشاء ويحكم بما يريد ووراء هذا المعنى سر القدر الذي لا يجوز افشاؤه ولا يمكن
تفهيم الخوف منه جل جلاله في صفاته الا بمثال لولا اذن الشرع لم يتجرأ به على
ذكره بصير فقد جاء في الخبر ان الله تعالى اوحى الى داود عليه السلام يا داود خفني
كما تخاف السبع الضاري فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وان كان لا يقف بك على
سببه وقوف على سر القدر ولا يكشف ذلك الا لاهله والحاصل ان السبع يخاف
لا لجناية سبقت اليه بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ولانه ينفعل
ما يفعل ولا يبالي فان قتلك لم يرق قلبه عليك ولم يتألم بقتلك وان خلاك
لم يخلك شفقة عليك وابقاء على روحك بل انت عنده اخس من ان يلتفت اليك حيا
كنت او ميتا بل اهلاك الف مثلك واهلاك نملة عنده على وتيرة واحدة اذ لا يقدح ذلك
في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته ولله المثل الاعلى ولكن من
عرف عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي اقوى واوثق واجلى من المشاهدة الظاهرة
انه صادق في قوله عز وجل هؤلاء في الجنة ولا ابالي وهؤلاء في النار ولا ابالي
ويكفيك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستغناء وعدم المبالاة **الطبقة
الثانية من الخائفين** ان يتمثل في انفسهم ما هو المكروه وذلك مثل سكرات
الموت وشدته او سؤال منكر ونكير او عذاب القبر او هول المطلع او هيبة الموقف بين

يدي الله تعالى والحياء من كشف الستر والسؤال عن التقصير أو الخوف من الصراط
وحدّته وكيفية العبور عليه أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها أو الخوف من الحجاب
عن الله عز وجل وكل هذه الأسباب مكروهة في أنفسها فهي لا محالة مخوفة وتختلف
أحوال الخائفين فيها وأعلاها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله وهو خوف
العارفين وما قبل ذلك خوف العابدين والصالحين والزاهدين وكافة العاملين
ومن لم تكمل معرفته ولم تنفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق
وإذا ذكر له أن العارف لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك منكراً في
باطنه وتعجب منه في نفسه وربما أنكر لذة النظر إلى وجه الله الكريم لولا منع الشرع إياه
من إنكار ذلك فيكون اعترافه باللسان عن ضرورة التقليد وإلا فباطنه لا
يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر إلى الألوان
والوجوه الحسان وبالجملة كل لذة يشاركه البهائم فيها فأما لذة العارفين فلا يدركها
غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلاً له ومن كان أهلاً له استبصر بنفسه
واستغنى عن أن يشرحه غيره فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين

بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه

اعلم أن فضيلة الخوف تارة تعرف
بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والأخبار أما الاعتبار فسبيله أن نعلم أن فضيلة
الشيء بقدر غنائه في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله عز وجل إذ لا مقصود سوى السعادة
ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه فكل ما أعان عليه فله فضيلة وفضيلته
بقدر إعانته وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله عز وجل إلا بتحصيل محبته والأنس
به في الدنيا ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ولا يحصل

الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقلاع حب الدنيا
من القلب ولا ينقلع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع
الشهوات ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات
فإذاً فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوة وبقدر ما يكف عن المعاصي ويحث على الطاعات
ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه
تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب
بها إلى الله زلفى وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فما ورد في فضيلة
الخوف خارج عن الحصر وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة
والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان قال الله عز وجل هدى ورحمة للذين هم
لربهم يرهبون وقال تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء فوصفهم بالعلم لخشيتهم وقال تعالى
رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة
الخوف لأن الخوف ثمرة العلم ولذلك جاء في خبر موسى عليه السلام وأما الخائفون فإن لهم الرفيق
الأعلى لا يشاركون فيه فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرفيق الأعلى وذلك لأنهم العلماء والعلماء
لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن
يلحق بهم ولذلك لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا
وبين القدوم على الله تعالى كان يقول أسألك الرفيق الأعلى فإذاً إن نظر إلى مثمره فهو
العلم وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ولا يخفى ما ورد في فضائلهما حتى إن العاقبة
صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصاً بالله تعالى والصلاة مخصوصة
برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين وصلى الله على محمد

وآله اجمعين وقد خصص الله عز وجل التقوى بالاضافة الى نفسه فقال تعالى لن ينال الله لحومها
ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم والتقوى عبارة عن كف بمقتضى الخوف كما سبق ولذلك
قال عز وجل ان اكرمكم عند الله اتقيكم ولذلك وصى الله عز وجل الاولين والاخرين بالتقوى
فقال ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله وقال تعالى وخافون ان
كنتم مؤمنين فامر بالخوف واوجبه وشرطه في الايمان فلذلك لا يتصور ان ينفك مؤمن عن خوف
وان ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وايمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة
التقوى اذا جمع الله بين الاولين والآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمع اقصاهم
كما يسمع ادناهم فيقول يا ايها الناس اني قد انصت لكم منذ خلقتكم الى يومكم هذا فانصتوا
الى اليوم انما هي اعمالكم ترد عليكم ايها الناس اني جعلت نسبا فوضعتم ورفعتم نسبكم قلت
ان اكرمكم عند الله اتقيكم وابيتم الا ان تقولوا فلان بن فلان وفلان اغنى من فلان
فاليوم اضع نسبكم وارفع نسبي اين المتقون فينصب للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم الى منازلهم
فيدخلون الجنة بغير حساب وفي خبر موسى عليه السلام واما الورعون فانه لا يبقى احد الا
ناقشته الحساب وفتشت عما في يديه الا الورعين فاني استحييهم واجلهم ان اوقفهم للحساب
والورع والتقوى اسامي اشتقت من معاني شرطها الخوف فان خلى عن الخوف لم يسم بهذه
الاسامي وكذلك ما ورد في فضائل الذكر لا يخفى وقد جعله مخصوصا بالخائفين فقال تعالى
سيذكر من يخشى وقال عز وجل ولمن خاف مقام ربه جنتان وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال الله عز وجل وعزتي لا اجمع على عبدي خوفين ولا اجمع له امنين فاذا امنني في الدنيا اخفته
يوم القيمة واذا خافني في الدنيا امنته يوم القيمة وقال الفضيل وقد يرفع الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم من خاف الله خافه كل شيء ومن خاف من غير الله خاف من كل شيء وقيل للحسن يا ابا سعيد

كيف نصنع بمجالس اقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير فقال انك والله ان تخالط قوما يخوفونك
حتى يدركك امن خير من ان تصحب قوما يؤمنونك حتى يدركك الخوف وقال ابو سليمان الداراني
ما فارق الخوف قلبا الا خرب وقالت عائشة رضي الله عنها قلت يا رسول الله والذين
يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الرجل يسرق ويزني قال لا بل الرجل يصوم ويتصدق
ويصلي ويخاف ان لا يقبل منه والتشديدات الواردة في الامن من مكر الله وعذابه
لا تنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف لان مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه وضد
الخوف الامن كما ان ضد الرجاء الياس وكما دل مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك
يدل مذمة الامن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول كلما ورد في فضل الرجاء فهو دليل
على فضل الخوف لانهما متلازمان فان كل من رجا محبوبا فلا بد ان يخاف فوته فهو اذا لا يحبه فلا
يكون بانتظاره راجيا فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك احدهما عن الآخر نعم يجوز
ان يغلب احدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز ان يشتغل القلب باحدهما ولا يلتفت الى الآخر في الحال
لغفلته عنه وهذا لان من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه اذ المعلوم لا يرجى ولا
يخاف فاذا المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة فتقدير وجوده يروح القلب
وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب فهو الخوف والتقديران متقابلان لا محالة اذا
كان ذلك الامر المنتظر مشكوكا فيه نعم احد طرفي الشك قد يترجح بحضور بعض الاسباب ويسمى
ذلك ظنا فيكون ذلك قوي الرجاء وخفي الخوف بالاضافة اليه وكذا بالعكس وعلى كل حال
فهما متلازمان ولذلك قال تعالى يدعوننا رغبا ورهبا وقال تعالى يدعون ربهم خوفا وطمعا
ولذلك عبرت العرب عن الخوف بالرجاء فقال تعالى لا ترجون لله وقارا اي لا تخافون وكثيرا
ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما اذ عادة العرب التعبير عن الشيء

بما يلازمه بل اقول كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو اظهار لفضيلة الخشية فان
البكاء ثمرة الخشية وقد قال الله تعالى فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا وقال تعالى يبكون ويزيدهم
خشوعا وقال تعالى افمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وقال صلى الله عليه وسلم
ما من عبد مؤمن يخرج من عينيه دموع وان كانت مثل راس الذباب من خشية الله ثم اصاب شيئا من حر
وجهه الا حرمه الله على النار وقال صلى الله عليه وسلم لا يلج النار احد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن
في الضرع وقال عقبة بن عامر ما النجاة يا رسول الله قال امسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك
على خطيئتك وقالت عائشة رضي الله عنها قلت يا رسول الله ايدخل الجنة احد من امتك بغير حساب
قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى وقال صلى الله عليه وسلم ما من قطرة احب الى الله من قطرة دمع من خشية الله
او قطرة دم اهريقت في سبيل الله وقال صلى الله عليه وسلم اللهم ارزقني عينين هطالتين تشفيان بذروف الدمع
قبل ان يصير الدمع دما والاضراس جمرا وقال صلى الله عليه وسلم سبعة يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله وذكر منهم
رجلا ذكر الله في خلوة ففاضت عيناه فاذا كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع
وفضل العلم ومذمة الامن فهو دلالة على فضل الخوف لان جملة ذلك متعلقة به تعلق السبب او تعلق
المسبب

بيان ان الافضل هو غلبة الخوف او غلبة الرجاء او اعتدالهما

اعلم ان الاخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر اليهما فيعتريه شك في ان الافضل
ايهما وقول القائل الخوف افضل ام الرجاء سؤال فاسد يضاهي قول القائل الخبز افضل ام الماء
وجوابه ان الخبز افضل للجائع والماء افضل للعطشان فان اجتمعا نظر الى الاغلب فان كان
الجوع اغلب فالخبز افضل وان كان العطش اغلب فالماء افضل فان استويا فهما متساويان
وهذا لان كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالاضافة الى مقصوده لا الى نفسه والخوف
والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الداء الموجود فان كان الغالب

علي

على القلب داء الامن من مكر الله والاغترار به فالخوف افضل وان كان الاغلب هو الياس
والقنوط من رحمة الله فالرجاء افضل وكذلك ان كان الغالب على العبد المعصية فالخوف
افضل ويجوز ان يقال مطلقا الخوف افضل على التاويل الذي يقال الخبز افضل من السكنجبين
اذ يعالج بالخبز مرض الجوع وبالسكنجبين مرض الصفراء ومرض الجوع اكثر واغلب فالحاجة
الى الخبز اكثر فهو افضل فبهذا الاعتبار غلبة الخوف افضل لان المعاصي والاغترار
على الخلق اغلب وان نظر الى مطلع الخوف والرجاء فالرجاء افضل لان الرجاء يستقى
من بحر الرحمة ومستقى الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضي
اللطف والرحمة كانت المحبة عليه اغلب وليس وراء المحبة مقام واما الخوف فمستنده
الالتفات الى الصفات التي تقتضي العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء وعلى
الجملة فما يراد لغيره ينبغي ان يستعمل فيه لفظ الاصلح فنقول اكثر الخلق الخوف اصلح
لهم من الرجاء وذلك لاجل غلبة المعاصي فاما التقي الذي ترك ظاهر الاثم
وباطنه وخفيه وجليه فالاصلح ان يعتدل خوفه ورجاؤه ولذلك قيل لو وزن
رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا ولذلك قال عمر رضي الله عنه لو نودي ليدخل النار
كل الناس الا رجلا لرجوت ان اكون انا ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس الا رجل
لخشيت ان اكون ذلك الرجل وهذا عبارة صادرة عن غاية الخوف وغاية الرجاء
واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي فمثل
عمر ينبغي ان يساوي خوفه ورجاؤه فاما العاصي اذا ظن انه الرجل الذي
استثني من الذين امروا بدخول النار كان ذلك دليلا على اغتراره فان قلت
مثل عمر رضي الله عنه لم ينبغي ان يساوي خوفه رجاءه بل ينبغي ان يغلب رجاؤه

كما سبق في كتاب الرجاء دواء ضعف الرجاء ينبغي ان يكون بحسب قوة اسبابه كما مثل بالبذر والزرع
والزرع ومعلوم ان من بث البذر الصحيح في ارض نقية وواظب على تعهدها وجاء بجميع شروطها
غلب على قلبه رجاء الادراك ولم يكن خوفه مساويا لرجائه فهكذا ينبغي ان يكون احوال المتقين
فاعلم ان من ياخذ المعارف من الالفاظ والامثلة يكثر زلله وذلك وان اوردناه
مثالا فليس يضاهي ما نحن فيه من كل وجه لان سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة بصحة الارض وطهارتها
وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وانما مثال مسئلتنا بذر لم يجرب
جنسه وقد بث في ارض غريبة لم يعهدها الزارع ولم يختبرها وفي بلاد ليس يدري ايكثر
الصواعق فيها ام لا فان هذا الزارع وان ادى كنه مجهوده وجاء بكل مقدوره فلا يغلب
رجاؤه على خوفه والبذر في مسئلتنا الايمان وشروط صحته دقيقة والارض القلب وخفايا
خبثه وصفاته من الشرك الخفي والنفاق والرياء وخفايا الاخلاق فيه غامضة والآفات
هي الشهوات وزخارف الدنيا والتفات القلب اليها في مستقبل الزمان وان سلم في الحال
وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة اذ قد يعرض من الاسباب ما لا يطاق مخالفته
ولم يجرب مثله والصواعق هي سكرات الموت واضطراب الاعتقاد عند ذلك وذلك
مما لم يجرب ثم الحصاد والادراك عند المنصرف في القيامة الى الجنة وذلك لم يجرب فمن
عرف هذه الامور فان كان ضعيف القلب جبانا في نفسه غلب خوفه على رجائه لا محالة
كما يحكى في احوال الخائفين من الصحابة والتابعين وان كان قوي القلب ثابت الجاش
تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه فاما ان يغلب رجاؤه فلا ولقد كان عمر
رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة انه هل يعلم به من آثار النفاق
شيئا اذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خصه بعلم المنافقين فمن ذا الذي يقدر على تطهير

قلبه

قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي وان اعتقد نقاء قلبه من ذلك فمن اين يأمن
من مكر الله بتلبيس حاله واخفاء عيبه منه وان وثق به فمن اين يثق ببقائه على ذلك
الى تمام حسن الخاتمة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليعمل عمل اهل الجنة
خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة الا شبر وفي رواية الا فواق ناقة فيسبق عليه
الكتاب فيختم له بعمل اهل النار وفواق الناقة لا يحتمل عملا بالجوارح انما هو خاطر يختلج
في القلب عند الموت فيقتضي خاتمة السوء فكيف يؤمن من ذلك فاذا اقصى غايات المؤمن ان
يعتدل خوفه ورجاؤه اما غلبة الرجاء في غالب الناس فانما يكون مستندا الى الاغترار وقلة
المعرفة ولذلك جمع الله بينهما في وصف من اثنى عليهم فقال يدعون ربهم خوفا وطمعا وقال تعالى
ويدعوننا رغبا ورهبا واين مثل عمر رضي الله عنه فالخلق الموجودون كلهم الاصلح لهم غلبة الخوف
بشرط الا يخرجهم الى الياس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سببا للتكاسل عن العمل
والانهماك في المعاصي فان ذلك قنوط وليس بخوف انما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدر جميع
الشهوات ويزعج القلب عن الركون الى الدنيا ويدعوه الى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف
المحمود دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون الياس الموجب للقنوط
وقد قال يحيى بن معاذ من عبد الله بمحض الخوف غرق في بحار الافكار ومن عبد الله بمحض الرجاء
تاه في مفازة الاغترار ومن عبد الله بالخوف والرجاء استقام على محجة الاذكار وقال مكحول
الدمشقي من عبد الله بالخوف فهو حروري ومن عبد الله بالرجاء فهو مرجئ ومن عبد الله
بالمحبة فهو زنديق ومن عبد الله بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد فاذا لا بد من الجمع بين
هذه الامور وغلبة الخوف هو الاصلح ولكن قبل الاشراف على الموت اما عند الموت فالاصلح غلبة
الرجاء وحسن الظن لان الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل

فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق اسباب الخوف فان ذلك يقطع نياط
قلبه ويعين على تعجيل موته واما روح الرجاء فانه يقوى قلبه وتحبب اليه ربه الذي اليه
رجوعه ولا ينبغي ان يفارق احدا الدنيا الا وهو محب لله عز وجل ليكون محبا للقاء الله تعالى
فان من احب لقاء الله احب الله لقاءه والرجاء يقارنه المحبة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب والمقصود
من العلوم والاعمال كلها معرفة الله تعالى حتى يثمر المعرفة المحبة فان المصير اليه والقدوم بالموت
عليه ومن قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبته ومن فارق محبوبه اشتدت محنته وعذابه
فمهما كان الغالب عند الموت على القلب حب الاهل والولد والمال والمسكن والرفقاء والاصحاب
فهذا رجل محابه كلها في الدنيا فالدنيا جنته اذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب
فموته خروج من الجنة وحيلولة بينه وبين ما يشتهيه ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهيه
فاما اذا لم يكن محبوبه سوى الله وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه فالدنيا وعلائقها شاغلة له
عن المحبوب فالدنيا اذا سجنه لان السجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الانسراح الى محابه فموته
بذلك قدوم على محبوبه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من افلت من السجن وخلي بينه وبين محبوبه
بلا مانع ولا مكدر فهذا اول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلا عما اعد الله
لعباده الصالحين مما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر وفضلا عما اعد للذين استحبوا الدنيا
على الاخرة ورضوا بها واطمأنوا اليها من الانكال والسلاسل والاغلال وضروب الخزي والنكال
فنسال الله تعالى ان يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ولا مطمع في اجابة هذا الدعاء الا
باكتساب حب الله ولا سبيل اليه الا باخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ما سوى الله
من جاه ومن مال ووطن فالاولى ان ندعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم اذ قال اللهم ارزقني
حبك وحب من احبك وحب ما يقربني الى حبك واجعل حبك احب الي من الماء البارد والغرض ان

غلبة الرجاء عند الموت اصلح لانه اجلب للمحبة وغلبة الخوف قبل الموت اصلح لانه امحق لنار الشهوات واقمع
لمحبة الدنيا من القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لا يموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بالله وقال تعالى
انا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابنه يا بني حدثني بالرخص
واذكر لي الرجاء حتى القى الله تعالى على حسن الظن به وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد
جزعه جمع العلماء حوله يرجونه وقال احمد بن حنبل عند الموت لابنه اذكر لي الاخبار التي فيها الرجاء
وحسن الظن والمقصود من ذلك كله ان يحبب الله الى نفسه ولذلك اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام
ان حببني الى عبادي فقال بماذا قال بان تذكر لهم آلائي ونعمائي فاذا غاية السعادة ان يموت
العبد محبا لله وانما تحصل المحبة بالمعرفة وباخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كالسجن المانع
من المحبوب ولذلك رأى بعض الصالحين ابا سليمان الداراني في المنام وهو يطير فساله فقال الان
افلت فلما اصبح سال عن حاله فقيل له انه مات البارحة

بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف

اعلم ان ما ذكرناه في دواء الصبر وشرحناه في كتاب الصبر والشكر
هو كاف في هذا الغرض لان الصبر لا يمكن الا بعد حصول الخوف والرجاء لان اول مقامات الدين
اليقين الذي هو عبارة عن قوة الايمان بالله واليوم الاخر والجنة والنار وهذا اليقين بالضرورة
يهيج الخوف من النار والرجاء للجنة والخوف والرجاء يقويان على الصبر فان الجنة قد حفت بالمكاره
فلا يصبر على تحملها الا بقوة الرجاء والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على ترك الشهوات
الا بقوة الخوف ولذلك قال علي رضي الله عنه من اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات
ومن اشفق من النار رجع عن المحرمات ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء الى مقام
المجاهدة والتجرد لذكر الله والفكر فيه على الدوام ويؤدي دوام الذكر الى الانس ويؤدي
دوام الفكر الى كمال المعرفة ويؤدي كمال الانس الى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وساير
المقامات فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين فليس بعد اصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء

ولا بعدهما مقام سوى الصبر به المجاهدة والتجرد لله باطنا وظاهرا ولا مقام بعد المجاهدة لمن فتح
له الطريق الا الهداية والمعرفة ولا مقام بعد المعرفة الا المحبة والانس ومن ضرورة المحبة الرضا
بفعل المحبوب والثقة بعنايته وهو التوكل فاذا فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية ولكنا نفرد
الخوف بكلام جلي فنقول الخوف يحصل بطريقين مختلفين احدهما اعلى من الاخر ومثال ذلك ان
الصبي اذا كان في بيت فدخل عليه سبع او حية ربما كان لا يخاف وربما مد يده الى الحية ليأخذها
ويلعب بها ولكن اذا كان معه ابوه وهو عاقل خاف من الحية وهرب منها فاذا نظر الصبي الى ابيه وهو يرتعد
فرايصه ويحتال في الهرب قام معه وغلب عليه الخوف ووافقه في الهرب فخوف الاب عن بصيرة ومعرفة
بصفة الحية وسمها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته واما خوف الابن فايمان بمجرد
التقليد لانه يحسن الظن بابيه ويعلم انه لا يخاف الا من سبب مخوف في نفسه فيعلم ان السبع مخوف
ولا يدري وجه الخوف فاذا عرفت هذا المثال فاعلم ان الخوف من الله تعالى على مقامين احدهما
الخوف من عذابه والثاني الخوف منه في ذاته فاما الخوف منه فهو خوف العلماء وارباب القلوب
العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله ويحذركم الله
نفسه وقوله تعالى اتقوا الله حق تقاته واما الاول فهو خوف عموم الخلق وهو حاصل باصل
الايمان بالجنة والنار وكونهما جزائين على الطاعة والمعصية وضعفه بسبب الغفلة وبسبب ضعف
الايمان وانما تزول الغفلة بالوعظ والتذكير وملازمة الفكر في اهوال القيمة واصناف العذاب
في الاخرة ويزيد ايضا بالنظر الى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة احوالهم فان فاتت المشاهدة
فالسماع لا يخلو عن تاثير واما الثاني وهو الاعلى ان يكون الله هو المخوف اعني ان يخاف العبد
البعد والحجاب عنه ويرجو القرب منه قال ذو النون خوف النار عند خوف الفراق كقطرة
في بحر لجي وهذه خشية العلماء حيث قال عز وجل انما يخشى الله من عباده العلماء ولعموم المؤمنين

العلماء قال

ايضا حظ من هذه الخشية ولكن هو مجرد التقليد يضاهي خوف الصبي من الحية تقليدا لابيه وذلك
لا يستند الى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب حتى ان الصبي ربما يرى المعزم يقدم على اخذ
الحية فينظر اليه ويغتر به فيجترئ على اخذها تقليدا له كما اجترأ على الهرب تقليدا لابيه والعقايد التقليدية ضعيفة في الغالب
الا اذا قويت بمشاهدة اسبابها الموكدة لها على الدوام والمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات
واجتناب المعاصي مدة طويلة على الاستمرار فاذا من ارتقى الى ذروة المعرفة وعرف الله سبحانه خافه
بالضرورة فلا يحتاج الى علاج لجلب الخوف كما ان من عرف السبع وراى نفسه واقعا في مخالبه لا يحتاج
الى علاج ليجلب الخوف الى قلبه بل يخاف بالضرورة شاء ام ابى ولذلك اوحى الله تعالى الى داود خفني كما
تخاف السبع الضاري ولا حيلة في جلب الخوف من السبع الضاري الا معرفة السبع ومعرفة الوقوع
في مخالبه فلا يحتاج الى حيلة سوى ذلك فمن عرف الله سبحانه عرف انه يفعل ما يشاء ولا يبالي ويحكم
ما يريد ولا يخاف فقرب الملايكة من غير وسيلة سابقة وابعد ابليس من غير جريمة سالفة بل صفته
جل جلاله ما ترجمه قوله تعالى هؤلاء في الجنة ولا ابالي وهؤلاء في النار ولا ابالي وان خطر ببالك انه
لا يعاقب الا على معصية ولا يثيب الا على طاعة فتامل انه لم يمد المطيع باسباب الطاعة حتى يطيع شاء
ام ابى ولم يمد العاصي بدواعي المعصية حتى يعصي شاء ام ابى فانه مهما اطلق الغفلة والشهوة والقدرة
على قضاء الشهوة كان الفعل واقعا بالضرورة فان كان ابعده لانه عصاه فلم حمله على المعصية
هل لذلك معصية سابقة حتى تتسلسل الى غير نهاية او تقف لا محالة على اول لا علة له من جهة
العبد بل قضي عليه في الازل وعن هذا المعنى عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ قال حج ادم موسى
وقال خلقك الله في الجنة ونهاك عن الشجرة وفعل بك كيت وكيت فاكلت الشجرة واخرجت نفسك وذريتك
من الجنة فقال ادم وهل كان ذلك مكتوبا علي في الازل قال نعم فقال النبي صلى الله عليه وسلم
فحج ادم موسى فمن عرف السبب في هذا الامر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين

على سر القدر ومن سمع هذا فآمن به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ويحصل لكل واحد
من الفريقين خوف فان كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في مخالب السبع
والسبع قد يغفل بالاتفاق فيخليه وقد يهجم عليه فيفترسه وذلك بحسب ما يتفق ولذلك الاتفاق اسباب
مرتبة بقدر معلوم لكن اذا اضيف الى من لا يعرفه سمي اتفاقا واذا اضيف الى علم الله يجوز ان يسمى
اتفاقا والواقع في مخالب السبع لو كملت معرفته لكان لا يخاف السبع لان السبع مسخر ان سلط عليه
الجوع افترسه وان سلطت عليه الغفلة خلى وترك وانما يخاف خالق السبع وخالق صفاته
ولست اقول مثال الخوف من السبع هو عين الخوف من الله عز وجل لان المهلك بواسطة السبع
هو الله فاعلم ان سباع الآخرة مثل سباع الدنيا وان الله خلق اسباب العذاب واسباب الثواب
وخلق لكل واحد اهلا يسوقهم القدر المتفرع عن القضاء الجزم الازلي الى ما خلق له فخلق
الجنة وخلق لها اهلا سخروا لاسبابها شاؤا ام ابوا فلا يرى احد نفسه في متلاطم امواج القدر
الا غلبه الخوف بالضرورة فهذه مخاوف العارفين بسر القدر فمن قعد به القصور عن الارتقاء
الى يفاع الاستبصار فسبيله ان يعالج نفسه بسماع الاخبار والآثار فيطالع احوال الخائفين واقوالهم
وينسب عقولهم ومناصبهم الى مناصب الراجين المغرورين فلا يتمارى في ان الاقتداء بهم اولى
لانهم الانبياء والاولياء والعلماء واما الآمنون فهم الفراعنة الجهال الاغبياء اما نبينا
صلى الله عليه وسلم وهو سيد الاولين والآخرين كان اشد الناس خوفا حتى روي انه كان
يصلي على طفل وفي رواية انه سمع قائلة تقول هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة
فغضب وقال وما يدريك انه كذلك والله اني رسول الله وما ادري ما يصنع بي ان الله
خلق الجنة وخلق لها اهلا لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم وروي انه قال ذلك ايضا على جنازة عثمان
بن مظعون وكان من المهاجرين الاولين فقالت ام سلمة هنيئا لك الجنة فكانت ام سلمة تقول بعد ذلك

والله لا ازكي احدا بعد عثمان وقال محمد بن خولة الحنفية والله لا ازكي احدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم
ولا ابي الذي ولدني قال فثارت الشيعة فاخذ يذكر من فضائل علي ومناقبه رضي الله عنه
وروي في حديث آخر ان رجلا من اهل الصفة استشهد فقالت امه هنيئا لك عصفور من
عصافير الجنة هاجرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم
وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره وفي حديث آخر انه صلى الله عليه وسلم على بعض اصحابه
وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا له الجنة فقال صلى الله عليه وسلم من هذه المتألية على الله فقال المريض
هي امي يا رسول الله فقال وما يدريك لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم
وهو يقول صلى الله عليه وسلم شيبتني سورة هود واخواتها سورة الواقعة واذا الشمس كورت وعم
يتساءلون فقال العلماء لعل ذلك لما في سورة هود من الابعاد كقوله الا بعدا لثمود الا بعدا لعاد
الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود مع علمه صلى الله عليه وسلم بانه لو شاء الله ما اشركوا اذ لو شاء لآتى كل نفس
هداها وفي سورة الواقعة ليس لوقعتها كاذبة اي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى
نزلت الواقعة اما خافضة قوما كانوا مرفوعين في الدنيا واما رافعة قوما كانوا مخفوضين في الدنيا
وفي سورة التكوير اهوال القيمة وانكشاف الخاتمة واذا الجحيم سعرت واذا الجنة ازلفت علمت
نفس ما احضرت وفي عم يتساءلون يوم ينظر المرء ما قدمت يداه وقوله تعالى لا يتكلمون الا من
اذن له الرحمن وقال صوابا والقرآن من اوله الى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن
فيه الا قوله تعالى واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى لكان ذلك كافيا اذ علق
المغفرة على اربعة شروط يعجز العبد عن آحادها وكذلك قوله تعالى والعصر ان الانسان لفي خسر
الى آخر السورة فهي اربعة شروط للخلاص من الخسران وانما كان خوف الانبياء صلوات الله عليهم
مع ما فاض عليهم من النعم لانهم لم يأمنوا مكر الله ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون حتى روي ان النبي صلى الله
عليه وسلم

وجبريل يبكيان خوفا من الله فاوحى الله اليهما لم تبكيان وقد امنتكما فقالا ومن يامن مكرك
وكانهما اذ علما ان الله علام الغيوب وانه لا وقوف لهما على غاية الامور لم يامنا ان يكون
قوله قد امنتكما ابتلاء لهما وامتحانا ومكرا بهما حتى اذا سكن خوفهما ظهر انهما قد امنا من المكر وما
وفيا بقولهما كما ان ابرهيم صلى الله عليه وسلم لما وضع في المنجنيق قال حسبي الله وكانت هذه
من الدعاوى العظام فامتحن وعورض بجبرئيل في الهواء حتى قال له الك حاجة فقال اما اليك فلا
فكان ذلك وفاء بمقتضى قوله حسبي الله فاخبر الله عز وجل عنه فقال وابرهيم الذي وفى اي
وفى بموجب قوله حسبي الله وبمثل هذا اخبر عن موسى صلى الله عليه السلام حيث قالا اننا نخاف
ان يفرط علينا او ان يطغى قال لا تخافا انني معكما اسمع وارى ومع هذا لما القى السحرة سحرهم
اوجس موسى في نفسه خيفة اذ لم يامن مكر الله والتباس الامر عليه حتى جدد عليه الامن وقيل له
لا تخف انك انت الاعلى ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
اللهم ان تهلك هؤلاء لم يبق على وجه الارض احد يعبدك فقال ابو بكر رضي الله عنه دع مناشدتك
ربك فانه واف لك بما وعدك فكان مقام الصديق مقام الثقة بوعد الله وكان مقام رسول الله
صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو اتم لانه لا يصدر الا عن كمال المعرفة باسرار الله
وخفايا افعاله ومعاني صفاته التي يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر وما لاحد من البشر الوقوف
على كنه صفات الله ومن عرف حقيقة المعرفة وقصور معرفته عن الاحاطة بكنه الامور عظم
خوفه لا محالة ولذلك قال عيسى عليه السلام لما قيل له ءانت قلت للناس اتخذوني وامي الهين
من دون الله قال ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك وقال ان تعذبهم
فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم فوض الامر الى المشية واخرج نفسه بالكلية
من البين لعلمه بانه ليس له من الامر شيء وان الامور مرتبطة بالمشية ارتباطا يخرج عن حد المعقولات

والمالوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس وحدس وحسبان فضلا عن التحقيق والاستيقان وهذا
هو الذي قطع قلوب العارفين اذ الطامة الكبرى هي ارتباط مشيته من لا يبالي بك ان اهلكك فقد اهلك
من لا يحصى من امثالك ولم يزل في الدنيا يعذبهم بانواع الآلام والامراض ويمرض مع ذلك قلوبهم
بالكفر والنفاق ثم يخلد العقاب عليهم ابد الآباد ثم يخبر عن ذلك بان يقول ولو شئنا
لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين فكيف لا يخاف
من حق به من القول في الازل ولا مطمع في تداركه ولو كان الامر انفا لكانت الاطماع
تمتد الى حيلة فيه ولكن لا الا التسليم واستقراء الخفي السابقة من جلي الاسباب الظاهرة على
القلب والجوارح فمن تيسرت له اسباب الشر وحيل بينه وبين اسباب الخير واحكمت علاقته
مع الدنيا فكانه كشف له على التحقيق سر السابقة التي سبقت له بالشقاوة اذ كل ميسر لما خلق له
وان كانت الخيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله مقبلا
كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدوام على ذلك موثوقا به ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات
يزيد نيران الخوف اشتعالا ولا يخليه للانطفاء وكيف يؤمن تغير الحال وقلوب المؤمنين بين اصبعين
من اصابع الرحمن وان القلب اشد تقلبا من القدر في غليانها وقد قال مقلب القلوب عز وجل ان
عذاب ربهم غير مامون فاجهل الناس من امنه وهو ينادي بالتحذير من الامن ولولا ان الله لطيف
بعباده العارفين اذ روح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف فاسباب الرجاء
رحمة من الله واسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس
وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب قال بعض العارفين لو حال بيني وبين من عرفته بالتوحيد
خمسين سنة اسطوانة فمات لما قطعت له بالتوحيد لاني لا ادري ما ظهر له من التقلب وقال بعضهم لو
كانت الشهادة على باب الدار والموت على الاسلام عند باب الحجرة لاخترت الموت على الاسلام عند باب الحجرة

لا لي لا ادري ما يعرض بين باب الحجرة وبين باب الدار وكان ابو الدرداء يحلف بالله ما احد امن
على ايمانه ان يسلبه عند الموت الا سلبه وكان سهل يقول خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة
وكل حركة وهم الذين وصفهم الله تعالى اذ قال وقلوبهم وجلة ولما احتضر سفيان جعل يبكي ويجزع فقيل له
يا ابا عبد الله عليك بالرجاء فان عفو الله اعظم من ذنوبك فقال او على ذنوبي ابكي لو علمت اني
اموت على التوحيد لم ابال ان القى الله بامثال الجبال من الخطايا وحكي عن بعض الخائفين
انه اوصى بعض اخوانه فقال اذا حضرتني الوفاة فاقعد عند راسي فان رايتني مت على التوحيد
فخذ جميع ما املكه واشتر به لوزا وسكرا وانثره على صبيان اهل البلد وقل هذا عرس المنفلت
وان مت على غير التوحيد فاعلم الناس ذلك حتى لا يغتروا بشهود جنازتي ليحضر جنازتي من
احب على بصيرة لئلا يلحقني الرياء بعد الوفاة قال وبم اعلم ذلك فذكر له علامة فرای
علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر واللوز وفرقه وكان سهل يقول المريد يخاف ان
يبتلى بالمعاصي والعارف يخاف ان يبتلى بالكفر وكان ابو يزيد يقول اذا توجهت الى المسجد
اخال كان في وسطي زنارا اخاف ان يذهب بي الى البيعة وبيت النار حتى ادخل المسجد
فينقطع عني الزنار فهذا في كل يوم خمس مرات وروي عن عيسى عليه السلام انه قال يا معشر الحواريين
انتم تخافون المعاصي ونحن معاشر الانبياء نخاف الكفر وروي في اخبار الانبياء ان نبيا شكى
الى الله الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف فاوحى الله اليه عبدي اما رضيت
ان عصمت قلبك ان يكفر بي حتى تسالني الدنيا فاخذ التراب فوضعه على راسه فقال بلى قد رضيت
يا رب فاعصمني من الكفر فاذا كان خوف العارفين مع رسوخ اقدامهم وقوة ايمانهم من سوء الخاتمة
فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء ولسوء الخاتمة اسباب تتقدم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر
وجملة من الصفات المذمومة ولذلك اشتد خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن لو اني اعلم اني

بري من النفاق كان احب الي مما طلعت عليه الشمس وما عنوا به النفاق الذي هو ضد اصل الايمان
بل المراد به ما يجتمع مع اصل الايمان فيكون العبد به مسلما منافقا وله علامات كثيرة قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم اربع من كن فيه فهو منافق خالص وان صام وصلى وزعم انه مسلم وان كانت فيه خصلة
منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها من اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا ائتمن خان
واذا خاصم فجر وفي لفظ آخر واذا عاهد غدر وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو
عنها الا صديق اذ قال الحسن ان من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب والمدخل
والمخرج ومن الذي يخلو عن هذه المعاني بل صارت هذه الامور مالوفة بين الناس معتادة ونسي كونها
منكرة بالكلية بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة فكيف الظن بزماننا اليوم حتى قال حذيفة ان
كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقا واني لاسمعها من احدكم في
اليوم عشر مرات وكان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون انكم لتعملون اعمالا هي ادق في اعينكم
من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر وقال بعضهم علامة النفاق ان تكره
من الناس ما ياتي مثله وان تحب على شيء من الجور وان تبغض على شيء من الحق وقيل من النفاق
اذا مدح بشيء ليس فيه اعجبه ذلك وقال رجل لابن عمر انا ندخل على هؤلاء الامراء فنصدقهم فيما
يقولون فاذا خرجنا تكلمنا فيهم فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروي انه
سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال ارايت لو كان الحجاج حاضرا اكنت تتكلم بما تكلمت به قال لا
قال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واشد من ذلك ما روي ان نفرا قعدوا
على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شانه فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه فقال
تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا
حذيفة كان قد خص بعلم المنافقين واسباب النفاق وكان يقول ياتي على القلب ساعة يمتلي

من النفاق حتى لا يكون للايمان فيه خبر ذا ابرع فقد عرفت بهذا ان خوف العارفين من سوء الخاتمة

وان سببه امور متقدمة منها البدع ومنها المعاصي ومنها النفاق ومتى يخلو العبد عن جملة

ذلك وان ظن انه قد خلا عنه فهو النفاق اذ قيل من امن من النفاق فهو منافق وقال بعضهم

لبعض العارفين اني اخاف على نفسي النفاق فقال له لو كنت منافقا لما خفت النفاق فلا يزال

العارفون بين الالتفات الى السابقة والخاتمة خائفين منهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم العبد

المؤمن بين مخافتين بين اجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين اجل قد بقي لا يدري ما الله

قاض فيه **فان قلت** فبيان معنى سوء الخاتمة اذ اكثر خوف هؤلاء يرجع الى الخاتمة

فما معنى سوء الخاتمة **فاعلم** ان سوء الخاتمة على رتبتين احدهما اعظم من الاخرى فاما

الرتبة العظيمة الهائلة ان يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور اهواله اما الشك واما الجحود

فيقبض الروح في حالة غلبة الجحود او الشك فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابا بينه

وبين الله سبحانه ابدا وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد والثانية وهي دونها ان

يغلب على قلبه عند الموت حب امر من امور الدنيا وشهوة من شهواتها فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه

حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه في تلك الحالة فيكون استغراق قلبه

بذلك منكسا راسه الى الدنيا وصارفا وجهه اليها ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب

ومهما حصل الحجاب نزل العذاب اذ نار الله الموقدة لا تاخذ الا المحجوبين فاما المؤمن السليم قلبه عن

حب الدنيا المصروف همه الى الله تعالى فتقول له النار جز يا مؤمن فان نورك اطفأ لهبي فمهما

اتفق قبض الروح في حالة غلبة حب الدنيا فالامر مخطر لان المرء يموت على ما عاش عليه ولا يمكن اكتساب

صفة اخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه اذ لا تصرف في القلوب الا باعمال

الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الاعمال فلا مطمع في عمل ولا مطمع في رجوع الى الدنيا

فلا مطمع في الرجوع الى الدنيا

ليتدارك

ليتدارك ما فات وعند ذلك تعظم الحسرة الا ان اصل الايمان وحب الله اذا كان قد رسخ في القلب

مدة طويلة وتاكد ذلك بالاعمال الصالحة فانه يمحو عن القلب هذه الحالة التي عرضت له

عند الموت فان كان ايمانه في القوة الى حد مثقال اخرجه من النار في زمان قريب وان كان اقل

من ذلك طال مكثه في النار ولكن لو لم يكن الا مثقال حبة فلا بد ان يخرجه من النار ولو بعد آلاف

سنين **فان قلت** فما ذكرته يقتضي ان تسرع النار اليه عقيب موته فما باله يؤخر الى يوم

القيمة ويمهل طول هذه المدة **فاعلم** ان من انكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الايمان

ونور القرآن بل الصحيح عند ذوي الابصار ما صحت به الاخبار وهو ان القبر اما حفرة من حفر

النيران او روضة من رياض الجنان وانه ينفتح الى قبر المعذب سبعون بابا من الجحيم كما وردت به

الاخبار فلا يفارقه روح الا وقد نزل به البلاء ان كان قد شقي بسوء الخاتمة وانما تختلف اصناف

العذاب باختلاف الاوقات فيكون سؤال منكر ونكير عند الوضع في القبر والتعذيب بعد ذلك

ثم المناقشة بعد في الحساب والافتضاح على ملأ الاشهاد في القيمة ثم بعد ذلك خطر الصراط

وهول الزبانية الى آخر ما وردت به الاخبار فلا يزال الشقي مترددا في جميع احواله بين اصناف

العذاب وهو في جملة الاحوال معذب الا ان يتغمده الله برحمته ولا تظنن ان محل الايمان ياكله

التراب بل التراب ياكل جميع الجوارح ويبددها الى ان يبلغ الكتاب اجله فتجمع الاجزاء المتفرقة وتعاد

اليه الروح التي هي محل الايمان وقد كانت من وقت الموت الى الاعادة اما في حواصل طير خضر او

معلقة تحت العرش ان كانت سعيدة واما على حالة تضاد هذه الحالة ان كانت والعياذ بالله شقية

فان قلت فما السبب الذي يفضي الى سوء الخاتمة **فاعلم** ان اسباب هذه الامور لا يمكن

احصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الاشارة الى مجامعها اما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في

شيئين احدهما يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الاعمال كالمبتدع الزاهد فان عاقبته مخطرة

جداً وان كانت اعماله الصالحة ولست اعني مذهباً واقول انه بدعة فان بيان ذلك يطول القول فيه
بل اعني بالبدعة أن يعتقد الرجل في ذات الله وصفاته وافعاله خلاف الحق فيعتقد على خلاف
ما هو عليه اما برايه ومعقوله ونظره الذي به يجادل الخصوم وعليه يعوّل وبه يغترّ واما اخذاً
بالتقليد ممن هذا حاله فاذا قرب الموت وظهرت ناصية ملك الموت واضطرب القلب بما فيه فربما
ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا اذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادي
سكراته منه فقد ينكشف به بعض الامور فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعاً
به متيقناً له عند نفسه لم يظن بنفسه انه اخطأ في هذا الاعتقاد خاصة لاتكاله فيه الى رايه
الفاسد وعقله الناقص بل ظن ان كل ما اعتقده لا اصل له اذ لم يكن عنده فرق بين ايمانه بالله ورسوله
وساير اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاداته الفاسدة فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن
الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته او لشكه فيها فان اتفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل
ان يثبت ويعود الى اصل الايمان ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعياذ بالله فهؤلاء
هم المرادون بقوله تعالى وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبقوله تعالى قل هل ننبئكم
بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحيوة الدنيا الآية وكما انه قد ينكشف في النوم ما سيكون
في المستقبل وذلك لخفة اشغال الدنيا عن القلب فكذلك قد ينكشف في سكرات الموت بعض
الامور اذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي المانعة للقلب من ان ينظر الى الملكوت فيطالع
ما في اللوح المحفوظ لينكشف له الامور على ما هي عليه فيكون مثل هذه الحالة سببا للكشف ويكون
الكشف سببا لشكه في بقية الاعتقادات وكل من اعتقد في الله وفي صفاته وافعاله شيئا على خلاف
ما هو به اما تقليدا واما نظرا بالراي والمعقول فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكفي
لدفع هذا الخطر بل لا ينجي منه الا الاعتقاد الحق والبله بمعزل عن هذا الخطر اعني الذين آمنوا

بالله ورسوله واليوم الآخر ايمانا مجملا راسخا كالاعراب والسوادية وساير العوام الذين
لم يخوضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالا ولا اصغوا الى اصناف المتكلمين
في تقليدهم اقاويلهم المختلفة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اكثر اهل الجنة البله ولذلك منع السلف
من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الامور وامروا الخلق ان يقتصروا
على ان يؤمنوا بما انزل الله جميعا وبكل ما جاء من الظواهر مع اعتقاد نفي التشبيه ومنعوهم من الخوض
في التاويل لان الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباتها كؤودة ومسالكها وعرة والعقول
عن درك جلال الله قاصرة وهداية الله بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا
محجوبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض والقلوب بما القي اليها
في مبدا النشو آلفة وبه متعلقة والتعصبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكدة للعقايد
الموروثة او الماخوذة بحسن الظن من المعلمين في اول الامر ثم الطباع بحب الدنيا مشغوفة وعليها
مقبلة وشهوات الدنيا بمخنقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة فاذا فتح باب الكلام في كلام
الله وفي صفاته بالراي والمعقول مع تفاوت الناس في قرايحهم واختلافهم في طباعهم وحرص
كل جاهل منهم على ان يدعي كمال الاحاطة بكنه الحق انطلقت السنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق
ذلك بقلوب المصغين اليهم وتاكد ذلك بطول الالف لهم وانسد بالكلية طريق الخلاص
عليهم فكانت سلامة الخلق في ان يشتغلوا بالاعمال الصالحة ولا يتعرضوا لما هو خارج عن
حد طاقتهم ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه
بظن وحسبان وهو يعتقد ان ذلك علم واستيقان وانه صفو الايمان ويظن ان ما قنع به
من حدس وتخمين علم اليقين وعين اليقين وسيعلمون نبأه بعد حين وينبغي ان ينشد
في هؤلاء عند كشف الغطاء احسنت بالايام اذ حسنت ولم تخف سوء ما ياتي به القدر

طنكم

وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر واعلم ان كل من فارق
الايمان الساذج بالله ورسله وكتبه وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من
انكسرت سفينته وهو في ملتطم الامواج يرميه موج الى موج فربما يتفق ان تلقيه موجة
الى الساحل وذلك بعيد والهلاك اغلب عليه وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين ببضاعة
عقولهم اما مع الادلة التي حرروها في تعصباتهم او دون الادلة فانه ان كان شاكا فيها
فهو فاسد الدين وان كان واثقا بها فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص وكل خائض في البحث
فلا ينفك عن هاتين الحالتين الا اذا جاوز حدود المعقول الى نور المكاشفة الذي يشرق في عالم
الولاية والنبوة وذلك هو الكبريت الاحمر وانى يتيسر وانما يسلم عن هذا الخطر البله من الذين العوام الذين
شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذه الفضول فهذا احد اسباب الخطرة في سوء الخاتمة

واما السبب الثاني فهو ضعف الايمان في الاصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب

ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله وقوي حب الدنيا فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله الا من
حيث حديث النفس ولا يظهر له اثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك
في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسود وتتراكم ظلمة الذنوب عليه ولا يزال يطفئ ما فيه
من نور الايمان على ضعفه طبعا ورينا فاذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب اعني حب الله ضعفا
لما يبدو من استشعار فراق الدنيا ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بانكار ما قدر عليه من الموت وكراهة
ذلك من حيث انه من الله فيخشى ان يثور في باطنه بغض الله عز وجل بدل الحب كالذي يحب ولده حبا
ضعيفا اذا اخذ ولده امواله التي هي احب اليه من ولده واحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا فان
اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكا
هلاكا مؤبدا والسبب الذي يفضي الى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون اليها والفرح

باسبابها

باسبابها مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله فمن وجد في قلبه حب الله اغلب من حب الدنيا
وان كان يحب الدنيا ايضا فهو ابعد عن هذا الخطر وحب الدنيا راس كل خطيئة وهو الداء العضال
وقد عم اصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى اذ لا يحبه الا من عرفه ولهذا قال تعالى
قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم الى قوله فتربصوا حتى ياتي الله بامره فاذا من فارقته روحه في
حالة خطرة الانكار على الله عز وجل بباله وظهور بغض فعل الله بقلبه في تفريقه بينه وبين اهله
وماله وسائر محابه فيكون موته قدوما على ما ابغضه وفراقا لما احبه فيقدم على الله قدوم العبد المبغض
الآبق اذا قدم على مولاه قهرا فلا يخفى ما يستحقه من الخزي والنكال واما الذي يتوفى على الحب فانه
يقدم على الله عز وجل قدوم العبد المحسن المشتاق الى مولاه الذي تحمل مشاق الاعمال ووعثاء السفر
طمعا في لقائه فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الاكرام
وبدائع الانعام واما الخاتمة الثانية التي هي دون الاولى وليست مقتضية للخلود في النار
فلها ايضا سببان احدهما كثرة المعاصي وان قوي الايمان والآخر ضعف الايمان وان قلت المعاصي
وذلك لان مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الالف والعادة وجميع
ما الفه الانسان في عمره يعود ذكره الى قلبه عند موته فان كان ميله الاكثر الى الطاعات كان اكثر
ما يحضره ذكر طاعة الله وان كان ميله الاكثر الى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت
فربما تقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي فيتقيد بها قلبه ويصير
محجوبا عن الله تعالى فالذي لا يقارف الذنب الا الفينة بعد الفينة فهو ابعد من هذا الخطر والذي لم
يقارف ذنبا اصلا فهو بعيد جدا عن هذا الخطر والذي غلبت عليه المعاصي وكانت اكثر من طاعاته
وقلبه بها افرح منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم في حقه جدا ونعرف هذا بمثال وهو انه لا يخفى عليك
ان الانسان يرى في منامه جملة من الاحوال التي عهدها طول عمره حتى انه لا يرى الا ما يماثل مشاهدته

في اليقظة حتى ان المراهق الذي لم يحتلم لا يرى صورة الوقاع اذا لم يكن قد واقع في اليقظة ولو بقي كذلك مدة
لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ثم لا يخفى ان الذي قضى عمره في الفقه يرى من الاحوال المتعلقة بالعلم
والعلماء اكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة ويرى من الاحوال المتعلقة باسباب التجارة اكثر مما يراه
الطبيب والفقيه لانه انما يظهر له في حالة النوم ما حصلت له مناسبة مع القلب في حالة اليقظة بطول الالف
او بسبب آخر من الاسباب والموت شبه النوم ولكنه فوقه ولكن سكرات الموت وما يتقدمه من الغشية قريب
من النوم فيقتضي ذلك تذكر المألوفات وعودها الى القلب واحد الاسباب المرجحة لحصول ذكره في القلب
طول الالف فطول الالف بالمعاصي والطاعات ايضا مرجح ولذلك يخالف ايضا منامات الصالحين منامات
الفساق فيكون غلبة الالف سببا لان يتمثل صورة فاحشة في قلبه ويميل اليها نفسه فربما يقبض على
ذلك روحه ويكون ذلك سوء خاتمة وان كان اصل الايمان باقيا بحيث يرجى له الخلاص منها وكما ان ما يخطر
في اليقظة انما يخطر بسبب خاص يعلمه الله فكذلك آحاد المنامات لها اسباب عند الله تعالى نعرف البعض
ولا نعرف البعض كما انا نعلم ان الخاطر ينتقل من الشيء الى ما يناسبه اما بالمشابهة واما بالمضادة واما
بالمقارنة بان يكون قد ورد على الحس معه اما المشابهة فبان ينظر الى جميل فيتذكر جميلا آخر
واما بالمضادة فبان ينظر الى الجميل فيتذكر قبيحا ويتأمل في شدة التفاوت بينهما واما بالمقارنة
فبان ينظر الى فرس قد رآه من قبل مع انسان فيتذكر ذلك الانسان وقد ينتقل الخاطر من
شيء الى شيء ولا يدري وجه مناسبته له وانما يكون ذلك بواسطة وواسطتين مثل ان ينتقل من شيء
الى ثان ومنه الى ثالث ثم ينسى الثاني ولا يكون بين الثالث والاول مناسبة ولكن بينه
وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والاول مناسبة فكذلك لانتقالات الخواطر في المنام اسباب
من هذا الجنس وكذا عند سكرات الموت فمن اراد ان يكف خاطره عن الانتقال الى المعاصي
والشهوات فلا طريق له الا المجاهدة طول العمر في فطام نفسه عن ذلك وفي قمع الشهوات من القلب

فهذا

فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخلية الفكر عن الشر
عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت فان المرء يموت على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه ولذلك
نقل عن بقال انه كان يلقن عند الموت كلمتي الشهادة وهو يقول ستة خمسة ستة اربعة
وكان مشغول النفس بالحساب الذي طال الفه له قبل الموت ولقد قال بعض العارفين من السلف ان
العرش جوهرة يتلألأ نورا فلا يكون العبد على حال الا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها
فاذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش فربما يرى نفسه على صورة معصية وكذلك يكشف
له في القيامة فيرى احوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف ما يجل عن الوصف وما ذكره صحيح وسبب الرؤيا
الصادقة قريب من ذلك فان النائم يدرك ما سيكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهو جزء
من اجزاء النبوة فاذا رجع سوء الخاتمة الى احوال القلب واختلاج الخواطر ومقلب القلوب هو الله
سبحانه والاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير داخلة تحت الاختيار دخولا كليا
وان كان لطول الالف فيها تأثير فلهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة لانه لو اراد الانسان
ان لا يرى في المنام الا احوال الصالحين واحوال الطاعات والعبادات لعسر عليه ذلك وان
كان لكثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر في ذلك ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلية
تحت الضبط وان كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة حتى سمعت الشيخ
ابا علي الفارمذي رحمه الله يصف وجوب حسن ادب المريد لشيخه وانه لا يكون في قلبه انكار
لكل ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال حكيت للشيخ ابي القاسم الكركاني منا ما لي فقلت رأيتك
رأيت انك قلت لي كذا فقلت لم ذلك فهجرني شهرا ولم يكلمني وقال لي لولا انه كان في باطنك
تجويز المطالبة وانكار ما اقوله لما جرى ذلك على لسانك في المنام وهو كما قال اذ قلما يرى
الانسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه هذا هو القدر الذي يسمح بذكره في علم المعاملة

من اسرار امر الخاتمة وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة وقد ظهر لك بهذا ان الامن من سوء الخاتمة بان ترى الاشياء كما هي عليه من غير جهل وتزجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية فان كنت تعلم ان ذلك محال او عسير فلا بد ان يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسبب ذلك بكاؤك ونياحتك ويدوم به حزنك وقلقك كما سنحكيه من احوال الانبياء والاولياء والسلف الصالحين ليكون ذلك احد الاسباب المهيجة لنار الخوف من قلبك وقد عرفت بهذا ان اعمال العمر كلها ضايعة ان لم تسلم في النفس الاخير الذي خرج عليه الروح وان سلامته مع اضطراب امواج الخواطر مشكل جدا ولذلك كان مطرف بن عبد الله يقول اني لا اعجب ممن هلك كيف هلك ولكني اعجب ممن نجا كيف نجا ولذلك قال حامد اللفاف اذا صعدت الملائكة بروح المؤمن وقد مات على الخير والاسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا كيف نجا من دنيا فسد فيها خيارنا وكان الثوري يبكي فقيل له علام تبكي فقال بكينا على الذنوب زمانا فالآن نبكي على الاسلام وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت الرياح العاصفة عليه واضطربت الامواج كانت النجاة ابعد من الهلاك وقلب المؤمن اشد اضطرابا من السفينة وامواج الخواطر اعظم التطاما من امواج البحر وانما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الذي قال صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليعمل بعمل اهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبينها الا فواق ناقة فيختم له بما سبق له الكتاب ولا يتسع فواق ناقة لاعمال توجب الشقاوة بل هي الخواطر التي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف وقال سهل رايت كاني ادخلت الجنة فرايت ثلثماية نبي فسالتهم ما اخوف ما كنتم تخافون في الدنيا فقالوا سوء الخاتمة ولاجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطة وكان موت الفجاة مكروها اما الموت فجاة فلانه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب والقلب لا يخلو عن امثالها الا ان يدفع بالكراهة او بنور المعرفة واما الشهادة فلانها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق للقلب فيها سوى حب الله وخرج حب الدنيا والاهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب اذ لا يهجم على صف القتال موطنا نفسه على الموت الا حبا لله تعالى وطلبا لرضاه وبايعا دنياه باخرته وراضيا بالبيع الذي بايعه الله به اذ قال عز وجل ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم الآية والبايع راغب عن المبيع لا محالة ومخرج حبه من القلب ومجرد حب العوض المطلوب في قلبه ومثل هذه الحالة قد يغلب على القلب في بعض الاحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها فصف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة هذا فيمن ليس يقصد الغلبة وطلب الصيت بالشجاعة فان من هذا حاله وان قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كما دلت على ذلك الاخبار واذ بان لك معنى سوء الخاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها وواظب على ذكر الله واخرج من قلبك حب الدنيا واحرس عن فعل المعاصي جوارحك وعن الفكر فيها قلبك واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة اهلها جهدك فان ذلك ايضا يؤثر في قلبك ويصرف اليه فكرك وخواطرك واياك ان تسوف وتقول ساستعد لها اذا جاءت الخاتمة فان كل نفس من انفاسك خاتمتك اذ يمكن ان تختطف فيه روحك فراقب قلبك في كل تطريفة واياك ان تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك هذا ما دمت في يقظتك واما اذا نمت فاياك ان تنام الا على طهارة الظاهر والباطن وان يغلبك النوم الا بعد غلبة ذكر الله على قلبك لست اقول على لسانك فان حركة اللسان بمجردها ضعيفة الاثر واعلم قطعا انه لا يغلب عند النوم على قلبك الا ما كان قبل النوم غالبا عليه وانه لا يغلب في النوم الا ما كان غالبا قبل النوم ولا يبعث من نومك الا ما غلب على قلبك في نومك والموت والبعث شبه النوم واليقظة فكما لا ينام العبد الا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ الا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت المرء الا على ما عاش عليه ولا يحشر الا على ما مات عليه وتحقق قطعا ويقينا ان الموت والبعث حالتان من احوالك كما ان النوم واليقظة حالتان من احوالك وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب

ان لم تكن اهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونورا لبصيرة وراقب انفاسك ولحظاتك واياك ان
تغفل عن الله طرفة عين فانك اذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف اذا لم تفعل فالناس
كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون والمخلصون
على خطر عظيم واعلم ان ذلك لا يتيسر لك ما لم تقنع من الدنيا بقدر ضرورتك وضرورتك مطعم وملبس
ومسكن والباقي كله فضول والضرورة من المطعم ما يقيم صلبك ويسد رمقك فينبغي ان يكون تناولك
تناول مضطر كاره ولا يكون رغبتك فيه اكثر من رغبتك في قضاء حاجتك اذ لا فرق بين ادخال الطعام
في البطن وبين اخراجه فهما ضرورتان في الجبلة وكما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك
فلا ينبغي ان يكون تناول الطعام من همتك واعلم انه ان كان همتك ما يدخل في بطنك فقيمتك ما يخرج
من بطنك واذا لم يكن قصدك من الطعام الا التقوي على عبادة الله كقصدك من قضاء حاجتك فعلامة
ذلك يظهر في ثلثة امور من ماكولك في وقته وقدره وجنسه اما الوقت فاقله ان تكتفي
في اليوم والليلة بمرة واحدة فتواظب على الصوم واما قدره فان لا تزيد على ثلث البطن واما
جنسه فان لا تطلب لذائذ الاطعمة بل تقنع بما يتفق فان قدرت على هذه الثلث وسقطت عنك
مؤنة الشهوات اللذايذ قدرت بعد ذلك على ترك الشهوات وامكنك ان لا تاكل الا من حله فان
الحلال يعز ولا يفي بالشهوات واما ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة
فكل ما دفع البرد عن راسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيرها فضول منك يضيع زمانك فيه ويلزمك
الشغل الدائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرة والطمع اخرى من الحرام والشبهة وقس بهذا ما
يدفع البرد والحر عن بدنك فكل ما حصل مقصود اللباس ان لم تكتف به في خساسة قدره وجنسه
لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت ممن لا يملأ بطنه الا التراب وكذلك المسكن ان اكتفيت
بمقصوده كفاك السماء سقفا والارض مستقرا فان غلبك حر او برد فالمساجد فان طلبت مسكنا

كفنك

خاصا طال عليك الامر وانصرف اليه اكثر عمرك وعمرك بضاعتك ثم ان تيسر لك فقصدت من الحائط
سوى كونه حائلا بينك وبين الابصار ومن السقف سوى كونه دافعا للامطار فاخذت ترفع الحيطان وتزين
السقوف فقد تورطت في مهواة يبعد رقيك منها وهكذا جميع ضرورات امرك ان اقتصرت عليها
فقد تفرغت لله عز وجل وقدرت على التزود لاخرتك والاستعداد لخاتمتك وان جاوزت حد الضرورة
الى اودية الاماني تشعبت همومك ولم يبال الله في اي واد اهلكك فاقبل هذه النصيحة ممن هو احوج الى
النصيحة منك واعلم ان متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير فلو دفعته يوما بيوم في
تسويفك او غفلتك اختطفت فجاة في غير ارادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك فان كنت لا تقدر
على ملازمة ما ارشدت اليه لضعف خوفك اذ لم يكن فيما وصفناه من امر الخاتمة كفاية في تخويفك فانا نورد
عليك من احوال الخائفين ما نرجو ان يزيل بعض القساوة عن قلبك فانك تحقق ان عقل الانبياء والاولياء
والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك فتامل مع كلال بصيرتك وعمى
عينك في احوالهم لم اشتد الخوف عليهم وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصعق وبعضهم يدهش
وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم يخر ميتا الى الارض ولا غرو ان كان ذلك لا يؤثر في قلبك فان قلوب
الغافلين مثل الحجارة او اشد قسوة وان منها لما يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء
وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما يعملون

بيان احوال الانبياء صلوات الله عليهم في الخوف

روت عائشة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم كان اذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج
كل ذلك خوفا من عذاب الله وقرا صلى الله عليه وسلم اية في سورة الحاقة فصعق وقال الله تعالى وخر موسى
صعقا وراى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل عليه السلام بالابطح فصعق وقال صلى الله عليه وسلم
ما جاءني جبريل قط الا وهو يرعد فرقا من الجبار وقيل لما ظهر على ابليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام

يبكيان فاوحى الله تعالى اليهما ما لكما تبكيان كل هذا البكاء فقالا يا رب انا من مكرك فقال الله تعالى
هكذا كونا لا تامنا مكري وقال ابن عمر خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان
الانصار فجعل يلتقط من التمر ويأكل قال فقال يا ابن عمر ما لك لا تأكل فقلت يا رسول الله لا اشتهيه
فقال لكني اشتهيه وهذا صبح رابعة منذ لم اذق طعاما ولم اجده فقال ولو سالت ربي لاعطاني ملك
كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر اذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين في قلوبهم
قال فوالله ما برحنا ولا قمنا حتى نزلت وكاين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم
قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله لم يأمركم بكنز المال ولا باتباع الشهوات من كنز دنانير يريد بها
حيوة فانية فان الحيوة بيد الله الا واني لا اكنز دينارا ولا درهما ولا اخبأ رزقا لغد وقال ابو الدرداء
كان يسمع ازيز قلب ابرهيم صلى الله عليه وسلم اذا قام في الصلوة من مسيرة ميل خوفا من ربه عز وجل فقال مجاهد
بكى داود عليه السلام اربعين يوما ساجدا لا يرفع راسه حتى نبت المرعى من دموعه وحتى غطى راسه
فنودي يا داود اجائع انت فتطعم ام ظمآن فتسقى ام عار فتكسى فنحب نحبة هاج العود فاحترق من
حر جوفه ثم انزل الله التوبة والمغفرة فقال يا رب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته
في كفه مكتوبة وكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيرهما الا رآها فابكته قال وكان يؤتى
بالقدح ثلثاه ماء فاذا تناوله ابصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض من دموعه وروي
عنه صلى الله عليه وسلم انه ما رفع راسه الى السماء حتى مات حياء من الله تعالى وكان يقول في مناجاته
الهي اذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الارض برحبها واذا ذكرت رحمتك ارتدت الي روحي
سبحانك الهي اتيت اطباء عبادك ليداووا خطيئتي فكلهم يدلوني عليك فبؤسا للقانطين من رحمتك
وقال الفضيل بلغني ان داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخا واضعا يده على راسه
حتى لحق بالجبال فاجتمعت اليه السباع فقال ارجعوا لا اريدكم انما اريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني

الا بالبكاء ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول دعوني ابكي
قبل خروج يوم البكاء قبل تحريق العظام واشتعال الحشا وقبل ان يؤمر بي ملائكة غلاظ
شداد لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون وقال عبد العزيز بن عمير لما اصاب داود
الخطيئة نقص صوته فقال الهي بح صوتي في صفاء اصوات الصديقين وروي انه لما طال بكاؤه
ولم ينفعه ذلك فضاق ذرعه واشتد غمه فقال يا رب اما ترحم بكائي فاوحى الله اليه يا داود
نسيت ذنبك وذكرت بكاءك فقال الهي وسيدي كيف انسى ذنبي وكنت اذا تلوت الزبور كف
الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح واظلني الطير على راسي وانست الوحوش الى محرابي الهي
وسيدي فما هذه الوحشة التي بيني وبينك فاوحى الله اليه ذاك انس الطاعة وهذه وحشة المعصية يا
داود آدم خلق من خلقي خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي واسجدت له ملائكتي والبسته
ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقاري وشكى الي الوحدة فزوجته حواء امتي واسكنته جنتي عصاني
فطردته عن جواري عريانا ذليلا يا داود اسمع مني والحق اقول اطعتنا فاطعناك وسالتنا
فاعطيناك وعصيتنا فامهلناك وان عدت الينا على ما كان منك قبلناك وقال يحيى بن ابي كثير
بلغنا ان داود صلى الله عليه وسلم كان اذا اراد ان ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا
يشرب الشراب ولا يقرب النساء فاذا كان قبل ذلك بيوم اخرج له منبر الى البرية فامر سليمان ان
ينادي بصوت يستقرئ البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع والبيع
فينادي فيها الا من اراد ان يسمع نوح داود فليات قال فتاتي الوحوش من البراري والآكام وتاتي
السباع من الغياض وتاتي الهوام من الجبال وتاتي الطير من الاوكار وتاتي العذارى من خدورهن
ويجتمع الناس لذلك اليوم وياتي داود عليه السلام حتى يرقى على المنبر ويحيط به بنو اسرائيل وكل
صنف على حدته محيطون به وسليمان عليه السلام قائم على راسه فياخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء

والصراخ ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فيموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ثم يأخذ في
أهوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة فإذا رأى سليمان عليه السلام كثرة الموتى
قال يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام فيأخذ
في الدعاء فبينما هو كذلك إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك قال فيخر
داود مغشيا عليه فلما نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمر مناديا ينادي ألا من كان له مع
داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة
تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول يا من قتله ذكر النار يا من قتله خوف الله ثم إذا أفاق داود قام
فوضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول يا إله داود أغضبان أنت على داود فلا يزال
يناجي ربه تعالى فيأتي سليمان فيقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير فيقول يا أبتاه
تقوّ بهذا على ما تريد فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم وقال يزيد الرقاشي
خرج داود عليه السلام ذات يوم بالناس يعظهم ويخوفهم في أربعين ألفا وما رجع إلا في عشرة آلاف قال
وكان له جاريتان اتخذهما حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره ورجليه مخافة
أن تتفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت وقال ابن عمر دخل يحيى بن زكريا عليهما السلام بيت المقدس
وهو ابن ثمان حجج فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر إلى مجتهديهم قد خرقوا التراقي
وسلكوا فيها السلاسل وشدوا إلى أطراف بيت المقدس فهاله ذلك فرجع إلى أبويه فمر بصبيان يلعبون
فقالوا له يا يحيى هلم بنا نلعب فقال إني لم أخلق للعب قال فأتى أبويه فسألهما أن يدرعاه الشعر ففعلا
فرجع إلى بيت المقدس فكان يخدمه نهارا ويصبح فيه ليلا حتى أتت عليه خمس عشرة سنة فخرج ولزم
أطراف الأرض وغيران الشعاب فخرج أبواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الأردن وقد أنقع رجليه في الماء
وقد كاد العطش يذبحه وهو يقول وعزتك وجلالك لا أذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك فسأله

أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه فمدح بالبر وردّه أبواه
إلى بيت المقدس فكان إذا قام يصلي بكى حتى يبكي معه الشجر والمدر ويبكي زكريا لبكائه حتى يغمى عليه
فلم يزل يبكي حتى خرقت دموعه لحم خديه وبدت أضراسه للناظرين فقالت له أمه يا بني لو أذنت
لي أن أتخذ لك شيئا تواري به أضراسك عن الناظرين فأذن لها فعمدت إلى قطعتي لبود فألصقتهما
على خديه فكان إذا قام يصلي بكى فإذا استنقعت دموعه في القطعتين أتت إليه أمه فعصرتهما
فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي أمه قال اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين
فقال له يوما زكريا يا بني إنما سألت ربي أن يهبك لي لتقر عيني بك فقال يحيى يا أبت إن جبريل أخبرني أن
بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكاء فقال زكريا فابك يا يحيى وقال عيسى عليه السلام معاشر
الحواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان من الدنيا وبحق أقول لكم
إن أكل الشعير والنوم على المزابل مع الكلاب في طلب الفردوس كثير وقيل كان الخليل عليه السلام إذا
ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلا في ميل فيأتيه جبريل عليه السلام فيقول له الجبار
يقرئك السلام ويقول هل رأيت خليلا يخاف خليله فيقول يا جبريل إني إذا ذكرت خطيئتي
نسيت خلتي فهذه أحوال الأنبياء فدونك والتأمل فيها فإنهم أعرف خلق الله بالله تعالى وصفاته

بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف الصالحين في شدة الخوف

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ليتني كنت طائرا لم أخلق بشرا وقال أبو ذر وددت أني شجرة
تعضد وكذا قال طلحة وقال عثمان رضي الله عنه وددت أني إذا مت لم أبعث وقالت عائشة أم المؤمنين
رضي الله عنها وددت أني كنت نسيا منسيا وكان في وجه عمر خطان أسودان من الدموع وقال عمر
رضي الله عنه من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون
ولما قرأ عمر رضي الله عنه إذا الشمس كورت فانتهى إلى قوله وإذا الصحف نشرت خر مغشيا عليه ومر بدار
إنسان

وهو يصلي يقرأ سورة والطور فوقف يسمع فلما بلغ الى قوله ان عذاب ربك لواقع ماله من دافع نزل عن
حماره واستند الى الجدار ومكث زمانا ورجع الى منزله ومرض شهرا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه وقال
علي رضي الله عنه وقد سلم من صلوة الفجر وقد علته كآبة وهو يقلب يديه لقد رأيت اصحاب محمد صلى الله
عليه وسلم فلم ارا اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون صفرا شعثا غبرا بين اعينهم امثال ركب المعزى قد باتوا
سجدا وقياما يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم واقدامهم فاذا اصبحوا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر
في يوم الريح وهملت اعينهم الدموع حتى تبل ثيابهم والله وكان القوم باتوا غافلين يعني منهم كانه هولاء
ثم قام فما رأى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن ملجم وروي ان عمر كان يسقط من الخوف اذا سمع آية
من القرآن مغشيا عليه فكان يعاد اياما واخذ يوما تبنة من الارض فقال يا ليتني كنت هذه التبنة
يا ليتني لم اك شيئا مذكورا يا ليتني لم تلدني امي يا ليتني كنت نسيا منسيا وقال عمران ابن الحصين
لوددت اني رماد تسفيني الرياح في يوم عاصف وقال ابو عبيدة بن الجراح وددت اني كبش فذبحني
اهلي فاكلوا لحمي وحسوا مرقي وكان علي بن الحسين رضي الله عنه اذا توضأ اصفر لونه فيقول له اهله
ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء فيقول اتدرون بين يدي من اريد ان اقوم وقال موسى بن مسعود
كنا اذا جلسنا الى الثوري كان النار قد احاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه وقال مالك بن دينار
بينما انا اطوف بالبيت اذا انا بجويرية متعبدة متعلقة باستار الكعبة وهي تقول يا رب كم من شهوة
ذهبت لذاتها وبقيت تبعاتها يا رب اما كان لك ادب وعقوبة الا النار وتبكي فما زال ذلك مقامها
حتى طلع الفجر قال مالك فلما رأيت ذلك وضعت يدي على راسي صارخا اقول ثكلت مالكا امه وروي
ان الفضيل رأى الناس بعرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة حتى اذا كادت
الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع راسه الى السماء فقال واسوأتاه منك وان غفرت ثم انقلب مع الناس
وسئل ابن عباس عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف جريحة ومرضة واعينهم باكية يقولون كيف نفرح

والموت من ورائنا والقبر امامنا والقيامة موعدنا وعلى جهنم طريقنا وبين يدي ربنا موقفنا وكان
حماد بن عبد ربه اذا جلس جلس مستوفزا على قدميه فيقال له لو اطمأننت فيقول تلك جلسة الآمنين
وانا غير آمن اذا عصيت الله وقال عمر بن عبد العزيز انما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة
كيلا يموتوا من خشية الله وقال مالك بن دينار لقد هممت ان آمركم اذا انا مت ان يقيدوني ويغلوني
ثم ينطلقوا بي الى ربي كما ينطلق بالآبق الى سيده وقال حاتم الاصم لا تغتر بموضع صالح فلا مكان
اصلح من الجنة فلقي آدم فيها ما لقي ولا تغتر بكثرة العبادة فان ابليس بعد طول العبادة لقي ما لقي
ولا تغتر بكثرة العلم فان بلعام كان يحسن اسم الله الاعظم فانظر ما لقي ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص
اكبر من المصطفى صلى الله عليه وسلم لم ينتفع به اقاربه واعداؤه وقال السري اني لانظر الى انفي مرات مخافة
ان يكون قد اسود وقال ابو جعفر منذ اربعين سنة اعتقادي في نفسي ان الله ينظر الي نظر السخط واعمالي
تدل على ذلك واخرج ابن المبارك يوما على اصحابه فقال اني اجترأت البارحة على الله سألته الجنة وقالت ام محمد بن
كعب القرظي لابنها يا بني اني اعرفك صغيرا طيبا وكبيرا طيبا وكأنك احدثت حدثا موبقا لما اراك تصنع في ليلك
ونهارك فقال يا اماه ما يؤمنني ان يكون الله عز وجل قد اطلع علي وانا على بعض ذنوبي فمقتني وقال وعزتي
لا اغفر لك وقال الفضيل بن عياض لا اغبط نبيا مرسلا ولا ملكا مقربا ولا عبدا صالحا اليس هؤلاء يعاينون يوم القيمة
انما اغبط من لم يخلق وروي ان فتى من الانصار دخلته خشية النار فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت
فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه في البيت واعتنقه فخر ميتا فقال النبي صلى الله عليه وسلم جهزوا صاحبكم
فان الفرق من النار فتت كبده وقيل لعرفد السبخي اخبرنا باعجب شيء بلغك عن بني اسرائيل فقال بلغني
انه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح فذكرن ثواب الله وعقابه فمتن
جميعا في يوم واحد وكان عطاء السلمي من الخائفين وكان لا يسأل الله الجنة البتة وانما يسأل العفو وقيل له
في مرضه الا تشتهي شيئا فقال ان خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة ويقال انه ما رفع راسه الى السماء

وانه رفع راسه يوما ففزع

ولا ضحك اربعين سنة فرفع راسه ففزع فسقط فانفتق في بطنه فتق وكان يمس جسده في بعض الليالي فيخاف

ان يكون قد نسخ وكان اذا اصابتهم ريح او برق او غلا طعام قال هذا من اجلي يصيبهم لو مات عطا لاستراح

الناس وقال عطا خرجنا مع عتبة الغلام وفينا كهول وشباب يصلون صلوة الفجر بطهور العشاء

قد تورمت اقدامهم من طول القيام وغارت اعينهم في روسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق

كانها الاوتار يصبحون كان جلودهم قشور البطيخ وكانهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف اكرم الله

المطيعين وكيف اهان العاصين فبينما يمشون اذ مر بمكان فخر مغشيا عليه فجلس اصحابه حوله يبكون في يوم شديد

البرد وجبينه يرشح عرقا فجاوا بماء فمسحوا وجهه فافاق وسالوه عن امره فقال اني ذكرت اني عصيت الله في ذلك

المكان وقال صالح المري قرات على رجل من المتعبدين يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا اطعنا الله

واطعنا الرسولا فصعق ثم افاق وقال زدني يا صالح فاني اجد غما فقرات كلما ارادوا ان يخرجوا منها من

غم اعيدوا فيها فخر ميتا وروى ان زرارة بن ابي اوفى صلى بالناس صلوة الغداة فلما قرا فاذا نقر

في الناقور خر مغشيا عليه فحمل ميتا ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال عظني يا يزيد

فقال يا امير المومنين اعلم انك اول خليفة يموت فبكى وقال زدني يا يزيد فقال يا امير المومنين

ليس بينك وبين آدم اب الا ميت فبكى وقال زدني يا يزيد فقال يا امير المومنين ليس بين الجنة

والنار منزل فسقط مغشيا عليه وقال ميمون بن مهران لما نزلت هذه الاية وان جهنم لموعدهم

اجمعين صاح سلمان الفارسي ووضع يده على راسه ثم خرج هاربا ثلثة ايام لا يقدر وراى داود

الطائي امراة تبكي عند راس قبر ولدها وهي تقول يا ابناه ليت شعري اي خديك بدا به الدود

فصعق داود وسقط مكانه وقيل مرض سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذمي فقال هذا

رجل قطع الخوف كبده ثم جاء وجس عرقه ثم قال ما علمت ان في الحنيفية مثله وقال احمد بن حنبل رحمه الله

سالت الله عز وجل ان يفتح علي بابا من الخوف فخفت على عقلي فقلت يا رب على قدر ما اطيق فسكن قلبي فقال

ففتح

عبد الله بن عمرو بن العاص ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم احدكم لصرخ حتى ينقطع

صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وكانه اشار الى معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لو علمتم ما اعلم لبكيتم كثيرا

ولضحكتم قليلا وقال العنبري اجتمع اصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم وهو يبكي

ولحيته ترجف فقال عليكم بالقران عليكم بالصلوة ويحكم ليس هذا زمان حديث انما هو زمان بكاء وتضرع واستكانة

ودعاء كدعاء الغريق انما هو زمان احفظ لسانك واخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر

وروي الفضيل يوما وهو يبكي فقيل له الى ابن فقال لا ادري فكان يبكي والها من الخوف وقال ذر بن عمر

لابيه عمر بن ذر ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكي احد واذا تكلمت سمعت البكاء من كل جانب فقال يا بني

ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستاجرة وحكى ان قوما وقفوا بعابد وهو يبكي فقالوا ما الذي يبكيك

يرحمك الله قال روعة يجدها الخائفون في قلوبهم قالوا وما هي قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل

وكان الخواص يبكي وهو يقول في مناجاته قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فاعتقني وقال صالح المري

قدم علينا ابن السماك مرة فقال ارني شيئا من بعض عجايب عبادكم فذهبت به الى رجل في بعض الاحياء

في خص له فاستاذنا عليه فاذا رجل يعمل خوصا فقرات اذ الاغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون

في الحميم ثم في النار يسجرون فشهق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه فخرجنا من عنده وتركناه على حاله

وذهبنا الى اخر فدخلنا عليه فقرات هذه الاية فشهق شهقة وخر مغشيا عليه فذهبنا واستاذنا

على ثالث فقال ادخلوا ان لم تشغلونا عن ربنا فقرات ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد فشهق

شهقة فبدا الدم من منخريه فجعل يتشحط في دمه حتى يبس فتركناه على حاله وخرجنا فادرنا

على ستة انفس كل نخرج من عنده ونتركه مغشيا عليه ثم اتيت به السابع فاستاذنا فاذا امراة

من وراء الخص تقول ادخلوا فدخلنا فاذا شيخ فان جالس في مصلاه فسلمنا فلم يشعر بسلامنا فقلت

بصوت عال ان للخلق غدا مقاما فقال الشيخ بين يدي من ويحك ثم بقي مبهوتا فاتحا فاه شاخصا

بصوت يصيح بصوت له ضعيف اوّه اوّه حتى انقطع ذلك الصوت فقالت امرأته اخرجوا فانكم لا تنتفعون
به الساعة فلما كان بعد ذلك سألت عن القوم فاذا ثلاثة قد افاقوا وثلاثة لحقوا بالله عز وجل واما
الشيخ فانه مكث ثلثة ايام على حالته مبهوتا لا يؤدي فرضا فلما كان بعد ثلث عقل ودخلت مولاة
لعمر بن عبد العزيز فسلّمت عليه ثم قامت الى المسجد في بيته فصلت ركعتين فغلبتها عيناها فرقدت
فاستبكت في منامها فقالت يا امير المؤمنين اني رايت والله عجبا قال وما ذاك فقالت رايت النار
وهي تزفر على اهلها ثم جيء بالصراط فوضع على متنها فقالت هيه فقالت فجيء بعبد الملك بن
مروان فحمل عليه فما مضى الا يسيرا حتى انكفا به الصراط فهوى فقال هيه فقالت ثم جيء بسليمان بن
عبد الملك فما مضى عليه الا يسيرا حتى انكفا به الصراط فهوى فقال عمر هيه فقالت ثم جيء بك والله
يا امير المؤمنين فصاح عمر صيحة خر مغشيا عليه فقامت اليه فجعلت تنادي في اذنه اني رايتك
والله قد نجوت قال وهي تنادي وهو يصيح ويفحص برجليه ويحكى ان اويس القرني كان يحضر
القاص فيبكي من كلامه فاذا ذكر النار صرخ اويس ثم يقوم منطلقا فيتبعه الناس فيقولون
مجنون مجنون وقال معاذ بن جبل ان المؤمن لا تسكن روعته حتى يخلف جسر جهنم وكان طاوس
يفرش فراشه ثم يضطجع فيتقلى كما تتقلى الحبة في المقلى ثم يثب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى
الصباح ويقول طير ذكر جهنم نوم الخائفين وقال الحسن البصري يخرج من النار رجل بعد الف عام
ويا ليتني ذلك الرجل وانما قال ذلك لخوفه الخلود بسوء الخاتمة وروي انه ما ضحك اربعين سنة
قال وكنت اذا رايته قاعدا كانه اسير قدم ليضرب عنقه واذا تكلم كانه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها
فاذا سكت كان النار تسعر بين عينيه وعوتب في شدة حزنه فقال ما يؤمنني ان يكون الله قد اطلع
علي في بعض ما يكره فمقتني فقال اذهب فلا غفرت لك فانا اعمل في غير معتمل فهذه مخاوف الانبياء والاولياء
والعلماء ونحن اجدر بالخوف منهم لكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكمال المعرفة

والا فليس امننا لقلة ذنوبنا وكثرة طاعتنا بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة
احوالنا غفلتنا وقسوتنا فلا قرب الرحيل ينبهنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة احوال
الخائفين تخوفنا ولا خطر الخاتمة يزعجنا فنسال الله تعالى ان يتدارك بفضله وجوده احوالنا
فيصلحنا فان كان تحريك اللسان بمجرد السوال دون الاستعداد ينفعنا ومن العجائب انا اذا اردنا
المال في الدنيا زرعنا وغرسنا واتجرنا وركبنا البحار والبراري وخاطرنا وان اردنا طلب رتبة العلم
تفقهنا وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا ونجتهد في طلب اقواتنا ولا نثق بضمان الله عنا ولا نجلس
في بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا ثم اذا طمحت اعيننا نحو الملك الدائم المقيم قنعنا بان نقول بالسنتنا
اللهم اغفر لنا وارحمنا والذي اليه رجاؤنا وبه اغترارنا ينادينا ويقول وان ليس للانسان الا ما سعى
وان سعيه سوف يرى ولا يغرنكم بالله الغرور يا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم ثم كل ذلك لا ينبهنا
ولا يخرجنا عن اودية غرورنا واماتينا فما هذه الا محنة هائلة ان لم يتفضل الله علينا بتوبة
نصوح يتداركنا بها ويجبرنا فنسال الله تعالى ان يتوب علينا بل نساله ان يسوق الى التوبة سرائر
قلوبنا وان لا يجعل حركة اللسان بسوال التوبة غاية حظنا ولنقتصر من حكايات احوال الخائفين
على ما اوردناه فان القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي والكثير منه وان افيض على القلب
الغافل فلا يغني ولقد صدق الراهب الذي حكى عيسى بن مالك الخولاني وكان من خيار العباد انه
رآه على باب بيت المقدس واقفا كهيئة المحزون من شدة الوله ما يكاد يرقا دموعه من كثرة البكاء قال عيسى
فلما رايته هالني منظره فقلت ايها الراهب اوصني بوصية احفظها عنك فقال يا اخي بماذا اوصيك
ان استطعت ان تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر يخاف ان يغفل
فيفترسه السباع او يسهو فتنهشه الهوام فهو مذعور القلب وجل فهو في المخافة في ليله وان امن
المغترون وفي الحزن نهاره وان فرح البطالون ثم ولى وتركني فقلت لو زدتني شيئا عسى ان ينفعني

فقال الظمآن يجزيه من الماء اليسير وقد صدق فان القلب الصافي يحركه ادنى مخافة والقلب الجامد
تنبو عنه كل المواعظ وما ذكره من تقدير انه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي ان يظن انه
تقدير بل تحقيق فانك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرايته مشحونا باصناف السباع وانواع
الهوام وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك ان سهوت عنها لحظة الا انك محجوب العين عن مشاهدتها
فاذا انكشف الغطاء ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها واشكالها الموافقة
لمعانيها فترى بعينك العقارب والحيات قد احدقت بك في قبرك وانما هي صفاتك الحاضرة الآن
قد انكشف لك صورها فان اردت ان تقتلها وتقهرها وانت قبل الموت قادر عليها فافعل والا
فوطن قلبك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فؤادك فضلا عن ظاهر بشرتك وجسمك تم كتاب الخوف والرجاء
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبيه محمد وآله الاكرمين

ويليه كتاب الفقر والزهد

٩٧

هذا كتاب الفقر والزهد

بسم الله الرحمن الرحيم وبالله نستعين على الاتمام

الحمد لله الذى تسبح له الرمال ويسجد له الظلال وتندك من هيبته الجبال خلق الانسان من الطين
اللازب والصلصال وزين صورته باحسن تقويم واتم اعتدال وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات
الضلال واذن له فى قرع باب الخدمة بالغدو والآصال ثم كحل بصيرة المخلص فى خدمته بنور
العبرة حتى لاحظ بضيائه حضرة الجلال فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ما استقبح دون مبادى
اشراقه كل حسن وجمال فاستثقل ما صرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستثقال وتمثل له ظاهر
الدنيا فى صورة امراة جميلة تميس وتختال وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء تحنت من طين الخزى
وضربت فى قالب النكال وهى متلفعة بجلبابها المخفى قبايح اسرارها بلطايف السحر والاحتيال وقد
نصبت حبايلها فى مدارج الرجال وهى تقتنصهم بضروب المكر والاغتيال ثم لا تجزيهم بالخلف فى
مواعيد الوصال بل تقيدهم مع قطع الوصال بالسلاسل والاغلال وتبتليهم بانواع البلايا
والانكال فلما انكشف للعارفين منها قبايح الاسرار والافعال زهدوا فيها زهد
المبغض لها فتركوا التفاخر والتكاثر بالاموال واقبلوا بكنه همتهم على حضرة الجلال
وايقنوا منها بوصال ليس دونه فصال ومشاهدة ابدية لا يعتريها فناء ولا زوال
والصلوة على سيد الانبياء وعلى آله خير آل **اما بعد** فان الدنيا عدوة لله
عز وجل بغرورها ضل من ضل وبمكرها زل من زل فحبها رأس الخطايا والسيئات وبغضها
ام الطاعات ورأس الحسنات وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وذم الحب لها فى كتاب ذم
الدنيا من ربع المهلكات ونحن الآن نذكر فضل البغض لها والزهد فيها فانه رأس
المنجيات فلا مطمع فى النجاة الا بالانقطاع عن الدنيا والبعد عنها ولكن مقاطعها اما
ان تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا واما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا

ولكل واحد منهما درجة فى نيل السعادة وحظ فى الاعانة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر
حقيقة الفقر والزهد ودرجاتهما واقسامهما وشروطهما واحكامهما ونذكر الفقر فى شطر
من الكتاب والزهد فى شطر آخر منه ونبدأ بذكر الفقر

الشطر الاول من الكتاب فى الفقر

وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقا وبيان فضيلة خصوص
الفقراء وبيان فضل الفقر على الغنى وبيان ادب الفقير فى فقره وبيان ادبه فى قبول العطاء
وبيان ادبه فى تحريم السؤال بغير ضرورة وبيان الغنى المحرم للسؤال وبيان احوال السائلين

بيان حقيقة الفقر وبيان اختلاف احواله واساميه

اعلم ان الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج اليه اما فقد ما لا حاجة اليه لا يسمى فقرا وان كان المحتاج اليه موجودا
مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا واذا فهمت هذا لم تشك فى ان كل موجود سوى الله فهو فقير لانه
محتاج الى دوام الوجود فى ثانى الحال ودوام الوجود مستفاد من فضل الله وجوده فان كان موجود
ليس وجوده مستفادا له من غيره فهو الغنى المطلق ولا يتصور ان يكون مثل هذا الموجود الا واحدا
فليس فى الوجود الا غنى واحد وكل من عداه فانهم محتاجون اليه ليمد وجودهم بالدوام والى هذه
الحقيقة الاشارة بقوله تعالى والله الغنى وانتم الفقراء هذا معنى الفقر مطلقا ولكنا لسنا نقصد
بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص والا فقر العبد بالاضافة الى اصناف حاجاته لا ينحصر
لان حاجاته لا حصر لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل اليها بالمال وهو الذى نريد الآن بيانه فقط
فنقول كل فاقد للمال فانا نسميه فقيرا بالاضافة الى المال الذى فقده اذا كان ذلك المفقود
محتاجا اليه فى حقه ثم له خمسة احوال عند الفقد ونحن نميزها ونخص كل حالة باسم لنتوصل بالتمييز
الى ذكر احكامها **الحالة الاولى وهى العليا** ان يكون بحيث لو اتاه
المال لكرهه وتأذى به وهرب من اخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو الزهد

واسم صاحبه الزاهد **الثانية** ان يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله ولا
يكرهه كراهة يتأذى به ويزهد فيه لو اتاه وصاحب هذه الحالة نسميه راضيا **الثالثة**
ان يكون وجود المال احب اليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته ان ينهض
لطلبه بل ان اتاه عفوا صفوا اخذه وفرح به وان افتقر الى تعب في طلبه لم يشتغل به وصاحب
هذه الحالة نسميه قانعا اذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيه من الرغبة الضعيفة
الرابعة ان يكون تركه الطلب لعجزه والا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا الى طلبه ولو
بالتعب لطلبه او هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه الحريص **الخامسة**
ان يكون ما فقده من المال مضطرا اليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب ويسمى
صاحب هذه الحالة مضطرا كيف ما كانت رغبته في الطلب اما ضعيفة واما قوية وقل ما تنفك
هذه الحالة عن الرغبة فهذه خمسة احوال اعلاها الزهد والاضطرار ان انضم اليه الزهد وتصور
ذلك فهو اقصى درجات الزهد كما سيأتي ووراء هذه الاحوال الخمس حالة هي اعلى من الزهد وهي ان يستوي
عنده وجود المال وفقده فان وجده لم يفرح به ولم يتأذ وان فقده كذلك بل حاله مثل حال عائشة
رضي الله عنها اذ اتاها مائة الف درهم من العطاء فاخذت وفرقت في يومها فقالت خادمتها لو
اشتريت لنا بدرهم لحما فقالت لو ذكرتني فمن هذا حاله فان كانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزائنه
لم يضره اذ هو يرى الاموال في خزانة الله لا في يد نفسه ولا يفرق بين ان يكون في يده او في يد
غيره وينبغي ان يسمى صاحب هذه المستغني لانه غني عن فقد المال ووجوده جميعا وليفهم من هذا الاسم
معنى يفارق اسم الغني المطلق على الله عز وجل وعلى من كثر ماله من العباد فان من كثر ماله من العباد
وهو يفرح به فهو فقير الى بقاء المال في يده وانما هو غني عن دخول المال في يده لا عن بقائه فاذا هو
فقير من وجه اما هذا الشخص فهو غني عن دخول المال وعن بقائه في يده وعن خروجه من يده

ايضا

ايضا فانه ليس يتأذى به ليحتاج الى الخروج وليس يفرح به ليحتاج الى البقاء وليس فاقدا له ليحتاج
الى الدخول فغناه الى العموم اميل فهو الى الغني الذي هو وصف الله اقرب وانما قرب العبد من الله
بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكنا لا نسمي صاحب هذه الحالة غنيا بل مستغنيا ليبقى الغني لمن له
الغنى المطلق عن كل شيء واما هذا العبد فان استغنى عن المال وجودا وعدما فلم يستغن عن اشياء اخر
سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الذي زين الله به قلبه فان القلب المقيد بحب
المال رقيق والمستغني عنه حر والله تعالى هو الذي اعتقه عن هذا الرق فهو محتاج الى دوام هذا العتق
والقلوب متقلبة بين الرق والحرية في اوقات متقاربة لانها بين اصبعين من اصابع الرحمن فلذلك
لم يكن اسم الغني مطلقا عليه مع هذا الكمال الا مجازا واعلم ان الزهد درجة هي كمال الابرار وصاحب هذه
الحالة من المقربين فلا جرم صار الزهد في حقه نقصانا اذ حسنات الابرار سيئات المقربين وهذا
لان كاره الدنيا مشغول بالدنيا كما ان الراغب فيها مشغول بها والشغل بما سوى الله عز وجل حجاب عن الله
عز وجل اذ لا بعد بينك وبين الله حتى يكون البعد حجابا بينك وبينه فلا حجاب بينك وبينه الا
شغلك بغيره وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره وانت لا تزال مشغولا بنفسك وشهوات
نفسك فلذلك لا تزال محجوبا عنه فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله عز وجل والمشغول ببغض
نفسه ايضا مشغول عن الله عز وجل بل كل ما سوى الله عز وجل مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس جمع العاشق
والمعشوق فان التفت قلب العاشق الى الرقيب والى بغضه واستثقاله وكراهة حضوره فهو في حالة
اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ولو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق
ولم يلتفت اليه فكما ان النظر الى غيره لبغضه شرك فيه ونقص ولكن احدهما اخف من الآخر بل الكمال في
ان لا يلتفت القلب الى غير المحبوب بغضا وحبا فانه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا يجتمع
ايضا بغض وحب في حالة واحدة فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله عز وجل كالمشغول بحبها الا ان المشغول بحبه

بحبها

غافل وهو في غفلته سالك في البعد والمشغول ببغضها غافل وهو في غفلته سالك طريق القرب اذ يرجى له ان ينتهي
حاله الى ان تزول هذه الغفلة ويتبدل بالشهود فالكمال له مرتقب لان بغض الدنيا مطية الى الله فالمحب والمبغض
كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلفها وتسييرها ولكن احدهما مستدبر الكعبة والآخر
مستقبلها فهما سيان بالاضافة الى الحال في ان كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ولكن حال
المستقبل محمود بالاضافة الى المستدبر اذ يرجى له الوصول وليس محمودا بالاضافة الى المعتكف
في الكعبة والملازم لها الذي لا يخرج منها حتى يفتقر الى الاشتغال بالدابة في الوصول اليها فلا ينبغي
ان يظن ان بغض الدنيا مقصود في عينه بل الدنيا عائق عن الله ولا وصول اليه الا بدفع العائق
ولذلك قال ابو سليمان الداراني من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة بل ينبغي ان يشتغل
بالآخرة فتبين ان سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما ان سلوك طريق الحج وراء دفع الغريم العائق
من الحج فاذا قد ظهر ان الزهد في الدنيا ان اريد به عدم الرغبة في وجوده وعدمه فهو غاية الكمال
وان اريد به الرغبة في عدمه فهو كمال بالاضافة الى درجة الراضي والقانع والحريص ونقصان
بالاضافة الى درجة المستغني بل الكمال في حق المال ان يستوي عندك المال والماء وكثرة الماء في جوارك
لا تؤذيك بان تكون على شاطئ البحر ولا قلته تؤذيك الا في قدر الضرورة مع ان الماء محتاج اليه
فلا يكون قلبك مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا ببغض الماء الكثير بل تقول اشرب منه بقدر
الحاجة واسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ولا ابخل به على احد فهكذا ينبغي ان يكون المال لان الخبز
والماء واحد في الحاجة انما الفرق بينهما في قلة احدهما وكثرة الآخر واذا عرفت الله عز وجل ووثقت
بتدبيره الذي دبر به العالم علمت ان قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة ما حييت كما يأتيك قدر
حاجتك من الماء على ما سيأتي بيانه في التوكل قال احمد بن ابي الحواري قلت لسليمان الداراني قال
مالك بن دينار للمغيرة اذ . . البيت فخذ الركوة التي اهديتها لي فان العدو يوسوس ان اللص

الي

قد اخذها فقال ابو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية قد زهد في الدنيا ما عليه من اخذها فتبين
ان كراهته كون الركوة في بيته التفات اليها سببه الضعف والنقصان فان قلت فما بال الانبياء
والاولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار فاقول كما هربوا من الماء على معنى انهم ما شربوا
اكثر من حاجتهم فتغوروا عما وراءها ولم يجمعوه في القرب والروايا يديرونها على انفسهم بل تركوها في
الانهار والبراري للمحتاجين لا لانهم كانت تشغلهم محبتها او بغضها وقد حملت خزائن الارض الى رسول الله
صلى الله عليه وسلم والى ابي بكر وعمر رضي الله عنهما فاخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها اذ كان
قد استوى عندهم الماء والمال والذهب والحجر وما ينقل عنهم من امتناع فاما ان ينقل ممن خاف لو اخذ
ان يخدعه المال ويقيد قلبه فيدعوه الى الشهوات وهذا حال الضعفاء فلا جرم البغض للمال والهرب
منه في حقهم كمال وهذا حال جميع الخلق لان كلهم ضعفاء الا الانبياء والاولياء واما ان ينقل من
قوي بلغ الكمال ولكن اظهر الفرار والنفار نزولا الى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك اذ
لو اقتدوا به في الاخذ لهلكوا كما يفر الرجل المعزم بين يدي اولاده من الحية لا لضعفه عن اخذها
ولكن لعلمه بانه لو اخذها لاخذها اولاده اذا راوها فهلكوا والسير بسير الضعفاء ضروري
للانبياء والاولياء والعلماء فقد عرفت اذا ان المراتب ستة اعلاها رتبة المستغني ثم الزاهد ثم الراضي
ثم القانع ثم الحريص واما المضطر فيتصور في حقه ايضا الزهد والرضا والقناعة ودرجته تختلف
بحسب اختلاف هذه الاحوال واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة اما تسمية المستغني فقيرا فلا وجه له بهذا المعنى
بل ان سمي فقيرا فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا الى الله تعالى في جميع اموره عامة وفي بقاء استغنائه
عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية واقر بها فانه احق باسم العبد
من الغافلين وان كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام ومن عرف نفسه بالفقر الى الله عز وجل
فهو احق باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين واذا عرفت هذا الاشتراك فهمت ان قوله

صلى الله عليه وسلم نعوذ بك من الفقر وكاد الفقر ان يكون كفرا لا ينافي قوله احيني مسكينا وامتني مسكينا اذ الفقر
المضطر هو الذي استعاذ منه والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار الى الله عز وجل
هو الذي سأله في دعائه **بيان فضيلة الفقر مطلقا** اما الآيات فيدل عليه
قوله تعالى للفقراء الذين احصروا في سبيل الله المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم يبتغون فضلا
واموالهم وقال تعالى للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الارض يحسبهم الجاهل
اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم ساق الكلام في معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم
بالهجرة والاحصار وفيه دلالة على مدح الفقر واما الاخبار في مدح الفقر فاكثر من ان تحصى فقد قال
ابن عمر رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه اي الناس خير فقالوا موسر من المال يعطي
حق الله تعالى في نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس يا رسول الله فقال فقير
يعطي جهده وقال صلى الله عليه وسلم لبلال الق الله عز وجل فقيرا ولا تلقه غنيا وقد قال صلى الله عليه وسلم
ان الله يحب الفقير المتعفف ابا العيال وفي الخبر المشهور يدخل فقراء امتي الجنة قبل اغنيائهم بخمسمائة
عام وفي حديث آخر باربعين خريفا اي اربعين سنة فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص
على الغني الحريص والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على الغني الراغب وما ذكرناه
من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتا بين الفقراء في درجاتهم وكان الفقير
الحريص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد اذ هذه نسبة الاربعين الى خمسمائة
ولا تظنن ان تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجري على لسانه جزافا وبالاتفاق بل لا ينطق صلى الله
عليه وسلم الا بحقيقة الحق فانه لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم
الرؤيا الصالحة جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة فانه تقدير تحقيق لا محالة ولكن ليس في قوة
غيره ان يعرف علة تلك النسبة الا بتخمين لا مائما بالتحقيق فلا بد ان نعلم ان النبوة عبارة عما يختص به النبي

ويفارق

ويفارق به غيره وهو يختص بانواع من الخواص احدها انه يعرف حقائق الامور المتعلقة بالله وصفاته
وملائكته والدار الآخرة لا كما يعلمه غيره بل مخالفا له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق
والكشف والثاني ان له في نفسه صفة بها تتم الافعال الخارقة للعادات كما ان لنا صفة بها تتم الحركات
المقرونة بارادتنا واختيارنا وهي القدرة وان كانت القدرة والمقدور جميعا من فعل الله عز وجل
والثالث ان له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما ان البصير له صفة بها يفارق الاعمى حتى يدرك بها
المبصرات والرابع له صفة بها يدرك ما سيكون في الغيب اما في اليقظة واما في المنام اذ بها يطالع اللوح
المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للانبياء ويعلم انقسام كل
واحد الى اقسام وربما يمكننا ان نقسمها الى اربعين والى خمسين والى ستين ويمكننا ايضا ان نتكلف
تقسيمها الى ستة واربعين بحيث تقع الرؤيا الصالحة واحدا من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من
طرق التقسيمات الممكنة لا يكون الا بظن وتخمين ولا يدرى تحقيقا انه الذي اراده رسول الله صلى الله
عليه وسلم اولا وانما المعلوم مجامع الصفات التي بها تتم النبوة واصل انقسامها وذلك لا يرشدنا
الى معرفة علة التقدير فكذلك لكن نعلم ان الفقراء لهم درجات كما سبق قطعا ثم كان هذا الفقير الحريص
مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد ولم يقتض له التقدم باكثر من اربعين سنة الى الجنة
واقتضى ذلك التقدير بخمسمائة عام فليس في قوة غير الانبياء الوقوف على ذلك الا بنوع من التخمين ولا
يوثق به والغرض التنبيه على منهاج التقدير في امثال هذه الامور فان ضعيف الايمان قد يظن
ان ذلك يجري من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق وحاشا منصب النبوة عن ذلك ولنرجع
الى نقل الاخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم ايضا خير هذه الامة فقراؤها واسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها
وقال صلى الله عليه وسلم ان لي حرفتين اثنتين فمن احبهما فقد احبني ومن ابغضهما فقد ابغضني الفقر
والجهاد وروي ان جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد ان الله يقرئك السلام

ويقول أتحب ان أجعل هذه الجبال ذهبا وتكون معك حيث ما كنت فاطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة

ثم قال يا جبريل ان الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له قد يجمعها من لا عقل له فقال له جبريل يا محمد

ثبتك الله بالقول الثابت وروي ان عيسى عليه السلام مر في سياحته برجل نايم ملتف في عباءة فايقظه

وقال يا نايم قم فاذكر الله عز وجل فقال ما تريد مني قد تركت الدنيا لاهلها فقال له نم فقد

العابدين ومر موسى عليه السلام برجل نايم على التراب وتحت راسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب

وهو مستتر بعباءة فقال يا رب عبدك هذا ضائع في الدنيا فاوحى الله عز وجل اليه يا موسى ما علمت

اني اذا نظرت الى عبدي بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها وعن ابي رافع انه قال ورد على رسول الله صلى الله عليه

وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فارسلني الى رجل من يهود خيبر وقال قل له يقول محمد اسلفني او بعني دقيقا

الى هلال رجب فاتيته فقال لا والله الا برهن فاخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال اما والله اني

لامين في السماء امين في اهل الارض لو باعني او اسلفني لاديت اليه اذهب بدرعي هذا اليه فارهنته فلما خرجت

نزلت هذه الآية ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا الآية تعزية له

عن الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم الفقر ازين للمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس وقال صلى الله عليه وسلم

من اصبح منكم آمنا في سربه معافى في بدنه عنده طعام يومه فكانما حيزت له الدنيا وقال كعب الاحبار

قال الله عز وجل يا موسى اذا رايت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وقال عطاء الخراساني مر

نبي من الانبياء بساحل البحر فاذا هو برجل يصطاد حيتانا فقال بسم الله والقى شبكته فلم يخرج فيها

حوت واحد ثم مر باخر فقال باسم الشيطان والقى شبكته فخرج من الحيتان ما كان يتقاعس من

كثرتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا رب ما هذا وقد علمت ان كل ذلك بيدك فقال الله تعالى للملائكة

اكشفوا لعبدي عن منزلتهما فلما راى ما اعد الله عز وجل لهذا من الكرامة ولذلك من الهوان قال رضيت

يا رب وقال نبينا صلى الله عليه وسلم اطلعت في الجنة فرايت اكثر اهلها الفقراء واطلعت في النار فرايت اكثر

اهلها الاغنياء وفي لفظ آخر فقلت اين الاغنياء فقال حبسهم الجد وفي حديث آخر فرايت اكثر اهل النار

النساء فقلت ما شانهن فقيل شغلهن الاحمران الذهب والزعفران وقال صلى الله عليه وسلم تحفة المؤمن

في الدنيا الفقر وفي الخبر آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر اصحابي دخولا

الجنة عبد الرحمن بن عوف لاجل غناه وفي حديث آخر رايته دخل الجنة زحفا وقال عيسى عليه السلام

بشدة يدخل الغني في الجنة وفي خبر عن اهل البيت انه صلى الله عليه وسلم قال اذا احب الله عبدا ابتلاه فاذا احبه الحب

البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له اهلا ولا مالا وفي الخبر اذا رايت الفقر مقبلا فقل

مرحبا بشعار الصالحين واذا رايت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته وقال موسى صلى الله عليه وسلم يا رب

من احباؤك من خلقك حتى احبهم لاجلك فقال كل فقير فقير فيمكن ان يكون الثاني للتاكيد ويمكن ان يكون

المراد به شديد الضر وقال عيسى عليه السلام اني لاحب المسكنة وابغض النعماء وكان احب الاسماء اليه

ان يقال يا مسكين ولما قال سادات العرب واغنياؤها لرسول الله صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما

يجيئون اليك ولا نجيء ونجيء اليك ولا يجيئون يعنون الفقراء مثل بلال وصهيب وابي ذر وخباب بن

الارت وعمار بن ياسر وابي هريرة رضي الله عنهم واصحاب الصفة من الفقراء فاجابهم النبي صلى الله عليه وسلم

الى ذلك وذلك انهم شكوا اليه انهم تؤذيهم روايحهم وكان لباسهم الصوف في شدة الحر فاذا

عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم فاشتد على الاغنياء ذلك منهم الاقرع بن حابس التميمي وعيينة

ابن بدر الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم فاجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ان يجمعهم

واياهم مجلس فنزل عليه قوله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون

وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحيوة الدنيا يعني الاغنياء ولا تطع من اغفلنا قلبه يعني الاغنياء

وقل الحق من ربكم مع الفقراء فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر الاية فلما استاذن ابن ام

مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من اشراف قريش فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم

فانزل الله عز وجل عبس وتولى ان جاءه الاعمى وما يدريك لعله يزكى او يذكر فتنفعه الذكرى يعني ابن ام مكتوم اما من استغنى
فانت له تصدى يعني هذا الشريف وقال صلى الله عليه وسلم دخلت الجنة فسمعت حركة امامي فنظرت فاذا
بلال ونظرت في اعلاها فاذا فقراء امتي واولادهم ونظرت في اسفلها فاذا فيهم من الاغنياء والنساء قليل
فقلت يا رب ما شانهم قال اما النساء فاضر بهن الاحمران الذهب والحرير واما الاغنياء فاشتغلوا بطول
الحساب وتفقدت اصحابي فلم ار عبد الرحمن بن عوف ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكي فقلت ما خلفك عني
فقال اما والله يا رسول الله ما خلصت اليك حتى لقيت المشاق وظننت اني لا اراك فقلت ولم قال كنت
احاسب بمالي فانظر الى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة
المخصوصين بانهم من اهل الجنة وهو من الاغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من قال بالمال هكذا
وهكذا ومع هذا فقد استضر بالغنى الى هذا الحد ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال لو قسم
نور هذا على اهل الارض لوسعهم وقال صلى الله عليه وسلم الا اخبركم بملوك اهل الجنة قالوا بلى يا رسول الله
قال كل ضعيف مستضعف اغبر اشعث ذي طمرين لو اقسم على الله لابره وقال عمران بن الحصين كانت لي من
رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال يا عمران ان لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة
فاطمة بنتي فقرع الباب وقال صلى الله عليه وسلم السلام عليكم ادخل فقالت ادخل بابي وامي يا رسول الله
قال انا ومن معي قالت ومن معك يا رسول الله قال عمران فقالت والذي بعثك بالحق نبيا ما علي الا
عباءة قال اصنعي بها هكذا وهكذا واشار بيده فقالت هذا جسدي قد واريته فكيف براسي
فالقى اليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدي بها على راسك ثم اذنت له فدخل فقال السلام عليكم
يا بنتاه كيف اصبحت فقالت اصبحت والله وجعة وزادني وجعا على ما بي اني لست اقدر على طعام آكله
فقد اضر بي الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تجزعي يا بنتاه فوالله ما ذقت طعاما منذ
واني لاكرم على الله منك ولو سالت ربي لاطعمني ولكن آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب بيده على منكبها

وقال لها ابشري فوالله انك لسيدة نساء اهل الجنة قالت فاين آسية امراة فرعون ومريم بنت عمران فقال آسية
سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وخديجة سيدة نساء عالمها وانت سيدة نساء عالمك
انكن في بيوت من قصب لا اذى فيها ولا صخب ثم قال لها اقنعي بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيدا في
الدنيا سيدا في الآخرة **واما الآثار** فقد قال ابو الدرداء ذو الدرهمين اشد حبسا او قال اشد
حسابا من ذي الدرهم وارسل عمر رضي الله عنه الى سعيد بن عامر بالف دينار فجاء كئيبا حزينا فقالت امرأته
احدث امر قال اشد من ذلك ثم قال اريني درعك الخلق فشقه وجعله صررا وفرقه ثم قام يصلي ويبكي
الى الغداة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الاغنياء بخمسمائة
عام لو ان الرجل من الاغنياء بخمسمائة عام يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج وقال ابو هريرة
رضي الله عنه ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل يريد ان يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ورجل
لم ينصب على مستوقد قدرين ورجل دعا بشرابه فلا يقال له ايها تريد وقيل جاء فقير الى مجلس الثوري
فقال له تخط لو كنت غنيا ما قربتك وكان الاغنياء من اصحابه يودون انهم فقراء لكثرة تقريبه
الفقراء واعراضه عن الاغنياء وقال المؤمل ما رايت الغني اذل منه في مجلس الثوري ولا رايت الفقير
اعز منه في مجلس الثوري وقال بعض الحكماء مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا
منهما جميعا ولو رغب في الغنى لفاز بهما جميعا وقال ابن عباس رضي الله عنه ملعون من اكرم بالغنى
واهان بالفقر وقال لقمان لابنه لا تحقرن احدا لخلقان ثيابه فان ربك وربه واحد وقال
يحيى بن معاذ حبك الفقراء من اخلاق المرسلين وايثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من
صحبتهم من علامة المنافقين وفي الاخبار عن الكتب السالفة ان الله عز وجل اوحى الى بعض انبيائه
احذر ان امقتك فتسقط من عيني فاصب عليك الدنيا صبا وكانت عائشة تفرق مائة الف في يوم
وجهه اليها معاوية وابن عامر وغيرهما وان درعها لمرقوع وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم

لحما تنظر بني عليه وكانت صائمة فقالت لو ذكرتني لفعلت وكان قد اوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقال ان اردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء واياك ومجالسة الاغنياء ولا تنزعي درعك حتى ترقعيه
وجاء رجل الى ابرهيم بن ادهم بعشرة آلاف فابى عليه فطالبه الرجل فقال ابرهيم اتريد ان تمحو اسمي عن ديوان
الفقراء بعشرة آلاف لا افعل

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين

قال صلى الله عليه وسلم طوبى لمن هدي الى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به وقال
صلى الله عليه وسلم يا معشر الفقراء اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا فالاول للقانع
وهذا للراضي ويكاد يشعر مفهومه بان الحريص لا ثواب له على فقره ولكن العمومات الواردة في فضل الفقر
تدل على ان له ثوابا كما سياتي تحقيقه فلعل المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله عز وجل في حبس الدنيا
عنه ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه انكار على الله عز وجل وكراهة في فعله فتلك الكراهة هي التي تحبط
ثواب الفقر وروي عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال احب العباد الى الله عز وجل الفقير
القانع برزقه الراضي عن الله وقال صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا وقال ما من احد غني ولا فقير
الا ود يوم القيامة انه كان اوتي قوتا في الدنيا واوحى الله تعالى الى اسمعيل عليه السلام اطلبني عند المنكسرة قلوبهم
فقال ومن هم قال الفقراء الصادقون وقال صلى الله عليه وسلم لا احد افضل من الفقير اذا كان راضيا وقال
صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل يوم القيامة اين صفوتي من خلقي فتقول الملائكة من هم يا ربنا فيقول
فقراء المسلمين القانعين بعطائي الراضين بقدري ادخلوهم الجنة فيدخلونها وياكلون ويشربون
والناس في الحساب يترددون فهذا في القانع والراضي فاما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني
من الكتاب واما الآثار في القناعة والرضا فكثيرة ولا يخفى ان القناعة يضادها
الطمع وقد قال عمر رضي الله عنه ان الطمع فقر واليأس غنى وانه من ييأس عما في ايدي الناس وقنع استغنى
عنهم وقال ابن مسعود ما من يوم الا وملك ينادي من تحت العرش يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك

وقال

تصدقوا او صرفوها الى الخيرات لانهم لا ينفكون في القدرة على المال عن انس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها
واستشعار راحة في بذلها وكل ذلك يورث الانس بهذا العالم وبقدر ما يانس بالدنيا يستوحش من الآخرة
وبقدر ما يانس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة لله عز وجل يستوحش من الله عز وجل ومن حبه ومهما
انقطع اسباب الانس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها والقلب اذا تجافى عما سوى الله وكان مؤمنا بالله
انصرف لا محالة الى الله عز وجل اذ لا يتصور قلب فارغ وليس في الوجود الا الله وغيره فمن اقبل على غيره
فقد تجافى عنه ومن اقبل عليه تجافى عن غيره ويكون اقباله على احدهما بقدر تجافيه عن الآخر وقربه من احدهما
بقدر بعده من الآخر ومثلهما مثل المشرق والمغرب فانهما جهتان فالمتردد بينهما بقدر ما يقرب
من احدهما يبعد من الآخر بل عين القرب من احدهما هو عين البعد من الآخر فعين حب الدنيا هو عين بغض
حب الله فينبغي ان يكون مطمح نظر العارف قلبه فيزجر قلبه عن الدنيا او انسه بها فاذا فضل الفقير
والغني بحسب تعلق قلبهما بالمال فقط فان تساويا فيه تساوت درجاتهما الا ان هذا مزلة القدم
وموضع الغرور فان الغني ربما يظن انه منقطع القلب عن المال ويكون حبه دفينا في باطنه وهو
لا يشعر به وانما يشعر به اذا فقده فليجرب نفسه بتفريقه او اذا سرق منه فان وجد لقلبه اليه
التفاتا فليعلم انه كان مغرورا فكم من رجل باع سرية له لظنه انه منقطع القلب عنها فبعد لزوم
البيع وتسليم الجارية اشتعل من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه فتحقق به انه كان مغرورا وان
العشق كان مستكنا في الفؤاد استكنان النار تحت الرماد وهذا حال كل الاغنياء الا الانبياء
والاولياء واذا كان ذلك محالا او بعيدا فليطلق القول بان الفقر اصلح لكافة الخلق وافضل
لان علاقة الفقير وانسه بالدنيا اضعف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته
وعباداته فان حركات اللسان ليست مرادة لاعيانها بل ليتأكد بها الانس بالمذكور فلا يكون تأثيرها
في اثارة الانس في قلب فارغ عن غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول ولذلك قال بعض السلف من يجد وهو

في طلب الدنيا مثل من يطفي النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمك وقال ابو سليمان نفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها افضل من عبادة غني الف عام وقال رجل لبشر بن الحارث ادع الله عز وجل لي فقد اضر بي العيال فقال اذا قال عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت فان دعاءك افضل من دعائي وكان يقول مثل الغني المتعبد مثل روضة على مزبلة ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحسناء وكانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الاغنياء وقد قال الصديق رضي الله عنه اللهم اني اسالك الذل عندما انتصف من نفسي والزهد فيما جاوز الكفاف واذا كان مثله في كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في ان فقد المال اصلح من وجوده وما ذكره ابن عطاء من ان الغنى وصف الحق فهذا افضل صحيح ولكن اذا كان العبد غنيا عن وجود المال وعدمه جميعا بان يستوي عنده كلاهما فاما اذا كان غنيا بوجوده ومفتقرا الى بقائه فلا يضاهي غناه غنى الله تعالى لان الله عز وجل غني بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور ان يسرق وما ذكر في الرد عليه من ان الله عز وجل ليس غنيا بالاعراض والاسباب صحيح في ذم غنى يريد بقاء المال وما ذكر من ان صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح بل العلم من صفاته وهو افضل شيء للعبد بل منتهى العبد ان يتخلق باخلاق الله عز وجل وقد سمعت بعض المشايخ يقول ان سالك الطريق الى الله عز وجل قبل ان يقطع الطريق تصير الاسماء التسعة والتسعون اوصافا له اي يكون له من كل واحد نصيب واما التكبر فلا يليق بالعبد فان التكبر عليه ليس من صفات الله عز وجل واما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فيليق به نعم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والايذاء وليس ذلك من وصف الله وانما وصف الله عز وجل انه اكبر من كل شيء وانه يعلم انه كذلك والعبد مامور بان يطلب على المراتب ان قدر عليه ولكن بالاستحقاق كما هو في حقه لا بالباطل والتلبيس فعلى العبد ان يعلم ان المؤمن اكبر من الكافر والمطيع اكبر من العاصي والعالم اكبر من الجاهل والانسان اكبر من البهيمة والجماد والنبات واقرب الى الله

منها

منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محققة لا شك فيها لكان صفة الكبر حاصلا له ولائقا به وفضيلة في حقه الا انه لا سبيل الى معرفته فان ذلك موقوف على الخاتمة وليس يدري الخاتمة كيف تتفق فلجهله بذلك وجب ان لا يعتقد لنفسه رتبة فوق رتبة الكافر اذ ربما يختم للكافر بالايمان ويختم له بالكفر فلم يكن ذلك لائقا به لقصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصور ان يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كمالا في حقه لانه من صفات الله عز وجل ولما كان معرفة بعض الاشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصانا في حقه اذ ليس من اوصاف الله علم يضر فمعرفة الامور التي لا ضرر فيها هي التي تتصور في العبد من صفات الله فلا جرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الانبياء والاولياء والعلماء فاذا لو استوى عنده وجود المال وعدمه فهو نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الذي يوصف به الله عز وجل فهو فضيلة اما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه اصلا فهذا نسبة حال الفقير القانع الى حال الغني الشاكر

المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص الى الغني الحريص

ولنفرض ذلك في شخص واحد وهو طالب للمال وساع فيه وفاقد له ثم وجده فله حالة الفقر وحالة الوجود فاي حالتيه افضل فنقول ينظر ان كان مطلوبه ما لا بد منه في المعيشة وكان قصده ان يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه فحال الوجود افضل لان الفقر يشغله بالطلب وطالب القوت لا يقدر على الذكر والفكر الا قدرة مدخولة بشغل والمكفي هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا وقال كاد الفقر ان يكون كفرا اي الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه وان كان المطلوب فوق الحاجة او كان المطلوب قدر الحاجة ولكن لم يكن المقصود الاستعانة على سلوك السبيل فحالة الفقر اصلح وافضل لانهما استويا في الحرص وحب المال واستويا في ان كل واحد ليس يقصد به الاستعانة على الطريق واستويا في ان كل واحد ليس يتعرض للمعصية بسبب الفقر والغنى ولكن افترقا في ان الواجد يانس بما وجد فيتاكد حبه في قلبه ويطمئن

الى الدنيا والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتكون الدنيا عنده مثل السجن الذي يبغي الخلاص
منه ومهما استوت الامور كلها وخرج من الدنيا رجلان احدهما اشد ركونا الى الدنيا فحاله اشد لانه
اذ يلتفت قلبه الى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تاكد انسه بالدنيا وقد قال صلى الله عليه وسلم
ان روح القدس نفث في روعي احبب ما احببت فانك مفارقه وهذا تنبيه على ان فراق المحبوب شديد
فينبغي ان تحب ما لا يفارقك وهو الله ولا تحب ما يفارقك وهو الدنيا فانك اذا احببت الدنيا كرهت لقاء الله
فيكون قدومك على ما تكرهه وفراقك لما تحبه وكل من فارق محبوبا فيكون اذاه في فراقه بقدر حبه وقدر
انسه وانس الواجد للدنيا القادر عليها اكثر من انس الفاقد لها وان كان حريصا عليها فاذا قد انكشف
بهذا التحقيق ان الفقر هو الاشرف والافضل والاصلح لكافة الخلق الا في موضعين احدهما غني مثل عائشة رضي الله
عنها يستوي عنده الوجود والعدم فيكون الوجود مزيدا له اذ يستفيد به ادعية الفقراء والمساكين وهمتهم
والثاني الفقر عن مقدار الضرورة فان ذلك يكاد ان يكون كفرا ولا خير فيه بوجه من الوجوه
الا اذا كان وجوده يبقي حيوته ثم يستعين بقوته وحيوته على الكفر والمعاصي ولو مات جوعا لكانت معاصيه
اقل فالاصلح له ان يموت جوعا ولا يجد ما يضطر اليه ايضا فهذا تفصيل القول في الغني والفقر ويبقى النظر
في فقير حريص متكالب على طلب المال ليس له هم سواه وفي غني هو دونه في الحرص على حفظ المال ولم يكن تفجعه
بفقد المال لو فقده كتفجع الفقير بفقره فهذا في محل النظر والاظهر ان
بعدهما عن الله بقدر قوة تفجعهما بفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقده والعلم عند الله تعالى

فيه بيان ادب الفقير في فقره

للفقير آداب في باطنه وظاهره ومخالطته وافعاله ينبغي
ان يراعيها فاما ادب باطنه فان لا يكون فيه كراهة لما ابتلاه الله عز وجل به من الفقر اعني انه لا يكون كارها
فعل الله عز وجل من حيث انه فعله وان كان كارها للفقر كالمحجوم يكون كارها للحجامة لتألمه ولا يكون كارها
فعل الحجام ولا كارها له بل ربما يتقلد منه منة وهذا اقل درجاته وهو واجب ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر

وقال ابو الدرداء ما من احد الا وفي عقله نقص وذلك انه اذا اتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا مسرورا والليل
والنهار دائبان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك ويح ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص وقيل لبعض الحكماء
ما الغنى قال قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك وقيل كان ابرهيم بن ادهم من اهل النعم بخراسان فبينما
هو مشرف من قصر له ذات يوم اذ نظر الى رجل في فناء القصر وبيده رغيف ياكله فلما اكل نام فقال
لبعض غلمانه اذا قام فجيئوني به فلما قام جاء به اليه فقال ابرهيم ايها الرجل اكلت الرغيف وانت
جائع فشبعت فقال نعم قال ثم نمت طيبا قال نعم فقال ابرهيم في نفسه فما اصنع انا بالدنيا
والنفس تقنع بهذا القدر ومر عامر بن عبد قيس برجل وهو ياكل بقلا وملحا فقال له يا عبد الله
ارضيت من الدنيا بهذا فقال الا ادلك على من رضي بشر من هذا قال بلى قال من رضي بالدنيا عوضا عن
الآخرة وكان محمد بن واسع يخرج خبزا يابسا فيبله بالماء وياكله بالملح ويقول من رضي من الدنيا بهذا
لم يحتج الى احد وقال الحسن لعن الله اقواما اقسم الله عز وجل لهم ثم لم يصدقوه ثم قرا وفي السماء رزقكم وما
توعدون فورب السماء والارض انه لحق الاية وكان ابو ذر يوما جالسا في الناس فاتته امراته فقالت
له اتجلس بين هؤلاء والله ما في البيت هفة ولا سفة فقال يا هنه ان بين ايدينا عقبة كؤدا لا ينجو
منها الا كل مخف فرجعت وهي راضية وقال ذو النون اقرب الناس الى الكفر ذو فاقة لا
صبر له وقيل لبعض الحكماء ما مالك فقال التجمل في الظاهر والقصد في الباطن واليأس مما في ايدي الناس
ويروى ان الله عز وجل قال في بعض الكتب المنزلة يا ابن آدم لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها الا
القوت فاذا اعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فانا اليك محسن وقيل في القناعة

اضرع الى الله لا تضرع الى الناس ... واقنع بياس فان العز في الياس
واستغن عن كل ذي قربى وذي رحم ... ان الغني من استغنى عن الناس

وقيل

يا جامعا مانعا والدهر يرمقه ... مقدرا اي باب منه يغلقه
مفكرا كيف تاتيه منيته ... اغاديا ام بها يسري فتطرقه
جمعت مالا فقل لي هل جمعت له

يا جامع المال أيامًا تفرّقه ... المال عندك مخزون لوارثه ... ما المال مالك إلا يوم تنفقه
أرفّه ببال فتى يغدو على ثقة ... أن الذي قسم الأرزاق يرزقه ... فالعرض منه مصون ما يدنّسه
والوجه منه جديد ليس يخلقه ... أن القناعة من يحلل بساحتها ... لم يلق في ظلّها همًّا يؤرّقه

بيان فضل الفقر على الغني

اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا فذهب الجنيد والخواص والأكثرون إلى تفضيل الفقير وقال ابن عطاء الغني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر ويقال دعا الجنيد على ابن عطاء لمخالفته إياه فيه فأصابته محنة وقد ذكرنا في كتاب الصبر وجه الموازنة بين الشكر والصبر ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل أما يتصوّر الشك في مقامين أحدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب بل هو قانع أو راض بالإضافة إلى غني منفق ماله في الخيرات ليس حريصًا على إمساك المال والثاني فقير حريص مع غني حريص إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك وأن الغني المنفق ماله في الخيرات أفضل من الفقير الحريص أما الأول فربما يظن أن الغني أفضل من الفقير لأنهما تساويا في ضعف الحرص على المال والغني متقرّب بالصدقات والخيرات والفقير عاجز عنها وهذا هو الذي ظنه ابن عطاء فيما نحسبه وأما الغني المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا يتصوّر أن يفضل على الفقير القانع وقد يشهد له ما روي في الخبر أن الفقراء شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات والحج والجهاد فعلّمهم كلمات في التسبيح وذكر لهم أنهم ينالون بها فوق ما ناله الأغنياء فتعلّم الأغنياء ذلك فكانوا يقولونه فعادوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وقد استشهد ابن عطاء أيضًا لما سئل عنه فقال الغني أفضل لأنه وصف الحق أما دليله الأول ففيه نظر لأن الخبر قد روي مفصّلًا تفصيلًا يدل على أن ثواب فضل الله يؤتيه من يشاء فقد روى زيد بن أسلم عن أنس بن مالك قال بعث الفقراء رسولًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني

رسول الفقراء إليك فقال مرحبًا بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم قال قالوا يا رسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحجّون ولا نقدر ويعتمرون ولا نقدر عليه وإذا مرضوا بعثوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلّغ عني الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء أما خصلة واحدة فإن في الجنة غرفًا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء لا يدخلها إلا نبي فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام والثالثة إذا قال الغني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الغني بالفقير وإن أنفق فيها عشرة آلاف درهم وكذلك أعمال البر كلها فرجع إليهم فقالوا رضينا رضينا فهذا يدل على أن قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء يعني ثواب الفقراء على الذكر وأما قوله إن الغني وصف الحق فقد أجابه بعض الشيوخ فقال أترى أن الحق غني بالأسباب والأعراض فانقطع ولم ينطق وأجاب آخر فقالوا التكبر من صفات الحق فينبغي أن يكون أفضل من التواضع ثم قالوا بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات العبودية أفضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات الربوبية لا ينبغي أن ينازع فيها ولذلك قال الله تعالى العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته وقال سهل حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنهما من صفات الرب تعالى فمن هذا الجنس تكلّموا في تفضيل الغنى والفقر وحاصلها تعلّق بعمومات تقبل التأويل وبكلمات قاصرة لا يبعد مناقضتها إذ كما يناقض قول من فضّل الغنى بأنه وصف الحق بالتكبر فكذلك يناقض قول من ذم الغنى لأنه وصف العبد بالعلم والمعرفة فإنه وصف الرب والجهل والغفلة وصف العبد وليس لأحد أن يفضّل الغفلة على العلم وكشف الغطاء في هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر وهو أن ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضيلته والدنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها عائقة عن الوصول إلى الله ولا الفقر مطلوب لعينه ولكن لأن فيه فقد العائق عن الله

وعدم الشاغل عنه وكم من غني لم يشغله الغنى مثل سليمان عليه السلام وعبد الرحمن بن عوف وكم من فقير شغله الفقر
وصرفه عن المقصود وغاية المقصد في الدنيا هو حب الله تعالى والانس به ولا يكون ذلك الا بعد معرفته وسلوك
سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما ان الغنى قد يكون من الشواغل وانما الشاغل
على التحقيق حب الدنيا اذ لا يجتمع مع حب الله في القلب والمحب للشي مشغول به سواء كان في فراقه او في وصاله
وربما يكون شغله في الفراق اكثر وربما يكون في الوصال اكثر والدنيا معشوقة الغافلين المحروم عنها مشغول
بها ويطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها وبالتمتع بها فان فرضت فارغين عن حب المال بحيث
صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد والواجد اذ كل واحد غير متمتع الا بقدر الحاجة ووجود قدر
الحاجة افضل من فقده اذ الجايع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة وان اخذت الامر باعتبار
الاكثر فالفقير عن الخطر ابعد اذ فتنة السراء اشد من فتنة الضراء ومن العصمة ان لا تقدر ولذلك
قالت الصحابة بلينا بفتنة الضراء فصبرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر وهذا خلقة الآدميين كلهم
الا الشاذ الفذ الذي لا يوجد في الاعصار الكثيرة الا نادرا ولما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع النادر
والضراء اصلح للكل دون ذلك النادر زجر الشرع عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه حتى قال عيسى عليه السلام
لا تنظروا الى اموال اهل الدنيا فان بريق اموالهم يذهب بنور ايمانكم وقال بعض العلماء تقليب الاموال يمص
حلاوة الايمان وفي الخبر لكل امة عجل وعجل هذه الامة الدنانير والدراهم وكان اصل عجل قوم موسى من حلية
الذهب والفضة ايضا فاستواء المال والماء والذهب والحجر انما يتصور للانبياء والاولياء ثم يتم لهم ذلك
بعد فضل الله عز وجل بطول المجاهدة اذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول اليك عني اليك عني اذ كانت الدنيا
تتمثل له بزينتها وكان علي رضي الله عنه يقول يا صفراء غري غيري ويا بيضاء غري غيري وذلك لاستشعاره
في نفسه ظهور مبادي الاغترار بها لولا ان رأى برهان ربه وذلك هو الغنى المطلق اذ قال صلى الله عليه وسلم
ليس الغنى بكثرة العرض انما الغنى غنى النفس واذ كان ذلك بعيدا فاذا الاصلح لكافة الخلق فقد المال وان

تصدقوا

108

وهو يخفى قوله صلى الله عليه وسلم يا معشر الفقراء اعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم والا فلا
وارفع من هذا ان لا يكون كارها للفقر بل يكون راضيا به وارفع منه ان يكون طالبا وفرحا به لعلمه بغوائل
الغنى ويكون متوكلا في باطنه على الله عز وجل واثقا به في قدر ضرورته انه يأتيه لا محالة ويكون كارها
للزيادة على الكفاف وقد قال علي رضي الله عنه ان لله عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر فمن علامة الفقر
اذا كان مثوبة ان يحسن عليه خلقه ويطيع به ربه ولا يشكو حاله ويشكر الله عز وجل على فقره ومن علامته اذا
كان عقوبة ان يسوء عليه خلقه ويعصي ربه ويكثر الشكاية ويتسخط القضاء وهذا يدل على ان كل فقير ليس بمحمود
بل الذي لا يتسخط او يرضى او يفرح بالفقر لعلمه بثمرته اذ قيل ما اعطي عبد شيئا من الدنيا الا قيل له خذه على ثلثة
اثلاث شغل وهم وطول حساب واما في ظاهره فان يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر
بل يستر فقره ويستر انه يستره ففي الحديث ان الله عز وجل يحب الفقير المتعفف ابا العيال وقال تعالى يحسبهم الجاهل
اغنياء من التعفف وقال سفيان افضل الاعمال التجمل عند المحنة وقال بعضهم ستر الفقر من كنوز البر واما
في اعماله فان لا يتواضع لغني لاجل غناه بل يتكبر عليه قال علي رضي الله عنه ما احسن تواضع الغني للفقير رغبة
في ثواب الله عز وجل واحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل فهذه رتبة واقل منها ان لا يخالط
الاغنياء ولا يرغب في مجالستهم لان ذلك من مبادي الطمع قال الثوري اذا خالط الفقير الاغنياء فاعلم انه مرائي
واذا خالط السلطان فاعلم انه لص وقال بعض العارفين اذا مال الفقير الى الاغنياء انحلت عروته فاذا طمع
فيهم انقطعت عصمته فاذا سكن اليهم ضل وينبغي ان لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للاغنياء وطمعا في العطاء
واما ادبه في افعاله فان لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة الله عز وجل ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فان ذلك
جهد المقل وفضله اكثر من اموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى وينبغي ان لا يدخر مالا بل ياخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي
وفي الادخار ثلث درجات احدها ان لا يدخر الا ليومه وليلته وهي درجة الصديقين والثانية
ان لا يدخر لاربعين يوما فان ما زاد عليه داخل في طول الامل وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله عز وجل لموسى
عليه السلام

فمنهم من الرخصة في تأصيل الجوع اربعين يوما وهذه درجة المتقين الثالثة ان يدخر لسنة وهي اقصى المراتب
وهي رتبة الصالحين ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيز الخصوص بالكلية
فغنا الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه قوت سنة وغنا الخصوص اربعين يوما وغنا خصوص الخصوص
في يوم وليلة

بيان ادب الفقير في قبول العطا اذا جاءه بغير سوال

ينبغي ان يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلثة امور نفس المال وغرض المعطي وغرضه في الاخذ اما نفس
المال فينبغي ان يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها فان كان فيه شبهة فليحترز من اخذه وقد ذكرنا
في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابها وما يستحب واما غرض المعطي فلا يخلو
اما ان يكون تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية او الثواب وهو الصدقة والزكوة
او الذكر والريا والسمعة اما على التجرد واما ممزوجا ببقية الاغراض اما الاول وهو الهدية
فلا باس بقبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن لا ينبغي ان يكون فيه منة فان كان فيه منة
فالاولى تركها فان علم ان بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض أهدي الى النبي
صلى الله عليه وسلم سمن واقط وكبش فقبل السمن والاقط ورد الكبش وكان صلى الله عليه وسلم يقبل عن بعض
يقبل من بعض الناس ويرد على بعض وقال لقد هممت ان لا اتهب الا من قرشي او ثقفي
او دوسي وفعل هذا جماعة من التابعين وجاءت صرة الى فتح الموصلي فيها خمسون درهما فقال حدثنا
عطاء عن النبي عليه السلام انه قال من اتاه رزق من غير مسئلة فرده فانما يرده على الله ثم فتح الصرة
فاخذ منها درهما ورد سايرها وكان الحسن يروي هذا الحديث ايضا ولقد حمل اليه رجل كيسا ورزمة
من دقيق ثياب خراسان فرد ذلك وقال من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله عز وجل يوم القيمة
وليس له خلاق وهذا يدل على ان امر الواعظ والعالم اشد في قبول العطا وقد كان الحسن يقبل من
اصحابه وكان ابرهيم التيمي يسال اصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المائتين فلا ياخذ وكان بعضهم

اذا اعطاه صديقه شيئا يقول اتركه عندك وانظر ان كنت بعد قبوله في قلبك افضل مني قبل القبول فاخبرني
حتى آخذه والا فلا وامارة هذا ان يشق عليه الرد لو رده ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه
في قبول صديقه هديته فان علم انه يمازجه منة فاخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين
وقال بشر ما سالت احدا قط شيئا الا سريا السقطي لانه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح
بخروج الشي من يده ويتبرم ببقائه عنده فاكون عونا له على ما يحب وجاء خراساني الى الجنيد بمال وساله ان
ياكله فقال افرقه على الفقراء فقال ما اريد هذا قال ومتى اعيش الى ان آكل هذا فقال ما اريد ان تنفقه في الخل
والبقل بل في الحلاوي والطيبات فقبل منه فقال الخراساني ما اجد ببغداد امن علي منك فقال الجنيد ولا ينبغي ان يقبل
الا من مثلك الثاني ان يكون للثواب المجرد وذلك صدقة او زكوة فعليه ان ينظر في صفات نفسه
انه هل هو مستحق للزكوة فان اشتبه عليه فهو محل شبهة وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب اسرار الزكوة
فان كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر الى باطنه فان كان مقارفا لمعصية في السر يعلم ان المعطي
لو علم ذلك لنفر طبعه ولما تقرب الى الله عز وجل بالتصدق عليه فهذا حرام اخذه كما لو اعطاه لظنه انه
عالم او علوي فان اخذه فهو حرام لا شبهة فيه الثالث ان يكون غرضه الشهرة والريا والسمعة
فينبغي ان يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله اذ يكون معينا له على غرضه الفاسد وكان الثوري
يرد ما يعطى ويقول لو علمت انهم لا يذكرون ذلك افتخارا به لاخذت وعوتب بعضهم في رده
ما كان ياتيه من صلة فقال انما ارده عليهم اشفاقا ونصحا لهم لانهم يذكرون ويحبون ان يعلم به
فتذهب اموالهم وتحبط اجورهم واما غرضه في الاخذ فينبغي ان ينظر اهو محتاج اليه فيما لا بد منه
او هو مستغن عنه فان كان محتاجا اليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي فالافضل
له الاخذ قال صلى الله عليه وسلم ما المعطي من سعة باعظم اجرا من الآخذ اذا كان محتاجا وقال صلى الله عليه وسلم
من اتاه شي من هذا المال من غير مسئلة ولا استشراف فانما هو رزق ساقه الله عز وجل اليه وفي لفظ آخر

اي ولا حرص والاطماع من قولهم استشرفت نفسه على الشي اذا اشتد حرصه عليه

فلا يرده وقال بعض العلماء من اعطي ولم ياخذ سال ولم يعط وقد كان سري السقطي يوصل الى احمد بن حنبل شيئا فيرده فقال له السري يا احمد احذر آفة الرد فانها اشد من آفة الاخذ فقال له احمد اعد علي ما قلت فاعاده

فردده مرة

فقال احمد ما رددت عليك الا لان عندي قوت شهر فاحبسه لي عندك فاذا كان بعد شهر فانفذه الي وقد قال العلماء يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع او دخول في شبهة او غيره فاما اذا كان ما اتاه زايدا على حاجته فلا يخلو اما ان يكون حاله الاشتغال بنفسه او التكفل بامور الفقراء والانفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء فان كان مشغولا بنفسه فلا وجه لاخذه وامساكه ان كان طالبا طريق الاخرة فان ذلك محض اتباع الهوى وكل عمل ليس لله فهو من سبيل الشيطان او داع اليه ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه ثم له مقامان احدهما ان ياخذ في العلانية ويرد في السر او يخرج في السر وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه الا من اطمانت نفسه بالرياضة والثاني ان يترك ولا ياخذ ليصرفه صاحبه الى من هو احوج منه او ياخذ ويوصل الى من هو احوج فيفعل كلاهما في السر او كلاهما في العلانية وقد ذكرنا ان الافضل اظهار الاخذ او اخفاؤه في كتاب اسرار الزكوة مع جملة من احكام الفقر فليطلب منه وامتناع احمد عن قبول سري السقطي انما كان لاستغنائه عنه اذ كان عنده قوت شهر ولم يرض لنفسه ان يشتغل باخذه وصرفه الى غيره فان في ذلك آفات واخطارا والورع يكون حذرا من مظان الآفات اذ لم يامن مكيدة الشيطان على نفسه وقال بعض المجاورين بمكة كانت عندي دراهم اعددتها للانفاق في سبيل الله فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي جايع كما ترى عريان كما ترى فما ترى فيما ترى يا من يرى ولا يرى فنظرت فاذا عليه خلقان لا تكاد تواريه فقلت في نفسي لا اجد لدراهمي موضعا احسن من هذا فحملتها اليه فنظر اليها ثم اخذ منها خمسة دراهم فقال اربعة ثمن مئزرين ودرهم انفقه ثلثا فلا حاجة لي الى الباقي قال فرايته الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان فهجس في نفسي منه شي فالتفت الي فاخذ بيدي فاطافني معه اسبوعا كل شوط منها

فهو سبيل الشيطان

او الترك والاخذ

واما امتناع

انا جايع

في جوهر من معادن الارض يخشخش تحت اقدامنا الى الكعبين منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر للناس فقال هذا كله قد اعطانيه فزهدنا فيه ونأخذ من ايدي الناس لان هذا المال فتنة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة والمقصود ان الزيادة على قدر الحاجة انما تاتيك ابتلاء وفتنة وذلك لينظر الله اليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة ياتيك رفقا بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال الله عز وجل انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا وقال صلى الله عليه وسلم لا حق لابن ادم الا في ثلث طعام يقيم صلبه وثوب يواري عورته وبيت يكنه فما زاد فهو حساب فاذا انت في الاخذ في اخذ الحاجة عن هذه الثلاث مثاب وفيما زاد عليه ان لم تعص الله تعالى عليه تعالى متعرض للحساب وان عصيت الله عز وجل انت متعرض للعذاب ومن الاختبار ايضا ان تعزم على ترك لذة من اللذات تقربا الى الله عز وجل وكسر الصفة النفس فتاتيك عفوا صفوا ليمتحن به قوة عقدك فالاولى الامتناع عنه فان النفس اذا رخصت في نقض العزم الفت نقض العهد وعادت بعادتها ولا يمكن قهرها فرد ذلك مهم في الزهد فان اخذته وصرفته الى محتاج فهو غاية الزهد ولا يقدر عليه الا الصديقون فاما اذا كان حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتعهد جماعة من الصلحاء فخذ ما زاد على حاجتك فانه غير زايد على حاجة الفقراء وبادر به الى الصرف اليهم ولا تدخر فان امساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار فربما يحلو في قلبك فتمسكه ويكون فتنة عليك فقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة الى التوسع في المال والتنعم في المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك ومن كان غرضه الرفق وطلب الثواب فله ان يستقرض على حسن الظن بالله لا على اعتماد السلاطين الظلمة فان رزقه الله من حلال قضاه وان مات قبل القضاء قضى الله تعالى عنه وارضى غرماءه وذلك بشرط ان يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغر المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على اقراضه على بصيرة ودين

وفتنة لينظر

ان يتصدى لخدمة الفقراء

مثل هذا الرجل وجب ان يقضى من مال بيت المال ومن الزكوات وقد قال تعالى ومن قدر عليه رزقه
فلينفق مما آتيه الله قيل معناه احد ثوبيه وقيل معناه فليستقرض بجاهه فذلك قد آتاه الله
وقد قال بعضهم لله عباد ينفقون على قدر بضايعهم ولله عباد ينفقون على قدر حسن الظن بالله تعالى
ومات بعضهم فاوصى بماله لثلث طوايف الاقويا والاسخيا والاغنيا فقيل من هولا فقال اما
الاقويا فهم اهل التوكل على الله واما الاسخيا فهم اهل حسن الظن بالله واما الاغنيا فهم اهل
الانقطاع الى الله فاذا ما وجدت هذه الشروط فيه وفي المال وفي المعطي فلياخذ وينبغي ان يرى
ما ياخذ من الله لا من المعطي انما المعطي واسطة قد سخر للعطا وهو مضطر اليه بما سلط من الدواعي
والارادات والاعتقادات وقد حكى ان بعض الناس دعا شقيقا في خمسين من اصحابه فوضع الرجل مائدة
حسنة فلما قعد قال لاصحابه ان هذا الرجل يقول من لم يرانى صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامي
عليه حرام فقام كلهم وخرجوا الا شابا كان دونهم في الدرجة فقال لصاحب المنزل الشقيق ما ذا قصدت
بهذا فقال اردت ان اختبر توحيد اصحابي كلهم وقال موسى عليه السلام يا رب جعلت رزقي هكذا على ايدي
بنى اسرايل يغديني هذا يوما ويعشيني هذا ليلة فاوحى الله عز وجل اليه هكذا اصنع باوليائي اجري
ارزاقهم على ايدي البطالين ليوجروا فيهم فلا ينبغي ان يرى المعطي الا من حيث انه مسخر ماجور

بيان تحريم السوال عن غير ضرورة وادب الفقير المضطر فيه

اعلم انه قد وردت مناهي في السوال وتشديدات وورد فيها ايضا ما يدل على الرخصة اذ قال صلى الله
عليه وسلم للسايل حق وان جاء على فرس وفي الحديث ردوا السايل ولو بظلف محرق ولو كان
السوال حراما مطلقا لما جاز اعانة المعتدي على عدوانه والاعطا اعانة فالكاشف للغطا
فيه ان السوال حرام في الاصل وانما الاصل فيه التحريم لانه لا ينفك عن ثلثة امور محرمة الاول اظهار
الشكوى من الله عز وجل اذ السوال اظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله عنه وهو عين الشكوى وكما

ان العبد المملوك لو سال لكان سواله تشنيعا على سيده فكذا سوال العباد تشنيع على الله عز وجل وهذا
ينبغي ان يحرم ولا يحل الا بضرورة كما تحل الميتة والثاني ان فيه اذلال السايل نفسه لغير الله عز وجل
وليس للمومن ان يذل نفسه بل عليه ان يذل نفسه لمولاه فان فيه عزه فاما ساير الخلق فانهم عباد
امثاله فلا ينبغي ان يذل لهم الا بضرورة وفي السوال ذل للسايل بالاضافة الى المسول والثالث
انه لا ينفك عن ايذاء المسول غالبا لانه ربما لا يسمح نفسه بالبذل عن طيبة قلب فان بذل حياء من
السايل او ريا فهو حرام على الاخذ وان منع ربما استحيا وتاذى في نفسه بالمنع اذ يرى نفسه في صورة البخلاء
ففي البذل نقصان ماله وفي المنع نقصان جاهه وكلاهما موذيان والسايل هو السبب في الايذاء والايذاء
حرام الا بضرورة ومهما فهمت هذه المحذورات الثلاث فهمت قوله صلى الله عليه وسلم حيث قال مسئلة الناس
من الفواحش وما احل من الفواحش غيرها فانظر كيف سماه فاحشة ولا يخفى ان الفاحشة انما تباح
بضرورة كما يباح شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيرها وقال صلى الله عليه وسلم من سال عن غنى فانما
يستكثر من جمر جهنم ومن سال وله ما يغنيه جاء يوم القيمة ووجهه عظم يتقعقع ليس عليه لحم وفي لفظ اخر
كانت مسئلته خدوشا وكدوحا في وجهه وهذه الالفاظ صريحة في التحريم والتشديد وبايع رسول الله
صلى الله عليه وسلم قوما على الاسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفية ولا تسالوا الناس شيا وكان يامر
كثيرا بالتعفف عن السوال ويقول من سالنا اعطيناه ومن استغنى اغناه الله وقال من لم يسالنا فهو احب
الينا وقال استغنوا عن الناس وما قل من السوال فهو خير قالوا ومنك يا رسول الله قال ومني وسمع عمر سايلا
يسال بعد المغرب فقال لواحد من قومه عش الرجل فعشاه ثم سمعه ثانية يسال فقال الم اقل لك
عش الرجل فقال قد عشيته فنظر عمر فاذا تحت يده مخلاة مملوة خبزا فقال لست سايلا ولكنك تاجر
ثم اخذ المخلاة ونثرها بين يدي ابل الصدقة وضربه بالدرة وقال لا تعد ولولا ان سواله كان
حراما لما ضربه ولا اخذ مخلاته ولعل الفقيه الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر

ويقول للحاضر به فهو تأديب وقد ورد الشرع بالتعزير فاما اخذ ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد
بالعقوبة بالمال فكيف استجاز ذلك وهذا استبعاد مصدره القصور في الفقه فاين يظهر الفقهاء كلهم في حوصلة
عمر بن الخطاب رضي الله عنه واطلاعه على اسرار دين الله ومصالح عباده افترى انه لم يعلم ان المصادرة
بالمال غير جائز او علم ذلك ولكن اقدم عليه غضبا في معصية الله عز وجل وحاشاه او اراد الزجر بالمصلحة
بغير طريقه الذي شرعه نبي الله صلى الله عليه وسلم وهيهات فان ذلك ايضا معصية بل الفقه الذي لاح له
انه رآه مستغنيا عن السؤال وعلم ان من اعطاه شيئا فانما اعطاه على اعتقاد انه محتاج وقد كان
كاذبا فلم يدخل في ملكه باخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده اذ لا يعرف اصحابه باعيانهم
فبقي مالا لا مالك له فوجب صرفه الى المصالح وابل الصدقة وعلفها من المصالح ويتنزل اخذ السائل
مع اظهار الحاجة كاذبا كاخذ العلوي بقوله اني علوي وهو كاذب فانه لا يملك ما ياخذه وكاخذ الصوفي
والصالح الذي يعطى لصلاحه وهو في الباطن مقارف معصية لو عرفها المعطي لما اعطاه وقد ذكرنا في
مواضع ان ما اخذوه لا يملكونه فهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد على المالك فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه
على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء وقد قررنا في مواضع ولا تستدل بغفلتك عن هذا
الفقه على بطلان فعل عمر رضي الله عنه فاذا قد عرفت ان السؤال يباح بضرورة فاعلم ان الشيء اما ان
يكون مضطرا اليه او محتاجا اليه حاجة مهمة او خفية او مستغنى عنه فهذه اربعة احوال اما المضطر اليه فهو سؤال
الجائع عند خوفه على نفسه موتا او مرضا وسؤال العاري وبدنه مكشوف وليس معه ما يواريه
وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسؤول بكونه مباحا والمسؤول منه بكونه راضيا في الباطن وفي السائل
بكونه عاجزا عن الكسب فان القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال الا اذا استغرق طلب العلم اوقاته
وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة واما المستغني فهو الذي يطلب شيئا وعنده مثله وامثاله
فسؤاله حرام قطعا وهذان طرفان واضحان واما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذي يحتاج

الى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكنه لا يخلو عن خوف وكمن له جبة ولا قميص تحتها في الشتاء وهو
يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهي الى حد الضرورة وكذلك من يسأل لاجل الكراء وهو قادر على المشي بمشقة
فهذا ايضا ينبغي ان يسترسل فيه بالاباحة لانها حاجة محققة ولكن الصبر عليه اولى وهو بترك السؤال تارك
للاولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق في السؤال وقال ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذيني اذى اطيقه
ولكن يشق علي فاذا صدق يكون صدقه كفارة لسؤاله ان شاء الله تعالى واما الحاجة الخفيفة فمثل
سؤاله قميصا ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه فيستر به الخروق في ثيابه عن اعين الناس وكمن يسأل لاجل
الادم وهو واجد للخبز وكمن يسأل الكرى للفرس وهو واجد كراء الحمار او يسأل كرى الجمل وهو قادر على
الراحلة فهذا ان كان فيه تلبيس حال باظهار حاجة غير هذه فهو حرام وان لم يكن وكان فيه شيء من
المحذورات الثلث من الشكوى او الذل او ايذاء المسؤول فهو حرام لان مثل هذه الحاجة لا تصلح لان تباح
لها هذه المحذورات وان لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة فان قلت فكيف يمكن اخلاء
السؤال عن هذه المحذورات فاعلم ان الشكوى تندفع بان يظهر الشكر لله عز وجل والاستغناء
عن الخلق ولا يسأل سؤال المحتاج ولكن يقول انا مستغن بما املكه ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب
فوق ثيابي وهي فضلة على الحاجة وفضول من النفس فيخرج به عن حد الشكوى واما الذل فان يسأل
اباه او قريبه او صديقه الذي يعلم انه لا ينقصه في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله او الرجل السخي
الذي قد اعد ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله ويتقلد منة منه بقبوله ويسقط عنه
الذل بذلك فان الذل لازم للمنة لا محالة واما الايذاء فسبيل الخلاص عنه ان لا يعين شخصا بالسؤال
بعينه بل يلقي الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل الا متبرع بصدق الرغبة وان كان في القوم
شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام فهذا ايذاء فانه ربما يبذل كرها خوفا من الملامة ويكون
الاحب اليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير ملامة واما اذا كان يسأل معينا فينبغي ان لا يصرح

بل نعرض تعريضا يبقى له سبيل الى التغافل ان اراد فاذا لم يتغافل مع القدرة فذلك لرغبته وانه غير متاذى
به وينبغى ان يسال من لا يستحيى منه لو رده او تغافل فان الحيا من السايل يوذى كما ان الريا مع غير السايل
يوذى فان قلت فاذا اخذ مع العلم بان باعث المعطى هو الحيا منه او من الحاضرين ولولاه لما
ابتداه به فهو حلال او شبهة فاقول ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الامة وحكمه حكم اخذ مال الغير
بالضرب والمصادرة اذ لا فرق بين ان يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب او يضرب باطن قلبه بسوط
الحيا وخوف الملامة وسياط الباطن اشد نكاية فى قلوب العقلا ولا يجوز ان يقال هو فى الظاهر
قد رضى به وقد قال صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السراير فان هذه ضرورة القضاة
فى فصل الخصومات اذ لا يمكن ردهم الى الباطن وقراين الحال فاضطروا الى الحكم بظاهر اللسان
مع انه ترجمان كثير الكذب ولكن الضرورة دعت الى هذا وهذا سوال عما بين العبد وبين الله عز وجل والحاكم فيه احكم
الحاكمين والقلوب عنده كالالسنة عند ساير الحكام فلا تنظر فى مثل هذا الا الى قلبك ان افتوك وافتوك
فان المفتى معلم القاضى والسلطان ليحكموا فى عالم الشهادة ومفتى القلوب هم علما الاخرة وبفتواهم
النجاة عن سطوة سلطان الاخرة كما ان بفتوى الفقيه النجاة عن سطوة سلطان الدنيا فاذا كل ما ياخذه
مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب رده على صاحبه فان كان يستحيى من ان يسترده ولم
يسترده فعليه ان يثيبه بما يساوى قيمته فى معرض الهدية والمقابلة ليتفصى عن عهدته فان لم يقبل
هديته فعليه ان يرد ذلك الى ورثته فان تلف فى يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله عز وجل وهو عاص
بالتصرف فيه وبالسوال الذى حصل به الاذى فان قلت فهذا امر باطن يعسر الاطلاع عليه فكيف
السبيل فيه فربما يظن السايل انه راض ولا يكون هو فى الباطن راضيا فاقول لهذا ترك المتقون السوال راسا
فما كانوا ياخذون من احد شيا اصلا فكان بشر لا ياخذ من احد اصلا الا من السرى وقال لانى علمت انه
يفرح بخروج المال من يده فانا اعينه على ما يحبه وانما عظم النكير فى السوال والامر بالتعفف لهذا

فانما

لان الاذى انما يحل لضرورة وهو ان يكون مشرفا على الهلاك ولم يبق له سبيل الى الخلاص ولم يجد من يعطيه
من غير كراهة واذى فيباح له ذلك كما يباح له لحم الخنزير واكل الميتة فكان الامتناع طريق الورعين ومن ارباب
القلوب من كان واثقا ببصيرته فى الاطلاع على قراين الاحوال فكانوا ياخذون من بعض الناس دون
البعض ومنهم من كان لا ياخذ الا من اصدقايه ومنهم من كان ياخذ مما يعطى بعضا ويرد بعضا كما فعل رسول الله
صلى الله عليه وسلم فى الكبش والاقط وكان هذا فيما ياتيهم من غير سوال فان ذلك لا يكون الا عن رغبة ولكن قد يكون
رغبته طمعا فى جاه او طلبا للريا والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك فاما السوال فقد امتنعوا عنه
راسا الا فى موضعين احدهما الضرورة فقد سال ثلثة من الانبياء فى مقام الضرورة سليمان وموسى
والخضر عليهم السلام ولا شك فى انهم ما سالوا الا من علموا انه يرغب فيهم والثانى السوال من الاصدقا
والاخوان وكانوا قد ياخذون مالهم بغير سوال واستيذان لان ارباب القلوب علموا ان المطلوب رضى
القلب لا نطق اللسان وكانوا قد وثقوا باخوانهم انهم كانوا يفرحون بمباسطتهم فاذا كانوا يسالون
الاخوان عند شكهم فى اقتدار اخوانهم على ما يريدونه والا فكانوا يستغنون عن السوال وحد اباحة السوال
ان تعلم ان المسوول بصفة لو علم ما بك من الحاجة لابتداك دون السوال فلا يكون لسوالك تاثير الا فى تعريف
حاجتك فاما فى تحريكه بالحيا واثارة داعيته بالحيل فلا ويتصدى للسايل حالة لا يشك فى الكراهة ويعلم
ذلك بقرينة الحال والاحوال فالاخذ فى الحالة الاولى حلال طلق وفى الثانية حرام سحت ويتردد بين الحالين
احوال يشك فيه فليستفت فيه قلبه وليترك حواز القلب فانه الاثم وليدع ما يريبه الى ما لا يريبه
وادراك ذلك بقراين الاحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته فان قوى الحرص وضعفت
الفطنة تراى له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقراين الدالة على الكراهة وبهذه الدقايق يطلع على
سر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال ان اطيب ما ياكل الرجل من كسبه وقد اوتى رسول الله جوامع الكلم
لان من لا كسب له ولا كسب لابيه مما ورثه فياكل من ايدى الناس فان اعطى بغير سوال فانما يعطى بدينه

ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لاعطى بدينه فيكون ما ياخذه حراما وان اعطى بسؤال فاين من يطيب
قلبه بالعطاء او السؤال واين من يقتصر على حد الضرورة فاذا افتشت احوال من ياكل من يد الناس
علمت ان جميع ما ياكله او اكثره سحت وان الطيب هو الكسب الذي اكتسبت انت او موروث فاذا بعيد
ان يجتمع الورع مع الاكل من ايدي الناس فنسال الله تعالى ان يقطع طمعنا عن غيره وان يغنينا بحلاله
عن حرامه بمنه وجوده.

بيان مقدار الغنى المحرم للسؤال

اعلم ان قوله صلى الله عليه وسلم من سال عن غنى فانما يستكثر من جمر جهنم صريح في التحريم ولكن حد الغنى مشكل وتقديره
عسير وليس الينا وضع المقادير بل نستدرك ذلك بالتوقيف وقد ورد في الحديث استغنوا بغنى الله
عز وجل قالوا وما هو قال غداء يوم او عشاء ليلة وفي حديث اخر من سال وله خمسون درهما او عدلها
من الذهب فقد سال الحافا وورد في لفظ اخر اربعون درهما اختلفت التقديرات وصحت الاخبار
فينبغي ان يقطع بورودها على احوال مختلفة فان الحق في نفسه لا يكون الا واحدا والتقدير ممتنع
وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك الا بتقسيم محيط باحوال المحتاجين فنقول قال صلى الله عليه وسلم
لا حق لابن ادم الا في ثلث طعام يقيم صلبه وثوب يواري عورته وبيت يكنه فما زاد فهو حساب فلنجعل
هذه الثلث اصلا في الحاجات لبيان اجناسها والنظر في الاجناس والاقدار والاوقات فاما الاجناس
فهي هذه الثلث ويلحق بها ما في معناها حتى يلحق به الكراء للمسافر اذا كان لا يقدر على المشي وكذلك ما يجري
مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفالته واما الاقدار فالثوب يراعى
فيه ما يليق بذوي الدين وهو ثوب واحد قميص ومنديل وسراويل ومداس فاما الثاني من كل جنس
فهو مستغنى عنه وليقس على هذا اثاث البيت ولا ينبغي ان يطلب رقة الثياب وكون الاواني من النحاس
والصفر فيما يكفي فيه الخزف فان ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على اخس
اجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة والطعام فقدره في اليوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه

ما يقتات ولو الشعير والادم على الدوام فضلة وقطعه بالكلية اضرار وفي طلبه في بعض الاحوال رخصة
واما المسكن فاقله ما يجزي من حيث المقدار وذلك من غير زينة فاما السؤال للزينة والتوسع فهو
سؤال من هو غني واما بالاضافة الى الاوقات فما يحتاج اليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب
يلبسه وماوى يكنه فلا يشك فيه فاما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلث درجات احدها ما يحتاج اليه في غد
والثانية ما يحتاج اليه في السنة وليقطع بان من معه ما يكفيه له ولعياله ان كان له عيال لسنة فسؤاله
حرام فان ذلك غاية الغنى وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما في الحديث فان خمسة دنانير تكفي
المنفرد في السنة اذا اقتصد اما المعيل فربما لا يكفيه وان كان يحتاج اليه قبل السنة فان كان قادرا على
السؤال ولا تفوته فرصة فلا يحل له السؤال لانه مستغن في الحال وربما لا يعيش الى الغد فيكون قد سال
ما لا يحتاج اليه فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة وعليه ينزل الخبر الذي في التقدير بهذا القدر وان
كان يفوته فرصة من السؤال ولا يجد من يعطيه لو اخر فيباح له السؤال لان امل البقاء لسنة غير
بعيد فهو بتاخير السؤال خائف ان يبقى مضطرا عاجزا عما يغنيه فان كان خوف العجز عن السؤال
في المستقبل ضعيفا وكان ما لاجله السؤال خارجا عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية ويكون
كراهيته بحسب درجات ضعف الاضطرار وخوف الفوت وتراخي المدة التي يحتاج فيها الى
السؤال وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله عز وجل
فيستفتي فيه قلبه ويعمل به ان كان سالكا طريق الاخرة وكلما كان يقينه اقوى وثقته بمجيء الرزق
في المستقبل اتم وقناعته بقوت الوقت اظهر فدرجته عند الله اعلى فلا يكون خوف الاستقبال
وقد اتاك الله قوت يومك لك ولعيالك الا من ضعف اليقين والاصغاء الى تخويف الشيطان وقد
قال الله تعالى عز وجل فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين وقال الشيطان يعدكم الفقر ويامركم بالفحشاء
والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والسؤال من الفحشاء الذي ابيح بالضرورة وحال من يسال لحاجة زائدة

عن يومه وان كان داخل السنة اشد من حال من ملك الامور وتأدخر لحاجة متراخية وراء السنة
وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهر ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الامل وعدم الثقة بفضل
الله عز وجل وهي امهات المهلكات

بيان احوال السائلين

كان بشر يقول الفقراء ثلاثة فقير لا يسال وان اعطي لم ياخذ فهذا مع الروحانيين في عليين وفقير لا يسال وان اعطي اخذ
فهذا مع المقربين في جنات الفردوس وفقير يسال عند فاقة فهذا مع الصادقين من اصحاب اليمين فاذا
قد اتفق كلهم على ذم السوال وعلى انه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة وقال ابرهيم بن ادهم لشقيق بن
ابرهيم حين قدم عليه من خراسان كيف تركت الفقراء من اصحابك قال تركتهم ان اعطوا شكروا وان
منعوا صبروا وظن انه لما وصفهم بترك السوال فقد اثنى عليهم غاية الثناء فقال ابرهيم هكذا تركت
كلاب بلخ عندنا فقال له شقيق فكيف الفقراء عندك يا ابا اسحق فقال الفقراء عندنا ان منعوا شكروا
وان اعطوا اثروا فقبل راسه وقال صدقت يا استاذ فاذا درجات ارباب الاحوال في الرضا والصبر
والسوال كثيرة فلا بد لسالك طريق الاخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها فانه اذا
لم يعلم لم يقدر على الترقي من حضيضها الى يفاعها ومن اسفل السافلين الى اعلى عليين وقد خلق الانسان
في احسن تقويم ثم رد الى اسفل سافلين ثم امر بان يترقى الى اعلى عليين ومن لا يميز بين السفل والعلو
لا يقدر على الترقي قطعا وانما الشك فيمن عرف ذلك فانه ربما يقدر عليه وارباب الاحوال قد تغلبهم
حالة تقتضي ان يكون السوال مزيدا لهم في درجاتهم ولكن بالاضافة الى حالهم فان مثل هذه الاعمال بالنيات
وذلك كما روي بعضهم راى ابا الحسين النوري وهو يمد يده ويسال الناس في بعض المواطن قال فاستعظمت
ذلك واستقبحته له فاتيت الجنيد فاخبرته فقال لا يعظم هذا عليك فان النوري لم يسال الناس ليعطيهم
انما سالهم ليثيبهم في الاخرة فيوجرون من حيث لا يضرهم وكانه اشار الى قوله صلى الله عليه وسلم يد المعطي
هي العليا قال بعضهم يد المعطي هي يد الآخذ لانه يعطي الثواب والقدر له لا لما ياخذه ثم قال

الجنيد

الجنيد هات الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فالقاها على المائة ثم قال احملها اليه فقلت في نفسي
انما يوزن الشيء ليعرف مقداره فكيف خلط به مجهولا وهو رجل حكيم واستحييت ان اساله فذهبت بالصرة
الى النوري فوزن مائة درهم وقال ردها عليه وقل له انا لا اقبل منك شيئا واخذ ما زاد على المائة
قال فزاد تعجبي فسالته فقال الجنيد رجل حكيم يريد ان ياخذ الحبل بطرفيه وزن المائة لنفسه
طلبا لثواب الاخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل فاخذت ما كان لله عز وجل ورددت
ما جعله لنفسه قال فرددتها الى الجنيد فبكى وقال اخذ ماله ورد مالنا الله المستعان فانظر الان كيف صفت
قلوبهم واحوالهم وكيف خلصت لله عز وجل اعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد قلب صاحبه من غير مناطقة
باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الاسرار وذلك نتيجة اكل الحلال وخلو القلب عن حب
الدنيا والاقبال بالكلية على الله عز وجل فمن انكر ذلك قبل تجربة طريقه بها فهو جاهل كمن ينكر مثلا
كون الدواء مسهلا قبل شربه ومن انكر بعد ان طال اجتهاده حتى بذل كنه مجهوده ولم يصل فانكر ذلك
لغيره كان كمن شرب المسهل فلم يوثر فيه لعلة باطنة فاخذ ينكر كون الدواء مسهلا وهذا وان كان
في الجهل دون الاول ولكنه ليس خاليا عن حظ وافر من الجهل بل البصير احد رجلين اما رجل سلك
الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل الى عين اليقين واما رجل لم
يسلك الطريق او سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهذا صاحب علم اليقين وان لم يكن
واصلا الى عين اليقين ولعلم اليقين ايضا رتبة وان كان دون عين اليقين ومن خلا عن علم
اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين ويحشر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين
من الذين هم العقول الضعيفة واتباع الشياطين فنسال الله تعالى ان يجعلنا من الراسخين في العلم
القائلين آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولوا الالباب

الشطر الثاني من الكتاب في الزهد

وفيه بيان حقيقة الزهد وبيان فضيلة الزهد وبيان درجات

الزهد واقسامه وبيان تفصيل الزهد في المطعم والملبس والمسكن والاثاث وضرورات المعيشة وبيان علامة الزهد

بيان حقيقة الزهد اعلم ان الزهد

في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات لان ابواب الايمان كلها كما قال السلف ترجع الى عقد وقول وعمل وكان القول لظهوره اقيم مقام الحال اذ به يظهر الحال الباطن والا فليس القول مرادا لعينه وان لم يكن صادرا عن حال سمي اسلاما ولم يسم ايمانا والعلم هو السبب يجري من الحال مجرى المثمر والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة فلنذكر الحال مع كلي طرفيه من العلم والعمل اما الحال فنعني بها ما يسمى زهدا فهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشي الى ما هو خير منه فكل من عدل عن شي الى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فانما عدل عنه لرغبته عنه وانما عدل الى غيره لرغبته فيه فحاله بالاضافة الى المعدول عنه يسمى زهدا وبالاضافة الى المعدول اليه تسمى رغبة وحبا فاذا يستدعي حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبا اليه وهو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه ان يكون ايضا هو مرغوبا فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عما ليس مطلوبا في نفسه لا يسمى زاهدا فتارك التراب والحجر والحشرات لا يسمى زاهدا وانما يسمى تارك الدراهم والدنانير زاهدا لان التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة وشرط المرغوب اليه ان يكون خيرا عنده من المرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة فالبايع لا يقدم على البيع الا والمشتري عنده خير من المبيع فيكون حاله بالاضافة الى المبيع زهدا فيه وبالاضافة الى العوض رغبة وحبا ولذلك قال تعالى وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين معناه باعوه فقد يطلق الشرى بمعنى البيع ووصف اخوة يوسف بالزهد فيه اذ طمعوا في ان يخلو لهم وجه ابيهم وكان ذلك احب عندهم من يوسف فباعوه طمعا في العوض فاذا كل من باع الدنيا بالاخرة فهو زاهد في الدنيا ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن زهد في الدنيا كما خصص اسم الالحاد بمن يميل الى الباطل خاصة وان كان هو للميل في وضع اللسان ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة

لم يتصور

لم يتصور الا بالعدول الى شي هو احب منه والا فترك المحبوب بغير الاحب محال والذي يرغب عن كل ما سوى الله عز وجل حتى الفراديس ولا يحب الا الله فهو الزاهد المطلق والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الاخرة بل طمع في الحور والقصور والفواكه والانهار فهو ايضا زاهد ولكنه دون الاول والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه او يترك التوسع في الاكل ولا يترك التجمل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين وهو زهد صحيح كما ان التوبة عن بعض المعاصي صحيح فان التوبة عبارة عن ترك المحظورات والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس ولا يبعد ان يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات لا يسمى زاهدا وان كان قد زهد في المحظور والانصراف عنه ولكن العادة تخصيص هذا الاسم بترك المباحات فاذا الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا الى الاخرة او عن غير الله عدولا الى الله وهي الدرجة العليا وكما يشترط في المرغوب فيه ان يكون خيرا منه فيشترط في المرغوب عنه ان يكون مقدورا عليه فان ترك ما لا يقدر عليه محال وبالترك يتبين زوال الرغبة ولذلك قيل لابن المبارك يا زاهد قال الزاهد عمر بن عبد العزيز اذ جاءته الدنيا راغمة فتركها اما انا ففيما زهدت واما العلم الذي هو المثمر لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرا بالاضافة الى الماخوذ كعلم التاجر بان العوض خير من المبيع فيرغب فيه وما لم يتحقق هذا العلم لا يتصور ان يزول الرغبة عن المبيع فكذلك من عرف ان ما عند الله باق وان الاخرة خير وابقى اي لذاتها خير في نفسها وابقى كما يكون الجوهر خيرا من الثلج مثلا وهي ابقى كما يكون الجوهر ابقى من الثلج ولا يعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللالي فهكذا مثال الدنيا والاخرة فالدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان الى الانقراض والاخرة كالجواهر التي لا فناء لها فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والاخرة تقوى الرغبة في البيع والمعاملة حتى ان من

قوي يقينه ببيع نفسه وماله كما قال الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة
يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ثم بين ان صفقتهم رابحة وقال فاستبشروا ببيعكم الذي
بايعتم به فليس يحتاج من العلم في الزهد الا الى هذا القدر وهو ان الآخرة خير وابقى وقد يعلم ذلك من
لا يقدر على ترك الدنيا اما لضعف علمه ويقينه واما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهورا في يد
الشيطان واما لاغترار بمواعيد الشيطان في التسويف يوما فيوما الى ان يختطفه الموت ولا يبقى معه
الا الحسرة بعد الفوت والى تعريف خساسة الدنيا الاشارة بقوله تعالى قل متاع الدنيا قليل والى تعريف
نفاسة الآخرة الاشارة بقوله تعالى وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل فنبه على ان
العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه ولما لم يتصور الزهد الا بمعاوضة ورغبة عن محبوب في احب منه
قال رجل اللهم ارني الدنيا كما تراها فقال صلى الله عليه وسلم لا تقل هكذا ولكن قل ارني الدنيا كما اريتها الصالحين
من عبادك وهذا لان الله عز وجل يراها حقيرة كما هي وكل مخلوق فهو بالاضافة الى جلاله حقير والعبد
يراها حقيرة في حق نفسه بالاضافة الى ما هو خير له ولا يتصور ان يرى بايع الفرس وان رغب عنه فرسه
كما يرى حشرات الارض لانه مستغن عن الحشرات اصلا وليس مستغنيا عن الفرس والله تعالى غني بذاته عن كل
ما سواه فيرى الكل في درجة واحدة بالاضافة الى جلاله ويراها متفاوتة بالاضافة الى غيره والزاهد
هو الذي يرى تفاوته بالاضافة الى نفسه لا الى غيره واما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك
واخذ لانه بيع ومعاملة واستبدال الذي هو خير بالذي هو ادنى فكما ان العمل الصادر عن عقد البيع هو ترك
المبيع واخراجه من اليد واخذ العوض فكذلك الزهد يوجب في الدنيا تركا لما زهد فيه بالكلية وهي الدنيا
باسرها مع اسبابها ومقدماتها وعلائقها فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من اليد
والعين ما اخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وساير الجوارح وظايف الطاعات والا كان كمن سلم
المبيع ولم ياخذ الثمن فاذا وفى بشرط الجانبين في الاخذ والترك فليستبشر ببيعه الذي بايع به

فان

فان الذي بايعه بهذا البيع وفي بالعهد فمن اسلم حاضرا في غايب وسلم الحاضر واخذ يسعى في طلب الغايب سلم اليه الغايب حين
فراغه من سعيه ان كان العاقد ممن يوثق بصدقه وقدرته ووفايه بالعهد وما دام ممسكا للدنيا لا يصح زهده اصلا
ولذلك لم يصف الله عز وجل اخوة يوسف بالزهد في ابن يامين وان كانوا قد قالوا ان يوسف واخوه احب الى ابينا منا وعزموا
عزموا على ابعاده كما عزموا على ابعاد يوسف حتى تشفع فيه احدهم ولا وصفهم بالزهد في يوسف عند العزم على اخراجه
الا عند التسليم والبيع فعلامة الرغبة الامساك وعلامة الزهد الاخراج فان اخرجت عن اليد بعض الدنيا دون
البعض فانت زاهد فيما اخرجت فقط ولست زاهدا مطلقا وان لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور
منك الزهد لان ما لا تقدر عليه لا تقدر على تركه وربما يستهويك الشيطان بغروره ويخيل اليك انه وان لم تاتك
فانت زاهد فيه فلا ينبغي ان تتدلى بحبل غروره دون ان تستظهر بموثق غليظ من الله فانك اذا لم تجرب
حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها فكم من ظان بنفسه كراهة المعاصي عند تعذرها فلما تيسرت
له اسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها واذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فاياك ان تثق
بوعدها في المباحات والموثق الغليظ ان تجربها مرة بعد اخرى في حال القدرة فاذا وفت بما وعدت على
الدوام مع انتفاء الصوارف والاعذار ظاهرا وباطنا فلا باس ان تثق بها وثوقا ما ولكن تكون من تغيرها ايضا
على حذر فانها سريعة النقض للعهد قريبة الرجوع الى مقتضى الطبع وبالجملة فلا امان منها الا عند الترك
بالاضافة الى ما ترك فقط وذلك عند القدرة لذلك قال ابن ابي ليلى لابن شبرمة الا ترى الى هذا ابن الحايك
لا نفتي في مسئلة الا رد علينا يعني ابا حنيفة رضي الله عنه قال ابن شبرمة لا ادري اهو ابن الحايك ام لا
ما هو لكن اعلم ان الدنيا غدت اليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها وكذلك كان جميع المسلمين يحبون
ربنا ولو علمنا في اي شي محبته لفعلنا حتى نزل قوله تعالى ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا
من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم قال ابن مسعود قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم انت منهم اي من القليل قال
وما عرفت ان فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة وليس من الزهد

ترك المال على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب ولا على سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات
ولكن لا مدخل لها في العبادات انما الزهد ان تتركها لعلمك بحقارتها بالاضافة الى نفاسة الآخرة فاما كل نوع
من الترك فانه يتصور ممن لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مروة وفتوة وسخاء وحسن خلق ولكن لا يكون زهدا
وحسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي الذ واهنى من المال وكما ان ترك المال على سبيل السلم طمعا
في العوض ليس من الزهد فكذلك تركها طمعا في الذكر والثناء والاشتهار بالفتوة والسخاء او استثقالا لما
في حفظ الاموال من المشقة والعناء والحاجة الى التذلل للسلاطين والاغنياء ليس من الزهد اصلا بل هو استعجال
لحظ آخر للنفس بل الزاهد من اتته الدنيا عفوا صفوا وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح
اسم ولا فوات حظ فتركها خوفا من ان يانس بها فيكون آنسا بغير الله ومحبا لما سوى الله ويكون مشركا في حب الله غير الله او تركها
طمعا في ثواب الآخرة فترك التمتع باشربة الدنيا طمعا في اشربة الجنة وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعا في
الحور العين وترك التفرج في البساتين طمعا في بساتين الجنة واشجارها وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في
زينة الجنة وترك المطاعم اللذيذة طمعا في فواكه الجنة وخوفا من ان يقال له اذهبتم طيباتكم في حيوتكم الدنيا
فآثر جميع ذلك ما وعد به في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفوا صفوا لعلمه بان ما في الآخرة خير وابقى وما
سوى هذا فمعاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة

بيان فضيلة الزهد

قال الله تعالى فخرج على قومه في زينته الى قوله وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير فنسب الزهد الى
العلماء ووصف اهله بالعلم وهو غاية الثناء وقال تعالى اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا جاء
في التفسير على الزهد في الدنيا وقال تعالى انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا قيل معناه
ايهم ازهد فيها فوصف الزهد بانه من احسن الاعمال وقال تعالى من كان يريد حرث الآخرة نزد له
في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب وقال تعالى ولا تمدن
عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى وقال تعالى

الذين

الذين يستحبون الحيوة الدنيا على الآخرة فيه وصفا للكفار فمفهومه ان المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه
وهو ان يستحب الآخرة على الحيوة الدنيا على الآخرة فيه وصف الكفار واما الاخبار فما ورد منها
في ذم الدنيا كثير وقد اوردنا في كتاب ذم الدنيا من ربع المهلكات اذ حب الدنيا من المهلكات ونحن الآن
نقتصر على فضيلة بغض الدنيا فانه من المنجيات وهو المعني بالزهد وقد قال صلى الله عليه وسلم من اصبح وهمه الدنيا
شتت الله عليه امره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم ياته من الدنيا الا ما كتب له ومن اصبح وهمه الآخرة
جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه واتته الدنيا وهي راغمة وقال صلى الله عليه وسلم اذا رايتم العبد
قد اعطي صمتا وزهدا في الدنيا فاقربوا منه فانه يلقى الحكمة وقال عز وجل ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا
ولذلك قيل من زهد في الدنيا اربعين يوما اجرى الله تعالى ينابيع الحكمة في قلبه وانطق بها لسانه وعن بعض الصحابة
انه قال قلنا يا رسول الله اي الناس خير فقال كل مخموم القلب صدوق اللسان قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب
قال التقي النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغي ولا حسد قيل يا رسول الله فمن على اثره قال الذي يشنأ الدنيا
ويحب الآخرة ومفهومه ان شر الناس الذي يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم ان اردت ان يحبك الله فازهد
في الدنيا فجعل الزهد سببا للمحبة فمن احبه الله عز وجل فهو في اعلى الدرجات فينبغي ان يكون الزهد من افضل المقامات
ومفهومه ايضا ان محب الدنيا متعرض لبغض الله وفي خبر من طريق اهل البيت الزهد والورع يجولان
في القلب كل ليلة فان صادفا قلبا فيه الايمان والحياء اقاما فيه والا ارتحلا ولما قال حارثة لرسول الله
صلى الله عليه وسلم انا مؤمن حقا قال وما حقيقة ايمانك فقال عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها
وذهبها وكاني بالجنة والنار وكاني بعرش ربي بارزا فقال صلى الله عليه وسلم عرفت فالزم عبد نور الايمان
قلبه فانظر كيف بدا اظهار حقيقة الايمان بعزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين وكيف زكاه رسول الله
صلى الله عليه وسلم اذ قال عبد نور الايمان قلبه ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى الشرح في قوله تعالى فمن
يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام وقيل له ما هذا الشرح قال ان النور اذا دخل القلب انشرح له الصدر

وانفسح قيل يا رسول الله وهل لذلك من علامة قال نعم التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد
للموت قبل نزوله فانظر كيف جعل الزهد شرطا للاسلام وهو التجافي عن دار الغرور وقال صلى الله عليه وسلم استحيوا
من الله حق الحياء قالوا انا لنستحيي فقال تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تاكلون فتبين ان ذلك
ينافي الحياء من الله تعالى ولما قدم عليه وفد قالوا انا مؤمنون قال وما علامة ايمانكم فذكروا الصبر عند
البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشماتة بالمصيبة اذا نزلت بالاعداء فقال
ان كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تاكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون فجعل الزهد
تكملة ايمانهم وقال جابر خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من جاء بلا اله الا الله لا يخلط معها غيرها
وجبت له الجنة فقام اليه علي رضي الله عنه وقال بابي انت وامي يا رسول الله ما لا يخلط بها غيرها صفه
لنا فقال حب الدنيا طلبا لها واتباعا لها وقوم يقولون قول الانبياء ويعملون اعمال الجبابرة فمن جاء
بلا اله الا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة وفي الخبر السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن والبخل
من الشك ولا يدخل الجنة من شك وقال ايضا السخي قريب من الله قريب من الجنة بعيد من النار والبخيل
بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا والسخاء ثمرة الزهد والثناء على
الثمرة ثناء على المثمر لا محالة وروى ابن المسيب عن ابي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من زهد
في الدنيا ادخل الله الحكمة قلبه فانطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها واخرجه منها سالما
الى دار السلام وروي انه صلى الله عليه وسلم مر في اصحابه بعشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت من احب اموالهم
اليهم وانفسه عندهم لانها تجمع الظهر واللحم واللبن والوبر ولعظمها في قلوبهم قال الله عز وجل واذا العشار عطلت
فاعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل يا رسول الله هذه انفس اموالنا لم لا تنظر اليها فقال قد
نهاني الله عز وجل عن ذلك ثم تلا قوله ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به الآية وروى مسروق عن عائشة
رضي الله عنها قالت قلت يا رسول الله الا تستطعم الله فيطعمك قالت وبكيت لما رايت بك من الجوع فقال يا عائشة
والذي

والذي نفسي بيده لو سالت ربي ان يجري معي جبال الدنيا ذهبا لاجراها حيث شئت من الارض ولكني اخترت
جوع الدنيا على شبعها وفقرها على غناها وحزن الدنيا على فرحها يا عائشة ان الدنيا لا تنبغي لمحمد
ولا لآل محمد يا عائشة ان الله عز وجل لم يرض لاولي العزم من الرسل الا الصبر على مكروه الدنيا
والصبر عن محبوبها ثم لم يرض لي الا ان يكلفني ما كلفهم فقال فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل والله ما لي
بد من طاعته واني والله لاصبرن كما صبروا وجهدي ولا قوة الا بالله وروي عن عمر رضي الله عنه انه قالت له
ابنته حفصة حين فتح الفتوحات البس الين الثياب اذا قدمت عليك الوفود من الآفاق ومر بصنعة
طعام تطعمه وتطعم من حضر فقال عمر يا حفصة الست تعلمين ان اعلم الناس بحال الرجل اهل بيته فقالت نعم
قال ناشدتك الله هل تعلمين ان رسول الله لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا اهل بيته غدوة
الا جاعوا عشية ولم يشبعوا عشية الا جاعوا غدوة وناشدتك الله هل تعلمين ان النبي صلى الله عليه وسلم
لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو واهله حتى فتح الله عليهم خيبر ناشدتك الله هل تعلمين ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قد قربتم اليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم امر
بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك او وضع بالارض ناشدتك الله هل تعلمين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
كان ينام على عباءة مثنية فثنيتموها ليلة باربع فنام عليها فلما استيقظ قال منعتموني قيام الليلة
بهذه العباءة اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها وناشدتك الله هل تعلمين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
كان يضع ثيابه ليغسل فياتيه بلال فيؤذنه بالصلوة فما يجد ثوبا يخرج به الى الصلوة حتى تجف ثيابه فيخرج
فيها الى الصلوة وناشدتك الله هل تعلمين ان امراة من بني ظفر صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كساءين
ازارا ورداء وبعثت اليه باحدهما قبل ان يبلغ الآخر فخرج الى الصلوة وهو مشتمل به ليس عليه
غيره وقد عقد طرفيه الى عنقه فصلى كذلك فما زال يقول حتى ابكاها وبكى عمر وانتحب حتى ظننا ان نفسه
ستخرج عن ابي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لقد كان الانبياء قبلي يبتلى احدهم

بالفقر فلا يجد الا العباء وان كان احدهم ليبتلي بالقمل حتى يقتله القمل وان كان ذلك احب اليهم من العطاء اليكم وعن ابن عباس رضي الله عنه قال ولما ورد موسى ماء مدين فكان خضرة البقل كانت يرى في بطنه من الهزال فهذا ما كان اختيار انبياء الله والمرسلين وهم اعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة وفي حديث عمر رضي الله عنه انه لما نزل قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة تبا للدنيا تبا للدينار والدرهم فقلنا نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فاي شيء ندخر وقال صلى الله عليه وسلم ليتخذ احدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة صالحة تعينه على امر آخرته وفي حديث حذيفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث هم لا يفارق قلبه ابدا وفقر لا يستغني ابدا وحرص لا يشبع ابدا وقال صلى الله عليه وسلم لا يستكمل العبد الايمان حتى ان لا يعرف احب اليه من ان يعرف وحتى يكون قلة الشيء احب اليه من كثرته وقال عيسى عليه السلام الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وقيل له يا نبي الله لو امرتنا ان نبني بيتا نعبد الله عز وجل فيه فقال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء فقالوا كيف يستقيم بنيان على الماء قال فكيف يستقيم عبادة على حب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم ان ربي عرض علي ان يجعل بطحاء مكة ذهبا قلت لا يا رب ولكن اجوع يوما واشبع يوما فاما اليوم الذي اجوع فاتضرع فيه اليك وادعوك واما اليوم الذي اشبع فيه فاحمدك واثني عليك وقال صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله بعبد خيرا ازهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعيوب نفسه وقال صلى الله عليه وسلم ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في ايدي الناس يحبك الناس وقال صلى الله عليه وسلم من اراد ان يؤتيه الله علما بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم من اشتاق الى الجنة سارع الى الخيرات ومن خاف من النار لهي عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات وعن عيسى عليه السلام وعن نبينا صلى الله عليه وسلم اربعة لا يدركن الا بعجب الصمت وهو اول العبادة والتواضع وكثرة الذكر

وقلة الشيء وجميع الاخبار الواردة في مدح بغض الدنيا وذم حبها لا يمكن فان الانبياء ما بعثوا الا لصرف الناس عن الدنيا الى الآخرة فاليه يرجع اكثر كلامهم مع الخلق وفيما اوردناه كفاية واما الآثار فقد جاء في الاثر لا يزال لا اله الا الله يدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يبالوا بما انتقص من دنياهم وفي لفظ آخر ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فاذا فعلوا ذلك وقالوا لا اله الا الله قال الله عز وجل كذبتم لستم بها صادقين وعن بعض الصحابة قال تابعنا الاعمال كلها فلم نر في امر الآخرة ابلغ من زهد في الدنيا وقال بعض الصحابة لصدر التابعين انتم اكثر اعمالا واجتهادا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كانوا اخير منكم قيل ولم ذلك قال كانوا ازهد في الدنيا منكم وقال عمر رضي الله عنه الزهادة في الدنيا راحة للقلب والجسد وقال بلال بن سعد كفى به ذنبا ان الله يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها وقال رجل لسفيان اشتهي ان ارى عالما زاهدا فقال ويحك تلك ضالة لا توجد وقال وهب بن منبه ان للجنة ثمانية ابواب فاذا اجتاز اهل الجنة اليها جعل البوابون يقولون وعزة ربنا لا يدخلها احد قبل الزاهدين في الدنيا والعاشقين للجنة وقال يوسف بن اسباط اني لاشتهي من الله عز وجل ثلاث خصال ان اموت حين اموت وليس في ملكي درهم ولا يكون علي دين ولا على عظمي لحم فاعطي ذلك كله ويروى ان بعض الخلفاء ارسل الى الفقهاء بجوائز فقبلوها وارسل الى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها فقال له بنوه قد قبل الفقهاء وانت ترد على حالتك هذه فبكى الفضيل فقال اتدرون ما مثلي ومثلكم كمثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها فلما هرمت ذبحوها قبل ان لا ينتفعوا بجلدها فكذلك انتم اردتم ذبحي على كبر سني فلو موتوا يا اهلي جوعا خير لكم من ان تذبحوا فضيلا وقال عبيد بن عمير كان عيسى عليه السلام يلبس الشعر ويأكل الشجر وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدخر لغد اين ما ادركه المساء نام وقالت امرأة ابي حازم لابي حازم هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والحطب فقال ابو حازم من هذا كله بد ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله عز وجل ثم الجنة او النار وقيل للحسن

لم لا تغسل قميصك قال الامر اعجل من ذلك وقال ابرهيم بن ادهم قد حجبت قلوبنا بثلثة اغطية فلن يكشف للعبد
اليقين حتى ترفع هذه الحجب الفرح بالموجود والحزن بالمفقود والسرور بالمدح فاذا فرحت بالموجود فانت
حريص واذا حزنت على المفقود فانت ساخط والساخط معذب واذا سررت بالمدح فانت معجب والعجب يحبط
وقال ابن مسعود ركعتان من زاهد قلبه خير له واحب الى الله تعالى من عبادة المتعبدين المجتهدين الى
آخر الدهر ابدا سرمدا وقال بعض السلف نعمة الله علينا فيما صرف عنا اكثر من نعمته فيما صرف الينا وكانه التفت
الى معنى قوله صلى الله عليه وسلم ان الله يحمي عبده الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه
واذا فهم هذا علم ان النعمة في المنع المؤدي الى الصحة اكثر منه في الاعطاء المؤدي الى السقم وكان الثوري
يقول الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترح لا دار فرح من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء
وقال سهل لا يخلص العمل المتعبد حتى لا يفزع من اربعة اشياء الجوع والعري والفقر والذل وقال الحسن
ادركت اقواما وصحبت طوايف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا اقبل ولا ياسفون على شيء منها ادبر ولهي
كانت في اعينهم اهون من التراب وكان احدهم يعيش خمسين سنة وستين سنة لم يطو له ثوب ولم ينصب
له قدر ولم يجعل بينه وبين الارض شيئا ولا امر في بيته بصنعة طعام فاذا كان الليل فقيام
على اطرافهم يفترشون وجوههم تجري دموعهم على صدورهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم كانوا
اذا عملوا الحسنة دابوا في شكرها وسألوا الله عز وجل واذا عملوا سيئة احزنتهم وسالوا ان
يغفرها لهم فلم يزالوا على ذلك ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا الا بالمغفرة

بيان درجات الزهد واقسامه بالاضافة الى نفسه والى المرغوب عنه والى المرغوب فيه

اعلم ان الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته
على ثلث درجات الدرجة السفلى منها ان يزهد في الدنيا وهو لها مشتهي وقلبه اليها مايل ونفسه اليها
ملتفت ولكنه يجاهدها ويكفها وهذا يسمى المتزهد وهو مبدا الزهد في حق من يصل الى درجة

الزهد

الزهد بالكسب في الاجتهاد والمتزهد اولا يذيب نفسه ثم كيسه والزاهد اولا كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعة
لا في الصبر على ما فارقه والمتزهد على خطر فانه ربما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود الى الدنيا في قليل او كثير
الدرجة الثانية الذي يترك الدنيا طوعا لاستحقاره اياها بالاضافة الى ما طمع فيه كالذي يترك درهما
لاجل درهمين فانه لا يشق عليه ذلك وان كان يحتاج الى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى لا محالة زهده
ويلتفت اليه كما يرى البايع المبيع ويلتفت اليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده ويظن انه ترك شيئا
له قدر لما هو اعظم قدرا منه وهذا ايضا نقصان الدرجة الثالثة وهي العليا ان يزهد طوعا ويزهد في
زهده فلا يرى انه ترك شيئا اذ عرف ان الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خزفة واخذ جوهرة فلا يرى ذلك
معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيئا والدنيا بالاضافة الى الله عز وجل ونعيم الآخرة اخس من خزفة
بالاضافة الى جوهرة فهذا هو الكمال في الزهد ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات الى الدنيا
كما ان تارك الخزفة بالجوهرة آمن من طلب الاقالة في البيع قال ابو يزيد لابي موسى عبد الرحيم في اي شيء تتكلم
قال في الزهد قال في اي شيء قال في الدنيا فنفض يده فقال ظننت انه يتكلم في شيء الدنيا لا شيء يزهد
فيها ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند اهل المعرفة وارباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات
مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه فالقى اليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال
القرب عند الملك حتى نفذ امره في جميع مملكته افترى انه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز القاها
الى كلبه في مقابلة ما قد ناله فالشيطان كلب على باب الله عز وجل يمنع الناس من الدخول مع ان الباب
مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز اذا اكلت فلذتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع
ثم يبقى ثقلها في المعدة ثم تنتهي الى النتن والقذر ويحتاج الى اخراج الثفل فمن تركها لينال عز الملك
كيف يلتفت اليها ونسبة الدنيا كلها اعني ما يسلم لكل شخص منها وان عمر ماية سنة بالاضافة الى نعيم الآخرة
اقل من لقمة بالاضافة الى ملك الدنيا اذ لا نسبة للمتناهي الى ما لا نهاية له والدنيا متناهية على القرب

ولو كانت تتمادى الف الف سنة صافيا من كل كدر لكان لا نسبة له الى الابد فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة غير صافية فاي نسبة لها الى نعيم الابد فاذا لا يلتفت الزاهد الى زهده الا اذا التفت الى ما زهد فيه ولا يلتفت الى ما زهد فيه الا لانه يرى شيئا معتدا به ولا يراه للدنيا شيئا معتدا الا لقصور معرفته فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة فهذا تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه ايضا لها درجات اذ تصبر المتزهد يختلف ويتفاوت ايضا باختلاف قدر المشقة في الصبر وكذلك درجة العجب بزهده في قدر المقايسة الى زهده واما الانقسام بالاضافة الى المرغوب فيه فهو ايضا على ثلث درجات الدرجة السفلى ان يكون المرغوب فيه النجاة من النار وسائر الالام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الاهوال كما وردت به الاخبار اذ فيه ان الرجل ليوقف في الحساب ما لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء فهذا زهد الخائفين فكانهم رضوا بالعدم لو اعدموا فان الخلاص من الالم يحصل بمجرد العدم الدرجة الثانية ان يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه واللذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيرها وهذا زهد الراجين فان هولاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الالم بل طمعوا في وجود دائم على نعيم قائم لا اخر له والدرجة الثالثة وهي العليا ان لا يكون له رغبة الا في الله عز وجل وفي لقائه فلا يلتفت قلبه الى الالام ليقصد الخلاص منها ولا الى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها بل هو مستغرق الهم بالله عز وجل وهو الذي اصبح وهمومه هم واحد وهو الموحد الذي لا يطلب غير الله لان من طلب غير الله فقد عبده فكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالاضافة الى مطلبه وطلب غير الله من الشرك الخفي وزهد هذا زهد المحبين وهم العارفون لانه لا يحب الله الا من عرفه وكما ان من عرف الدينار والدرهم وعلم انه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب الا الدينار فمن عرف الله وعرف لذة النظر الى وجهه الكريم وعرف ان الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التنعم بالحور العين والنظر الى نقش القصور وخضرة الاشجار

غير ممكن فلا يحب الا لذة النظر ولا يوثر غيره ولا تظنن ان اهل الجنة عند النظر الى وجه الله عز وجل يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم بل تلك اللذة بالاضافة الى لذة نعيم الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على اطراف الارض ورقاب الخلق بالاضافة الى الاستيلاء على عصفور واللعب به والطالبون لنعيم الجنة عند اهل المعرفة وارباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك وذلك لقصوره عن ادراك لذة الملك لا لان اللعب بالعصفور في نفسه اعلى والذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق واما انقسامه بالاضافة الى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الاقاويل ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نشتغل بنقل الاقاويل ولكن نشير الى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح ان اكثر ما ذكرناه فيه قاصر عن الاحاطة بالكل فنقول المرغوب عنه بالزهد له اجمال وتفصيل ولتفصيله مراتب بعضها اشرح لاحاد الاقسام وبعضها اجمع للجمل اما الاجمال في الدرجة الاولى فهو كل ما سوى الله عز وجل فينبغي ان يزهد فيه حتى يزهد في نفسه ايضا والاجمال في الدرجة الثانية ان يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه واسبابهما واليهما ترجع حظوظ النفس في الدرجة الرابعة ان يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم اذ الاموال وان كثرت اصنافها فيجمعها الدينار والدرهم والجاه وان كثرت اسبابه فيرجع الى العلم والقدرة واعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب اذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها كما ان معنى المال ملك الاعيان والقدرة عليها فان جاوزت هذا التفصيل الى شرح وتفصيل ابلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر وقد ذكر الله عز وجل في اية واحدة سبعة منها فقال زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحيوة الدنيا ثم رده في اية اخرى الى خمسة فقال اعلموا انما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد ثم رده في مواضع اخر الى اثنين فقال وما الحيوة الدنيا الا لعب ولهو ثم رد الكل الى واحد في موضع اخر فقال ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي الماوى فالهوى لفظ يجمع حظوظ النفس في الدنيا فينبغي ان يكون الزهد فيه فاذا

فهمت طريق الاجمال والتفصيل عرفت ان البعض من هذه لا يخالف البعض وانما يفارقها في انه شرح مرة بالاجمال
اخرى والحاصل ان الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء
في الدنيا وقصر امله لا محالة لانه يريد البقاء ليتمتع الدايم بارادة فان من اراد دوامه ولا معنى لحب الحيوة
الا لحب دوام ما هو موجود او ممكن في هذه الحيوة فاذا رغب عنها لم يردها ولذلك لما كتب عليهم القتال لولا
اخرتنا الى اجل قريب قل متاع الدنيا قليل اي لستم تريدون البقاء الا لمتاع الدنيا فظهر عند ذلك
الزاهدون وانكشف حال المنافقين اما الزاهدون المحبون لله فقاتلوا في سبيل الله كانهم بنيان مرصوص
وانتظروا احدى الحسنيين واما المنافقون ففروا من الزحف خوفا من الموت فقيل لهم ان الموت الذي تفرون
منه فانه ملاقيكم فايثارهم البقاء على الشهادة استبدال للذي هو ادنى بالذي هو خير فاولئك الذين
اشتروا الحيوة الدنيا بالآخرة فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين واما المخلصون فان الله عز وجل اشترى
منهم انفسهم واموالهم بان لهم الجنة فلما راوا انهم تركوا التمتع عشرين سنة او ثلثين بتمتع الابد استبشروا ببيعهم
الذي بايعوا به فهذا بيان المزهود فيه واذا فهمت هذا علمت ان ما ذكره المتكلمون في حد الزهد لم يشيروا
به الا الى بعض اقسامه فذكر كل واحد ما راه غالبا على نفسه او على من كان يخاطبه فقال بشر الزهد في الدنيا هو الزهد
في الناس وهذا اشارة الى الزهد في الجاه خاصة وقال قاسم الجوعي الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف فبقدر
ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد وهذا اشارة الى الزهد في شهوة واحدة ولعمري هي اغلب الشهوات
على الاكثر وهي المهيجة لاكثر الشهوات وقال الفضيل الزهد هو القناعة وهو اشارة الى المال خاصة وقال
الثوري الزهد هو قصر الامل وهذا جامع لجميع الشهوات لا يحدث نفسه بالبقاء فيطول امله ومن قصر
امله فكانه رغب عن الشهوات كلها وقال اويس اذا خرج يطلب ذهب الزهد وما قصد بهذا حد الزهد
ولكن جعل التوكل شرطا في الزهد وقال اويس ايضا الزهد ترك الطلب للمضمون وهو اشارة الى الرزق
وقال اهل الحديث الدنيا هو العمل بالراي والمعقول والزهد انما هو اتباع العلم ولزوم السنة وهذا ان

اريد به الراي الفاسد والمعقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح ولكنه اشارة الى بعض اسباب
الجاه خاصة او الى بعض ما هو من فضول الشهوات فان من العلوم ما لا فائدة فيها في الآخرة وقد طولوها
حتى ينقضي عمر الانسان في الاستقلال بواحد منها فشرط الزاهد ان يكون الفضول اول مرغوب عنه عنده
وقال الحسن الزاهد الذي اذا راى احدا قال هذا افضل مني فذهب الى ان الزهد هو التواضع وهذا اشارة
الى نفي الجاه والعجب وهو بعض اقسام الزهد وقال بعضهم الزهد هو طلب الحلال واين هذا ممن يقول الزهد هو
ترك الطلب كما قال اويس ولا شك في انه اراد به طلب الحلال وكان يوسف بن اسباط يقول من صبر على الاذى وترك
الشهوات واكل الخبز من الحلال فقد اخذ باصل الزهد وفي الزهد اقاويل وراء ما نقلناه فلم نر في نقلها فائدة
فان من طلب كشف حقائق الامور من اقاويل الناس راها مختلفة ولا يستفيد الا الحيرة واما من يكشف له الحق
في نفسه وادركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من سمعه وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته
وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور في البصيرة ولكنهم ذكروا
ما ذكروه عند الحاجة فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة والحاجة تختلف فلا جرم الكلمات تختلف وقد يكون
سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الراهنة التي هي مقام العبد في نفسه والاحوال تختلف فلا جرم الاحوال المخبرة
عنها تختلف واما الحق في نفسه فلا يكون الا واحدا ولا يتصور ان يختلف وانما الجامع من هذه الاقاويل الكامل
في نفسه وان لم يكن فيه تفصيل ما قاله ابو سليمان الداراني اذ قال قد سمعنا في الزهد كلاما كثيرا والزهد عندنا
ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل وقد فصل مرة وقال من تزوج او سافر في طلب المعيشة او كتب الحديث فقد ركن
الى الدنيا فجعل جميع ذلك ضد الزهد وقرا ابو سليمان قوله تعالى الا من اتى الله بقلب سليم قال هو القلب الذي
ليس فيه غير الله وقال انما زهدوا في الدنيا لتتفرغ قلوبهم من همومها للآخرة فهذا بيان انقسام الزهد بالاضافة
الى اصناف المزهود فيه فاما بالاضافة الى احكامه فينقسم الى فرض ونفل وسلامة كما قال ابرهيم بن ادهم
الفرض هو الزهد في الحرام والنفل هو الزهد في الحلال والسلامة هو الزهد في الشبهات وقد ذكرنا تفاصيل

درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزهد اذ قيل لمالك بن انس ما الزهد فقال التقوى واما بالاضافة
الى خفايا ما يترك فلا نهاية للزهد اذ لا نهاية لما يتمتع به النفس في الخطرات واللحظات وساير الحالات لا سيما
خفايا الريا فان ذلك لا يطلع عليه الا سماسرة العلماء بل الاموال الظاهرة ايضا درجات الزهد فيها لا يتناهى
فمن اقصى درجاتها زهد عيسى عليه السلام اذ توسد حجرا في نومه فقال له الشيطان اما كنت تركت الدنيا فما الذي
بدا لك فقال وما الذي تجدد قال توسدك الحجر اي تنعمت برفع راسك عن الارض في النوم فرمى الحجر وقال خذه فيما
تركته لك وروي عن يحيى بن زكريا انه لبس المسوح حتى نقب جلده تركا للتنعم بلين اللباس واستراحة اللمس
فسالته امه ان يلبس مكانها جبة من صوف ففعل فاوحى الله تعالى اليه يا يحيى آثرت علي الدنيا فبكى ونزع الصوف وعاد
الى ما كان وقال احمد الزهد زهد اويس بلغ من العري الى ان جلس في قوصرة وجلس عيسى عليه السلام في ظل حايط
انسان فاقامه صاحب الحايط فقال ما اقمتني انت انما اقامني الذي لم يرض لي ان اتنعم بظل الحايط فاذا درجات
الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها واقل درجاته الزهد في كل شبهة ومحظور وقال قوم الزهد هو الزهد
في الحلال لا في الشبهة والمحظور وليس ذلك من درجاته في شيء ثم راوا انه لم يبق حلال في اموال الدنيا فلا
يتصور الزهد الآن فان **قلت** مهما كان الصحيح هو ان الزهد ترك ما سوى الله عز وجل فكيف يتصور ذلك
مع الاكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالمتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله عز وجل **فاعلم**
ان معنى الانصراف عن الدنيا الى الله عز وجل الاقبال بكل القلب عليه ذكرا وفكرا ولا يتصور ذلك الا مع البقاء
ولا بقاء الا بضرورات النفس فمهما اقتصرت من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة
بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله فان ما لا يتوصل الى الشيء الا به فهو منه فالمشتغل بعلف
الناقة وسقيها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج ولكن ينبغي ان يكون بدنك في طريق الله عز وجل
مثل ناقتك في طريق الحج ولا غرض لك في تنعم ناقتك باللذات بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتى
تسير بك الى مقصدك وكذلك ينبغي ان تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالاكل

والشرب

والشرب وعن الحر والبرد المهلك باللباس والمسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ
بل التقوي على طاعة الله عز وجل فذلك لا يناقض الزهد بل هو شرط الزهد وان **قلت**
لا بد وان التذ بالاكل عند الجوع **فاعلم** ان ذلك لا يضرك اذا لم يكن قصدك التلذذ
فان شارب الماء البارد قد يستلذ الشرب ويرجع حاصله الى زوال الم العطش ومن يقضي حاجته
قد يستريح به ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بقلبه فلا يكون القلب منصرفا اليه فالانسان قد
يستريح في قيام الليل بنسيم الاسحار وصوت الطيور ولكن اذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة
فما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ولقد كان في الخائفين من طلب موضعا لا يصيبه نسيم الاسحار
خيفة من الاستراحة به وانس القلب معه فيكون فيه انس الى الدنيا ونقصان لانسه بالله عز وجل بقدر
وقوع الانس بغير الله ولذلك كان داود الطائي له حب مكسور فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس
ويشرب الماء الحار ويقول من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا فهذه مخاوف الحزم
في جميع الاحتياط فانه وان كان شاقا فمدته قريبة والاحتماء مدة يسيرة للتنعم على التابيد
لا يثقل على اهل المعرفة القاهرين انفسهم بسياسة الشرع المعتصمين بعروة اليقين في معرفة
المضادة التي بين الدنيا والدين

بيان تفصيل الزهد في ضروريات الحيوة

اعلم ان ما الناس منهمكون فيه ينقسم الى فضول والى مهم فالفضول كالخيل
المسومة مثلا اذ يقتنيها الانسان ليركب وهو قادر على المشي والمهم كالاكل والشرب ولسنا
نقدر على تفصيل اصناف الفضول لان ذلك لا ينحصر وانما ينحصر المهم الضروري والمهم ايضا يتطرق
اليه فضول في مقداره وجنسه واوقاته فلا بد من بيان وجه الزهد فيه والمهمات ستة المطعم والملبس
والمسكن واثاثه والمنكح والمال والجاه يطلب لاغراض فمنها الاربعة من جملتها وقد ذكرنا معنى
الجاه وكيفية الاحتراز منه في كتاب الريا من ربع المهلكات ونحن الآن نقتصر على بيان هذه

المهمات الاربعة الاول المطعم ولا بد للانسان من قوت يقيم صلبه ولكن له طول وعرض فلا بد
من قبض طوله وعرضه حتى يتم به الزهد فاما طوله فبالاضافة الى جملة العمر فان من يملك طعام يومه
قد لا يقنع به واما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله اما طوله فلا ينقصر الا بقصر الامل
واقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدة الجوع وخوف المرض ومن هذا حاله فاذا
استقل بما تناوله لم يدخر من غدائه لعشائه وهذه هي الدرجة العليا الدرجة الثانية ان يدخر
لشهر او لاربعين يوما والثالثة ان يدخر لسنة فقط وهذه رتبة ضعفاء الزهاد ومن ادخر
لاكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال لان من امل بقاء اكثر من سنة فهو طويل الامل جدا فلا يتم منه
الزهد الا اذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الاخذ من الايدي كداود الطائي فانه ورث عشرين دينارا
فامسكه وانفقه في عشرين سنة فهذا لا يضاد اصل الزهد الا عند من جعل التوكل شرط الزهد
واما عرضه فبالاضافة الى المقدار فاقل درجاته في اليوم والليلة نصف رطل واوسطه
رطل واعلاه مد واحد وهو ما قدره الله عز وجل في طعام المساكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن
والاشتغال به ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب واما بالاضافة الى
الجنس فاقله كل ما يقوت ولو الخبز من النخالة واوسطه خبز الشعير والذرة واعلاه خبز البر غير منخول فاذا ميز
النخالة او صار حواري فقد دخل في التنعم وخرج عن اخر ابواب الزهد فضلا عن اوايله واما الادم فاقله
الملح او البقل والخل واوسطه الزيت ويسير من الادهان اي دهن كان واعلاه اللحم اي لحم كان وذلك في
الاسبوع مرة او مرتين فان صار دائما او اكثر من مرتين في الاسبوع خرج من ابواب الزهد ولم يكن
صاحبه زاهدا في البطن اصلا واما بالاضافة الى الوقت فاقله في اليوم والليلة مرة وهو ان يكون
صايما واوسطه ان يصوم ويشرب ليلة ولا ياكل وياكل ليلة ولا يشرب واعلاه ان ينتهي الى ان يطوي ثلثة
ايام واسبوعا وما زاد عليه وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربع المهلكات ولينظر

الى

الى احوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الادم قالت عايشة رضي الله عنها
كانت تاتي اربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار قيل لها فبم كنتم
تعيشون قالت بالاسودين التمر والماء وهذا ترك اللحم والمرقة والادم وقال الحسن كان صلى الله عليه وسلم
يركب الحمار ويلبس الصوف وينتعل المخصوف ويلعق اصابعه وياكل على الارض ويقول انما انا عبد اكل
كما ياكل العبد وقال عيسى عليه السلام بحق اقول انه من طلب الفردوس فخبز الشعير له والنوم في المزابل
مع الكلاب كثير وقال الفضيل ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلثة ايام من خبز البر
وكان عيسى عليه السلام يقول يا بني اسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير واياكم وخبز البر
فانكم لن تقوموا بشكره وقد ذكرنا سيرة الانبياء والسلف في المطعم في ربع المهلكات فلا نعيده ولما اتي
رسول الله صلى الله عليه وسلم اهل قبا اتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل فوضع القدح من يده وقال اما
اني لم احرمه ولكني اتركه تواضعا لله عز وجل واتي بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صايف فقال
اعزلوا عني حسابها وقد قال يحيى بن معاذ الرازي الزاهد الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر
ومسكنه حيث ادرك الدنيا سجنه والقبر مضجعه والخلوة مجلسه والاعتبار فكرته والقران حديثه
والرب انيسه والذكر رفيقه والزهد قرينه والحزن شانه والحياء شعاره والجوع ادامه والحكمة
كلامه والتراب فراشه والتقوى زاده والصمت غنيمته والصبر معتمده والتوكل حسبه والعقل
دليله والعبادة حرفته والجنة مبلغه ان شاء الله تعالى المهم الثاني الملبس واقل درجاته
ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة وهو كساء يتغطى به واوسطه قميص وقلنسوة واعلاه ان يكون
معه منديل وسراويل وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد وشرط الزاهد
ان لا يكون له ثوب يلبسه اذا غسل ثوبه بل يلزمه القعود في البيت فاذا صار صاحب قميصين
وسراويلين ومنديلين فقد خرج عن جميع ابواب الزهد هذا من حيث المقدار اما الجنس فاقله

المسوح الخشنة واوسطها الصوف الخشن واعلاه القطن الغليظ وامّا من حيث الوقت فاقصاه ما يستر

سنة واقله ما يبقى يوما حتى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر وان كان يتسارع الجفاف اليه واوسطه ما يتماسك

عليه شهرا وما يقاربه وطلب ما يبقى اكثر من سنة خروج الى طول الامل وهو مضاد للزهد الا اذا كان المطلوب

خشونته ثم قد يتبع ذلك قوته وجودة وامه فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي ان يتصدق به فان امسكه لم يكن

زاهدا بل كان محبا للدنيا ولينظر فيه الى احوال النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة كيف تركوا الملابس قال ابو بردة اخرجت

لنا عايشة كساء ملبدا وازارا غليظا فقالت قبض في هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين وقال صلى الله

عليه وسلم ان الله يحب المتبذل الذي لا يبالي ما لبس قال عمرو بن الاسود العنسي لا البس مشهورا ابدا ولا انام بليل

على دثار ابدا ولا اركب على مأثور ابدا ولا املأ جوفي من طعام ابدا وقال عمر رضي الله عنه من سره ان ينظر الى

هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر الى عمرو بن الاسود وفي الخبر ما من عبد لبس ثوب شهرة الا اعرض الله عنه

عز وجل عنه حتى ينزعه وان كان عنده حبيبا واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا باربعة دراهم وكان قيمة ثوبه

عشرة وكان ازاره اربعة اذرع ونصفا واشترى سراويلا بثلاثة دراهم وكان يلبس شملتين بيضاوين

من صوف وكان تسمى حلة لانهما ثوبان من جنس واحد وربما يلبس بردين يمانيين او سحوليين من هذه الغلاظ

وفي الخبر كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كانه قميص زيات ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا سيراء

من سندس قيمته مائتا درهم فكان اصحابه يلمسونه ويقولون يا رسول الله انزل عليك هذا من الجنة تعجبا

وقد كان اهداه المقوقس ملك الاسكندرية فاراد ان يكرمه بلبسه ثم نزعه وارسل به الى رجل من المشركين

وصله به ثم حرم لبس الحرير والديباج وكانه لبسه اولا تاكيدا للتحريم كما لبس خاتما من ذهب يوما ثم نزعه

فحرم لبسه على الرجال وكما قال لعايشة في شان بريرة اشترطي لاهلها الولاء فلما اشترط صعد المنبر فحرمه

وكما اباح المتعة ثلاثا ثم حرمها لتاكيد امر النكاح وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خميصة لها علم فلما سلم

قال شغلني النظر الى هذه اذهبوا بها الى ابي جهم وائتوني بانبجانيته يعني كساءه فاختار لبس الكساء على الثوب

الناعم

الناعم وكان شراك نعله قد اخلق فابدل بسير جديد فصلى فيه فلما سلم قال اعيدوا الشراك الخلق وانزعوا

هذا الجديد فاني نظرت اليه في الصلوة ولبس خاتما فنظر اليه على المنبر نظرة فرمى به وقال شغلني هذا عنكم

نظرة اليه ونظرة اليكم وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى نعلين جديدين فاعجبه حسنهما فخر ساجدا وقال اعجبني

حسنهما فتواضعت لربي خشية ان يمقتني ثم خرج بهما فدفعهما الى اول مسكين رآه وقال صلى الله عليه وسلم ان من

خيار امتي فيما انبأني الملأ الاعلى قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويبكون سرا من خوف عذابه مؤنتهم على

الناس خفيفة وعلى انفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان اجسامهم في الارض وافئدتهم عند

العرش فهذه سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الملابس وقد وصى امته عامة باتباعه اذ قال من احبني فليستن

بسنتي وقال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين عضوا عليها بالنواجذ وقال تعالى قل ان كنتم تحبون الله

فاتبعوني يحببكم الله واوصى عايشة خاصة وقال لها ان اردت اللحوق بي فاياك ومجالسة الاغنياء ولا تنزعي

ثوبا حتى ترقعيه وعد على قميص عمر اثنتا عشرة رقعة بعضها من ادم واشترى رضي الله عنه ثوبا بثلاثة دراهم

ولبسه في الخلافة وقطع كميه من الرسغين وقال الحمد لله الذي هذا من رياشه وقال الثوري وغيره البس

من الثياب ما لا يشهرك عند العلماء ولا يحقرك عند الجهال وكان يقول ان الفقير ليمر بي وانا اصلي فادعه

يجوز ويمر بي واحد من ابناء الدنيا عليه هذه البزة فامقته فلا ادعه يجوز وقال بعضهم قومت ثوبي

سفيان ونعليه بدرهم واربعة دوانيق وقال ابن شبرمة خير ثيابي ما خدمني وشرها ما خدمته وقال بعض

السلف البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة ولا تلبس منها ما يشهرك فينظر اليك وقال ابو سليمان الثياب

ثلثة ثوب لله وهو ما يستر العورة وثوب للنفس وهو ما يطلب لينه وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه وقال

بعضهم من رق ثوبه رق دينه وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين الى الثلثين وكان الخواص لا يلبس

اكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته وربما يعطف ذيل قميصه على راسه وقال بعض السلف اول النسك الزي وفي الخبر

البذاذة من الايمان وفي الخبر من ترك ثوب جمال وهو يقدر عليه تواضعا لله عز وجل وابتغاء لوجهه كان حقا على الله

ان يدخله من عبقري الجنة في بحار الياقوت فاوحى الله عز وجل الى بعض انبيائه قل لاوليائي لا تلبسوا لباس اعدائي
ولا تدخلوا مداخل اعدائي فتكونوا كما هم اعدائي ونظر رافع بن خديج الى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ فقال
انظروا الى اميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق وكان عليه ثياب رقاق وجاء علي عبيد الله بن عامر بن ربيعة الى
ابي ذر في بزته فجعل يتكلم في الزهد فوضع ابو ذر راحته على فيه وجعل يضرطه فغضب ابن عامر فشكاه الى
ابن عمر فقال انت صنعت بنفسك تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة وقال علي رضي الله عنه ان الله عز وجل اخذ
على ائمة الهدى ان يكونوا في مثل ادنى احوال الناس ليقتدي بهم الغني ولا يزري بالفقير فقره ولما عوتب في خشونة
لباسه قال هو ادنى الى التواضع واجدر ان يقتدي به المسلم ونهى صلى الله عليه وسلم عن التنعم وقال ان لله عبادا
ليسوا بالمتنعمين ورأى فضالة بن عبيد وهو والي مصر اشعث حافيا فقيل له انت الامير وتفعل هذا فقال
نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الارفاه وامرنا ان نحتفي احيانا وقال علي لعمر رضي الله عنهما ان اردت ان
تلحق بصاحبيك فارقع القميص ونكس الازار واخصف النعل وكل دون الشبع وقال عمر اخلولقوا واخشوشنوا
واياكم وزي العجم كسرى وقيصر وقال علي رضي الله عنه من تزيا بزي قوم فهو منهم وقال صلى الله عليه وسلم ان من شرار امتي
الذين غذوا بالنعيم يطلبون الوان الطعام والوان الثياب ويتشدقون في الكلام وقال صلى الله عليه وسلم ازرة
المؤمن الى انصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين وما اسفل من ذلك ففي النار ولا ينظر الله يوم القيمة الى
من جر ازاره بطرا وقال ابو سليمان قال صلى الله عليه وسلم لا يلبس الشعر من امتي الا مراء او احمق وقال الاوزاعي لباس الصوف
في السفر سنة وفي الحضر بدعة ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف فقال له قتيبة ما دعاك
الى مدرعة الصوف فسكت فقال اكلمك ولا تجيبني فقال اكره ان اقول زهدا فازكي نفسي او فقرا فاشكو ربي وقال
ابو سليمان لما اتخذ الله ابراهيم خليلا اوحى الله اليه ان وار عورتك من الارض وكان لا يتخذ من كل شيء الا واحدا سوى
السراويل فانه كان يتخذ سراويلين فاذا غسل احدهما لبس الاخر حتى لا ياتي عليه حال الا وعورته مستورة وقيل
لسلمان الفارسي ما لك لا تلبس الجيد من الثياب فقال وما للعبد والثوب الحسن فاذا عتق فله والله ثياب لا تبلى ابدا ويروى

عن عمر بن عبد العزيز انه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل اذا قام يصلي وقال الحسن لفرقد السبخي تحسب ان لك فضلا على
الناس بكسائك هذا بلغني ان اكثر اهل النار اصحاب الاكسية وقال يحيى بن معين رايت ابا معاوية الاسود وهو يلتقط الخرق
من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها فقلت انك تكسى خيرا من هذا فقال ما ضرهم ما اصابهم في الدنيا جبر الله لهم
بالجنة كل مصيبة فجعل يحيى بن معين يحدث بهذا ويبكي المهم الثالث المسكن ولكن هذا ايضا فيه ثلث درجات
اعلاها ان لا يطلب موضعا خاصا لنفسه فيقنع بزوايا المسجد كاصحاب الصفة واوسطها ان يطلب موضعا خاصا لنفسه
مثل كوخ مبني من سعف او خص او ما يشبهه وادناها ان يطلب حجرة مبنية اما بشراء او اجارة فان كان قدر سعته
على قدر حاجته من غير زيادة ولم يكن فيه زينة لم يخرجه هذا القدر عن اخر درجات الزهد فان طلب التشييد والتجصيص
والسعة وارتفاع السقف اكثر من ستة اذرع فقد جاوز بالكلية حد الزهد في المسكن فاختلاف جنس البناء بان يكون
بالجص والقصب او بالطين او بالاجر واختلاف قدره بالسعة والضيق واختلاف طوله بالاضافة الى الى وقات بان
يكون مملوكا او مستاجرا او مستعارا وللزهد مدخل في جميع ذلك وبالجملة كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي ان يجاوز
حد الضرورة وقدر الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته وما جاوز فهو مضاد للدين والغرض من المسكن دفع
المطر والبرد ودفع الاعين والايدي واقل الدرجات فيه معلوم وما زاد عليه فهو من الفضول والفضول
كله من الدنيا وطالب الفضول والساعي له بعيد عن الزهد جدا وقد قيل اول شيء ظهر من طول الامل بعد رسول الله
صلى الله عليه وسلم التدريز والتشييد يعني بالتدريز كف دروز الثياب فانها كانت تشل شلا والبنيان بالجص والاجر هو
التشييد وانما كانوا يبنون بالسعف والجريد وقد جاء في الاثر ياتي على الناس زمان يوشون بنيانهم كما
يوشى البرود اليمانية وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس ان يهدم علية كان قد علاها ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم
بجنبذة معلاة فقال لمن هذه فقالوا لفلان فلما جاءه الرجل اعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسال الرجل اصحابه عن
تغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبر فذهب فهدمها فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فاخبر بانه
هدمها فدعا له بخير وقال الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وقال صلى الله عليه وسلم

١٢٧

اذا اراد الله بعبد شرا اهلك ماله في الماء والطين وقال عبد الله بن عمر مر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج
خصا فقال ما هذا فقلنا خص لنا وقد وهي فقال ارى الامر اعجل من ذلك واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب
فقيل لو بنيت فقال هذا كثير لمن يموت وقال الحسن دخلنا على صفوان بن محرز وهو في بيت من قصب قد مال
عليه فقيل لو اصلحته فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم وقال صلى الله عليه وسلم من بنى فوق ما يكفيه كلف ان يحمله
يوم القيمة وفي الخبر كل نفقة يوجر عليها العبد الا ما انفقه في الماء والطين وفي قوله تعالى تلك الدار الاخرة نجعلها
للذين لا يريدون علوا في الارض انه الرياسة والتطاول في البنيان وقال صلى الله عليه وسلم كل بناء وبال على صاحبه
يوم القيمة الا ما اكن من حر وبرد وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي شكى اليه ضيق منزله اتسع في السماء اي الجنة
ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام الى صرح قد بني بجص واجر فكبر وقال ما كنت اظن ان يكون هذا في هذه الامة
من يبني بنيان هامان لفرعون يعني قول فرعون فاوقد لي يا هامان على الطين يعني به الاجر ويقال ان
فرعون اول من بني له بالجص والاجر واول من عمله هامان ثم تبعهما الجبابرة وهذا هو الزخرف وذكر
لبعض السلف جامعا في بعض الامصار فقال ادركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ثم رايته مبنيا
من رهوص ثم رايته الان مبنيا باللبن قال فكان اصحاب السعف خيرا من اصحاب الرهوص وكان اصحاب
الرهوص خيرا من اصحاب اللبن وكان من السلف من يبني حائطه مرارا في مدة عمره لضعف بنائه وقصر
امله وزهده في احكام البنيان وكان منهم من اذا حج او غزا نزع بيته او وهبه لجيرانه فاذا رجع
اعاده وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهو عادة العرب الان ببلاد اليمن وكان ارتفاع بناء
السلف قامة وبسطة وقال الحسن كنت اذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت بيدي الى
السقف وقال عمرو بن دينار اذا اعلى العبد البناء فوق ستة اذرع ناداه ملك الى اين يا افسق الفاسقين
ونهي سفيان عن النظر الى بناء مشيد وقال لولا نظر الناس لما شيدوه فالناظر معين عليه وقال الفضيل اني لا اعجب
ممن بني وترك ولكن ممن نظر اليه لم يعتبر وقال ابن مسعود يأتي قوم يرفعون الطين ويضعون الدين ويستعملون
ولكن اعجب ممن نظر
البراذين

الذين يصلون الى قبلتكم ويموتون على غير دينكم **المهم الرابع اثاث البيت** وللزهد فيه ايضا درجات
واعلاها حال عيسى عليه السلام اذ كان لا يصحبه الا مشط وكوز فراى انسانا يمشط لحيته باصابعه فرمى
المشط وراى اخر يشرب من النهر بكفيه فرمى الكوز وهذا حكم كل اثاث فانه يراد لمقصود فاذا استغني عنه فهو
وبال في الدنيا والاخرة وما لا يستغني عنه فيقتصر فيه على اقل الدرجات وهو الخزف في كل ما يكفي فيه الخزف ولا
يبالي بان يكون مكسور الطرف اذا كان المقصود يحصل به واوسطها ان يكون له اثاث بقدر الحاجة صحيح
في نفسه لكن يستعمل الالة الواحدة في مقاصد كالذي معه قصعة يشرب فيها وياكل الثريد فيها ويحفظ
المتاع فيها وكان السلف يستحبون استعمال الة واحدة في اشياء للتخفيف واعلاها ان يكون له بعدد كل حاجة
الة من الجنس النازل الخسيس فان زاد في العدد او في نفاسة الجنس خرج عن جميع ابواب الزهد وركن الى طلب
الفضول ولينظر الى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة فقد قالت عائشة رضي الله عنها كان ضجاع رسول الله
صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من ادم حشوها ليف وقال الفضيل ما كان فراش رسول الله صلى الله
عليه وسلم الا عباءة مثنية ووسادة من ادم حشوها ليف وروي ان عمر بن الخطاب دخل على رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط فجلس فراى اثر الشريط في جنبه صلى الله عليه وسلم فدمعت عيناه فقال
له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الذي ابكاك يا ابن الخطاب فقال ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك
فذكرتك وانت رسول الله وحبيبه وصفيه نائم على سرير مرمول بالشريط فقال صلى الله عليه وسلم اما ترضى
يا عمر ان يكون لهما الدنيا ولنا الاخرة قال بلى يا رسول الله قال فذلك كذلك ودخل رجل على ابي ذر
فجعل يقلب بصره في بيته فقال يا ابا ذر ما ارى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الاثاث فقال ان لنا بيتا
نوجه اليه صالح متاعنا فيه فقال انه لا بد لك من متاع ما دمت ههنا فقال ان صاحب المنزل لا يدعنا فيه
ولما قدم عمير بن سعد امير حمص على عمر رضي الله عنه قال له ما معك من الدنيا فقال معي عصاي اتوكا عليها
واقتل بها حية ان لقيتها ومعي جرابي احمل فيه طعامي ومعي قصعتي اكل فيها واغسل فيها ثوبي ومعي مطهرتي

احمل فيها شي الى وضوي للصلوة فما كان بعد هذا من الدنيا تبع لما مضى فقال عمر صدقت رحمك الله
وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على فاطمة رضي الله عنها فرأى على بابها سترا وفي يديها قلبين من
فضة فرجع فدخل عليها ابو رافع وهي تبكي فاخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله فقال من اجل
الستر والسوارين فارسلت بهما بلالا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت به فضعه حيث
ترى فقال اذهب فبعه وادفعه الى اهل الصفة فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق به عليهم فدخل
عليها فقال بابي انت قد احسنت ورأى صلى الله عليه وسلم على باب عائشة سترا فهتكه فقال كلما رأيته ذكرت
الدنيا ارسلي به الى آل فلان وفرشت له عائشة رضي الله عنها ذات ليلة فراشا جديدا وقد كان صلى الله عليه وسلم
ينام على عباءة مثنية فما زال يتقلب ليلته فلما اصبح قال لها اعيدي العباءة الخلقة ونحي هذا
الفراش عني قد اسهرني الليلة وكذلك اتته دنانير خمسة او ستة عشاء فبيتها فسهر ليلته حتى اخرجها من آخر
الليل قالت عائشة رضي الله عنها فنام حينئذ حتى سمعت غطيطه ثم قال ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده
وقال الحسن ادركت سبعين من الاخيار ما لاحدهم الا ثوبه وما وضع احدهم بينه وبين الارض ثوبا قط كان اذا اراد
النوم باشر الارض بجسمه وجعل ثوبه فوقه المهم الخامس المنكح وقد قال قائلون لا معنى للزهد في اصله
ولا في كثرته واليه ذهب سهل بن عبد الله وقال قد حبب الى سيد الزاهدين فكيف نزهد فيهن ووافقه ابن
عيينة وقال كان ازهد الصحابة علي بن ابي طالب رضي الله عنه وكان له اربع نسوة وبضع عشرة سرية والصحيح ما قاله
ابو سليمان الداراني اذ قال كل ما شغلك عن الله من اهل ومال وولد فهو عليك مشوم والمرأة قد تكون شاغلة
وكشف الحق فيه انه قد تكون العزوبة افضل في بعض الاحوال كما سبق في كتاب النكاح فيكون ترك النكاح
من الزهد وحيث يكون النكاح افضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد وان لم يكن
عليه آفة في تركه ولا فعله ولكن ترك النكاح احترازا من ميل القلب اليهن والانس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله
عز وجل فترك ذلك من الزهد وان علم ان المرأة لا تشغله عن ذكر الله عز وجل ولكن ترك احترازا من لذة النظر

والمضاجعة والمواقعة فليس هذا من الزهد اصلا فان الولد مقصود لبقاء نسله وتكثير امة رسول الله صلى الله عليه وسلم من القربات
واللذة التي تلحق الانسان فيما هو ضرورة الوجود لا تضره اذا لم يكن هو المطلوب والمقصود وهو كمن يترك اكل الخبز وشرب
الماء احترازا من لذة الاكل والشرب وليس ذلك من الزهد لان في تركه فوات بدنه وفي ترك النكاح انقطاع نسله
فلا يجوز ان يترك النكاح زهدا من غير خوف آفة اخرى وهذا ما عناه سهل لا محالة ولاجله نكح رسول الله
صلى الله عليه وسلم واذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في انه لا يشغله كثرة النسوان ولا اشتغال القلب
باصلاحهن والانفاق عليهن فلا معنى لزهده فيهن حذرا من مجرد لذة الوقاع والنظر ولكن انى يتصور ذلك
لغير الانبياء والاولياء فاكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان فينبغي ان يترك الاصل ان كان يشغله وان لم يشغله
وكان يخاف الكثرة منهن او جمال المرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك قال ابو سليمان الزهد في النساء
ان تختار المرأة الدون او اليتيمة على المرأة الجميلة والشريفة وقال الجنيد احب للمريد المبتدي ان لا يشغل قلبه
بثلث والا تغير حاله التكسب وطلب الحديث والتزويج وقال احب للصوفي ان لا يقرأ ولا يكتب لانه اجمع لهمه فاذا ظهر
ان لذة النكاح كلذة الاكل فما يشغل عن الله فهو محذور فيهما جميعا المهم السادس ما يكون وسيلة الى
هذه الخمسة وهو المال والجاه اما الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل بها الى الاستعانة في الاغراض
والاعمال وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وافتقر الى من يخدمه افتقر الى جاه لا محالة في قلب خادمه
لانه ان لم يكن له عنده محل وقدر لم يقم بخدمته وقيام القدر والمحل في القلوب هو الجاه وهذا له اول قريب
ولكن يتمادى الى هاوية لا عمق لها ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه وانما يحتاج الى المحل في القلوب اما لجلب
نفع او لدفع ضر او الخلاص من ظلم فاما النفع فيغني عنه المال فان من يخدم باجرة يخدم وان لم يكن للمستأجر عنده
قدر وانما يحتاج الى الجاه في قلب من يخدم بغير اجرة واما دفع الضر فيحتاج لاجله الى الجاه في بلد لا يكمل العدل
فيه او ان يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم الا بمحل له في القلوب او محل له عند السلطان وقدر
الحاجة فيه لا ينضبط لا سيما اذا انضم اليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك
الخائض

بل حق الزاهد ان لا يسعى في طلب المحل في القلوب اصلا فان اشتغاله بالدين والعبادة يمهد له من المحل في القلوب ما
يدفع به عنه الاذى ولو كان بين الكفار فكيف بين المسلمين واما التوهمات والتقديرات التي تحوج الى زيادة
في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي اوهام كاذبة اذ من طلب الجاه ايضا لم يخل عن اذى في بعض الاحوال فعلاج ذلك
بالاحتمال والصبر اولى من علاجه بطلب الجاه فاذا طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه اصلا واليسير منه داع الى الكثير
وضراوته اشد من ضراوة الخمر فليحترز من قليله وكثيره واما المال فهو ضروري في المعيشة اعني القليل منه فان
كان كسوبا فاذا اكتسب حاجة يومه فينبغي ان يترك الكسب كان بعضهم اذا اكتسب حبتين رفع سفطه وقام هذا شرط الزهد
فان جاوز ذلك الى ما يكفيه اكثر من سنة فقد خرج عن حد ضعفاء الزهاد واقويائهم جميعا وان كانت له ضيعة ولم يكن له
قوة يقين في التوكل فامسك منها مقدارا يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر من الزهد بشرط ان
يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته ولكن يكون من ضعفاء الزهاد فان شرط التوكل في الزهد كما شرطه
اويس القرني فلا يكون هذا من الزهاد وقولنا انه خرج من حد الزهاد نعني به ان الموعد للزاهدين في الدار الاخرة
من المقامات المحمودة لا يناله والا فاسم الزهد لا يفارقه بالاضافة الى ما زهد فيه من الفضول والكثرة وامر
المنفرد في جميع ذلك اخف من امر المعيل وقال ابو سليمان لا ينبغي ان يرهق الرجل الى الزهد اهله بل يدعوهم اليه
فان اجابوا والا تركهم وفعل بنفسه ما شاء معناه ان التضييق المشروط على الزاهد يخصه ولا يلزمه كل ذلك
في عياله نعم لا ينبغي ان يجيبهم ايضا فيما يخرج عن حد الاعتدال وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ انصرف
من بيت فاطمة بسبب ستر وقلبين لان ذلك من الزينة لا من الحاجة فاذا ما يضطر الانسان اليه من جاه
ومال ليس بمحذور بل الزائد على الحاجة سم قاتل والمقتصر على الضرورة دواء نافع وما بينهما درجات
متشابهة فما يقرب من الزيادة وان لم يكن سما قاتلا فهو مضر وما يقرب من الضرورة فهو وان لم يكن
دواء نافعا ولكنه يسير الضرر والسم محظور شربه والدواء فرض تناوله وما بينهما مشتبه امره فمن احتاط
فانما يحتاط لنفسه ومن تساهل فانما يتساهل على نفسه ومن ترك ما يريبه الى ما لا يريبه ورد نفسه الى مضيق الضرورة

فهو

فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية لا محالة والمقتصر على الضرورة والمهم لا يجوز ان ينسب الى الدنيا
بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لانه شرط الدين والشرط من جملة المشروط ويدل عليه ما روي ان ابراهيم الخليل
عليه السلام اصابته حاجة فذهب الى صديق له يستقرض منه شيئا فلم يقرضه فرجع مهموما فاوحى الله عز وجل اليه
لو سالت خليلك لاعطاك فقال يا رب عرفت مقتك للدنيا فخفت ان اسالك منها شيئا فاوحى الله عز وجل
اليه ليس الحاجة من الدنيا فاذا قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدنيا ايضا
كذلك يعرفه من اختبر احوال الاغنياء وما عليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الذل فيه
وغاية سعادته به ان يسلم لورثته فياكلونه وهم اعداؤه وربما يستعينون به على المعصية فيكون هو معينا
لهم عليها ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لا يزال ينسج على نفسه حتى يقتلها
ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصا فيموت ويهلك بسبب عمله بنفسه وكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا
فانما يحكم على قلبه سلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والاهل
والولد وشماتة الاعداء ومراءاة الاصدقاء وسائر حظوظ الدنيا فلو خطر له انه قد اخطا فيه
وقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه تقيد بسلاسل واغلال لا يقدر على قطعها ولو ترك محبوبا
من محابه كاد ان يكون قاتلا لنفسه وساعيا في هلاكه الى ان يفرق ملك الموت بينه وبين جميعها
دفعة فتبقى السلاسل من قلبه متعلقة بالدنيا التي فاتته وخلفها فهي تجاذبه الى الدنيا ومخالب ملك
الموت قد تعلقت بعروق قلبه تجذبه الى الآخرة فيكون اهون احواله عند الموت ان يكون مثل شخص ينشر
بالمنشار ويفصل احد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين والذي ينشر بالمنشار انما ينزل المولم
ببدنه ويتالم من حيث يسري اثره الى قلبه فكيف الظن بالم يتمكن اولا من صميم القلب مخصوصا به لا بطريق
السراية اليه من غيره فهذا اول عذاب يلقاه وذلك لما يراه من حسرة فوت النزول في اعلى عليين وجوار
رب العالمين فبالنزوع الى الدنيا يحجب عن لقاء الله عز وجل وعند الحجاب يتسلط عليه نار جهنم

اذ النار غير مسلطة الا على محجوب قال الله تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم
فرتب العذاب بالنار على الم الحجاب والم الحجاب كاف من غير علاوة النار فكيف اذا اضيفت العلاوة اليه فنسال
الله تعالى ان يقررنا بما نفث في روع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قيل له احبب ما احببت فانك مفارقه فلذلك حب
كدود كدود القز ينسج دايما ويهلك غما وسط ما هو ناسجه ولما انكشف لاولياء الله عز وجل ان العبد مهلك نفسه باعماله
واتباعه هوى نفسه اهلاك دود القز رفضوا الدنيا بالكلية حتى قال الحسن رايت سبعين بدريا كانوا فيما احل الله
لهم ازهد منكم فيما حرم الله عليكم وفي لفظ اخر كانوا بالبلاء اشد فرحا منكم بالخصب والرخا لو رايتموهم قلتم مجانين
ولو راوا خياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق ولو راوا اشراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب وكان احدهم يعرض
له المال الحلال فلا ياخذه ويقول اخاف ان يفسد علي قلبي فمن كان له قلب كان يخاف من فساده والذين امات
حب الدنيا قلوبهم فقد اخبر الله عنهم اذ قال ورضوا بالحيوة الدنيا واطمانوا بها والذين هم عن اياتنا غافلون
وقال تعالى ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هويه وكان امره فرطا وقال فاعرض عمن تولى عن ذكرنا
ولم يرد الا الحيوة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام احملني معك في سياحتك فقال
اخرج مالك والحقني فقال لا استطيع فقال عليه السلام بعجب يدخل الغني الجنة او قال بشدة وقال بعضهم ما من
يوم ذر شارقه الا واربعة املاك ينادون في الافاق باربعة اصوات ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب
يقول احدهم من المشرق يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر اقصر ويقول الاخر اللهم اعط منفقا خلفا واعط ممسكا
تلفا ويقول اللذان في المغرب لدوا للموت وابنوا للخراب ويقول الاخر كلوا وتمتعوا لطول الحساب

بيان علامات الزهد

اعلم انه قد يظن ان تارك المال زاهد وليس كذلك فان ترك
المال واظهار الخشونة سهل على من احب المدح بالزهد فكم من الرهابين من ردوا انفسهم كل يوم الى قدر يسير
من الطعام ولازموا ديرا لا باب له وانما سرور احدهم معرفة الناس حاله ونظرهم اليه ومدحهم له فذلك لا يدل
على الزهد دلالة قاطعة بل لا بد من الزهد في المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من

الدنيا بل قد يدعي جماعة الزهد مع لبس الاصواف الفاخرة والثياب الرفيعة كما قال الخواص في وصف المدعين اذ قال
وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من الثياب يموهون بذلك على الناس ليهدى اليهم مثل لباسهم لئلا ينظر اليهم
بالعين التي ينظر بها الى الفقراء فيحتقروا ويعطوا كما يعطى المساكين ويحتجون لانفسهم باتباع العلم وانهم على السنة
وان الاشياء داخلة عليهم وهم خارجون منها وانما ياخذون بعلة غيرهم هذا اذا طولبوا بالحقائق والجئوا الى المضايق
وكل هؤلاء اكلة الدنيا بالدين لم يعتنوا بتصفية اسرارهم ولا بتهذيب اخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم
فغلبتهم فادعوها حالا لهم فهم مائلون الى الدنيا متبعون للهوى فهذا كلام الخواص فاذا معرفة الزهد مشكل
بل حال الزهد مشكل وينبغي ان يعول في باطنه على ثلاث علامات الاولى ان لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود
كما قال لكيلا تاسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما اتيكم بل ينبغي ان يكون بالضد من ذلك وهو ان يحزن بوجود المال
ويفرح بفقده والثاني ان يستوي عنده ذامه ومادحه فالاول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد
في الجاه والثالث ان يكون انسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة اذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة
اما محبة الدنيا واما محبة الله عز وجل وهما في القلب كالماء والهواء في القدح فالماء اذا دخل خرج الهواء
ولا يجتمعان وكل من انس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره ولذلك قيل لبعضهم الى ما افضى بهم الزهد فقال
الى الانس بالله فاما الانس بالدنيا وبالله جميعا فلا يجتمع وقد قال اهل المعرفة اذا تعلق الايمان بظاهر القلب احب الدنيا
والاخرة جميعا وعمل لهما واذا بطن الايمان في سويداء القلب وباشره ابغض الدنيا فلم ينظر ولم يعمل لها ولهذا ورد في دعاء
ادم عليه السلام اللهم اني اسالك ايمانا يباشر قلبي وقال ابو سليمان من شغل بنفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل
بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين والزاهد لا بد وان يكون في احد هذين المقامين ومقامه الاول ان يشغل
نفسه بنفسه وعند ذلك يستوي عنده الذم والمدح والوجود والعدم ولا يستدل بامساكه قليلا من المال على فقد
زهده اصلا قال ابن ابي الحواري قلت لابي سليمان اكان داود الطائي زاهدا قال نعم قلت بلغني انه ورث من ابيه
عشرين دينارا فانفقها في عشرين سنة فكيف كان زاهدا وهو يمسك الدنانير فقال اردت منه ان يبلغ حقيقة



الزهد واراد بالحقيقة الغاية فان الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس لا يتم الزهد الا بالزهد في جميعها وكل من ترك
الدنيا شيئا مع القدرة عليه خوفا على قلبه ودينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه وآخره ان يترك كل ما سوى الله عز وجل حتى
لا يتوسد حجرا كما فعله عيسى عليه السلام فنسأل الله تعالى ان يرزقنا من مباديه نصيبا وان قل فان امثالنا لا يجترئ بطمع على غايته
وان كان قطع الرجاء من فضل الله عز وجل غير مأذون فيه واذا لاحظنا عجائب نعم الله عز وجل علينا علمنا ان الله عز وجل لا يتعاظم
امر فلا بعد في ان نعظم السؤال اعتمادا على الجود المجاوز لكل كمال فاذا علامة الزهد استواء الغنى والفقر والعز والذل والمدح
والذم لاجل غلبة الانس بالله وتشعب عن هذه المعاملات علامات اخر لا محالة مثل ان يترك الدنيا ولا يبالي من اخذها وقيل علامته
ان يترك الدنيا كما هي لا يقول ابني رباطا واعمر مسجدا وقال يحيى بن معاذ علامة الزهد السخاء بالموجود وقال ابن خفيف علامته
وجود الراحة في الخروج من الملك وقال ايضا الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف وقال ابو سليمان الصوف علم من اعلام الزهد فلا
ينبغي ان يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم وقال احمد بن حنبل وسفيان علامة الزهد قصر الامل وقال سري لا يطيب عيش
الزاهد اذا اشتغل عن نفسه ولا يطيب عيش العارف اذا اشتغل بنفسه وقال النصراباذي الزاهد غريب في الدنيا والعارف غريب في
الآخرة وقال يحيى بن معاذ علامة الزهد ثلث عمل بلا علاقة وقول بلا طمع وعز بلا رياسة وقال ايضا الزاهد يسعطك الخل والخردل
والعارف يشمك المسك والعنبر وقال له رجل متى ادخل حانوت التوكل والبس رداء الزهد واقعد مع الزاهدين فقال اذا
صرت من رياضتك لنفسك في السر الى حد لو قطع الله عز وجل عنك الرزق ثلثة ايام لم تضعف في نفسك فاما ما لم تبلغ هذه الدرجة
فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن ان تفتضح وقال ايضا الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها
ويخرق ثوبها والعارف يشتغل بالله ولا يلتفت اليها وقال السري مارست كل شيء من امر الزهد فنلت منه ما اريد الا الزهد في الناس فاني لم ابلغه
ولم اطقه وقال الفضيل الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد فهذا ما اردنا ان نذكره من حقيقة
الزهد واحكامه ولما كان الزهد لا يتم الا بالتوكل فلنشرع في بيانه

ختم كتاب الفقر والزهد بعون الله

الحمد لله رب العالمين والصلوة على النبي محمد وآله الطاهرين اجمعين